نظرية الأنواع الأدبية

لمؤلفه

M. L'Abbé Ci. Vincent

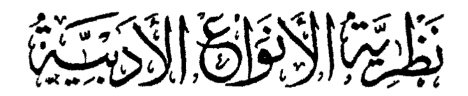
المجلد الثاني

ترجمه الى اللغة العربية وعلق عليه

الدكتور حسن عون
الاستاذ بكلية الآداب
جامعة الاسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

١٩٥٨



لمؤلفه

M. L'Abbé Cl. Vincent

المجلد الثاني

ترجمه إلى اللغة العربية وعلق عليه

الدكتور حسن عون
الأستاذ بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف الإسكندرية

١٩٥٨

للمترجم :

١ — اللغة والنحو —

عرض وتحليل للغات عامة ، وللغة العربية والنحو العربي خاصة

٢ — العراق وما توالى عليه من حضارات —

عرض وتحليل للحضارات المختلفة فى بيئة العراق منذ العصور التاريخية الأولى حتى عصر الاسلام ثم أثر ذلك المباشر فى الحضارة العربية

٣ — النساء العالمات —

ترجمه إلى العربية لمسرحية موليير ـ

Les femmes savantes

بالاشتراك مع الدكتور طه الحاجرى

وللمترجم أيضا تحت الطبع :

١ — أوديسا العصر الحديث —

ترجمه إلى العربية لرواية يونانية حديثة تصور حياة أسرة يونانية رحلت من الجزر اليونانية ـ وعاشت فى مصر واسم هذه الأسرة ـ غالانوس ـ

٢ — En Gréce

d'ici et de là

مجموعة أبحاث ومحاضرات عملت فى اليونان وكتبت بالفرنسية

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا هو المجلد الثانى من « نظرية الأنواع الأدبية » وهو يحتوى على الكتاب الثالث والأخير من هذه الكتب الثلاثة التى جمعها المؤلف فى مجلد واحد .

ولما لم يكن من اليسير أن ننقل إلى العربية هذه الكتب فى مجلد واحد كما حدث فى النص الفرنسى فقد ترجمنا الكتاب الأول والثانى فى المجلد الأول وآثرنا أن يكون الكتاب الثالث فى مجلدمستقل هو المجلد الذى نحن بصدده الآن .

ولقد اتبعنا فى هذا المجلد نفس الطريقة التى سرنا عليها فى المجلد الأول ؛ بمعنى أننا لم نترك علما من الأعلام ولا كتابا من الكتب ولا أشارة من الاشارات الغامضة الا تناولنا ذلك بالشرح والتعليق مؤثرين أن يكون نص الترجمة فى أعلى الصفحة والتعليق فى أسفلها . وحدث فى بعض الأحيان أن طغى الشرح والتعليق على نص الترجمة ؛ ومن هنا كان المبرر لأن نسلك فى الترجمة مسلكا يخالف مسلك المؤلف نفسه ، الذى جمع كتبه الثلاثة فى مجلد واحد كما ذكرنا منذ قليل .

هذا وموضوع الكتاب الأول ، كما هو مبين بالتفصيل فى المجلد الأول ، المعارف العامة للأنواع الأدبية ، ومميزات كل نوع منها على حدة ، ثم تطور هذه الأنواع فى مراحل نموها . وموضوع الكتاب الثانى الشعر وأنواعه المختلفة ، وخصائص كل نوع ، ثم تطور هذه الأنواع الشعرية منذ النشأة حتى وصولها إلى قمة الاكتمال .

أما موضوع الكتاب الثالث فهو النثر بأنواعه المختلفة ؛ وسنذكر فى نهاية الترجمة فهرست الموضوعات بالتفصيل لهذا الكتاب .

وربما يجد القارىء فى ترجمة هذا المجلد بعض الأعلام التى لم نعلق عليها بشىء ؛ وذلك لأننا تناولناها بالتعليق فى المجلد الأول ولم نرد أن نثقل هذا المجلد بالتكرار

وفوق ذلك فإن القارىء لهذا المجلد لايجد نفسه فى غنى عن قراءة المجلد الأول؛ إذ أن الأنواع الأدبية وحدة متكاملة بالرغم من أن صورها متعددة ؛ فهى أشبه بلوحة قد رسم فيها الفنان مجموعة من الصور المختلطة المتداخلة المتآلفة لكى تنقل إلى الناظر فى مجموعها معنى كليا ، كصورة موقعة من المواقع الحربية ، حيث المهاجمون والمدافعون والذين وقعوا صرعى تحت سنابك الخيل، أو كصورة عدد من الصائدين وقد تربصوا بظبى فلم يكد يبدو لهم حتى أحاطوا به فشمخ برأسه وظهرت عليه علامات الاضطراب والارتباك . فأنت ترى إذن أنك لا تستطيع فهم المعنى الذى قصد إليه الفنان إلا إذا نظرت إلى جميع ما فى اللوحة من صور . ولو أنك حاولت أن تفصل بين بعض صور اللوحة الواحدة وبعضها الآخر فلن يقدر لك النجاح فى ذلك ؛ ولو نجحت فى عملية الفصل فلن يهيأ لك أبدا ادراك المعنى الكلى الذى قصدت إليه اللوحة فى وضعها الأول .

بقيت ملاحظة أخيرة نحب أن نشير إليها قبل أن نفرغ من هذا التمهيد ؛ ذلك أن بعض الزملاء قد أشار علينا فى طبع هذا المجلد أن نخصص مكانا مستقلا فى آخره للتعليقات على أسماء الأعلام وعناوين المؤلفات على غير ماصنعناه فى المجلد الأول ، بحيث تملأ الصفحات بنص الترجمة وتوضع أرقام مسلسلة لهذه العناوين وتلك الأعلام ؛ وبعد الفراغ من طبع الترجمة تطبع هذه التعليقات حتى لاتكون الصفحة الواحدة مثقلة بالترجمة والتعليق فى نفس الوقت ؛ وأبدى هؤلاء الزملاء وجهة نظرهم مقتدين فى هذا ببعض الكتاب الامريكيين المعاصرين . وكدنا نوافق على هذا الرأى ولكننا عدلنا عنه أخيرا وآثرنا السير على نمط صنيعنا فى المجلد الأول واضعين نصب أعيننا مصلحة القارىء الواعى والدارس اليقظ فى المكان الأول .

مقدمة المجلد الثانى

لقد عرفنا فى مقدمة المجلد الأول بهذا الأثر الأدبى الذىنترجمه ، وأوضحنا إلى حد كبير مكانة هذا الأثر الأدبى وطبيعة أسلوبه،كما أوضحنا أيضاً الصعوبات التى صادفتنا وتصادفنا فى نقله إلى اللغة العربية .

ولم نكن نتوقع أبداً أن يفصل هذا الزمن الطويل بين ظهور المجلد الأول وظهور المجلد الثانى من هـــذا الكتاب ؛ إذ أننا فرغنا من طبع المجلد الأول فى حوالى منتصف عام ١٩٥٤م ، وها نحن أولاء فى نفس الموعد تقريباً من عام ١٩٥٨م ؛ نقول ، لم نكن نتوقع أبداً أن يفصل هذا الزمن الطويل بين طبع المجلدين ؛ فقد كانت كل الظروف ملائمة ومشجعة ؛و نقصد من ذلك بصفة خاصة ، الظروف الأدبية ؛ إذ لم يكد يمضى شهر واحد على ظهور المجلد الأول حتى وصلتنا مجموعة من الرسائل تفضل بكتابتها إلينا عدد غير يسير من القراء ؛ ربما أخجلنا أن ننقل هنا بعض فقرات مما جاء فيها ، وربما تناولها فريق من القراء على غير وجهها الصحيح ، وفهم من صنيعنا حيالها غير ما نهدف إليه . ومن أجل ذلك آثرنا ألا نذكر شيئاً منها . وعلى الرغم من اختلاف هذه الرسائل فى موضوع الحديث وتباينها فى وجهة النظر فانها جميعاً تتفق على أمر واحد ، هو الرغبة الملحة فى مواصلة العمل بسرعة حتى يظهر المجلد الثانى فى وقت قريب .

نذكر من هؤلاء القراء الذين بادروا بالكتابة إلينا مستحثين ومشجعين الدكتور نجيب هاشم والدكتور مهدى علام ، والأستاذ ابراهيم مصطفى ، والأستاذ أحمد الشايب ، وكثير غيرهم ممن نجلهم ونعترف لهم بكثير من التشجيع المعنوى والمعونة الأدبية .

ولقد كنا من جانبنا نقدر هذه الرغبة ونحس معهم بالحاجة الملحة إلى أن يظهر المجلد الثانى فى وقت قصير ؛ إذ أنه أولى بالدرس والمعرفة ، وأكثر اتصالا بحياتنا الجامعية والتعليمية ؛ فهو يتناول الأساليب النثرية فى موضوعاتها المتعددة وفى صورها المختلفة ؛ بينما يتناول المجلد الأول أنواع الشعر وأساليبه ؛ وليس من شك فى أن الشعر قد أصبح الآن لا يتلاءم كثيراً مع الحياة الصاخبة التى تحياها المجتمعات الانسانية فى مختلف القارات .

يتناول المجلد الثانى ، كما قلنا ، الأساليب النثرية كلها من خطابة إلى قصة أو رواية ، ومن رسائل إلى تأليف علمى ؛ وذلك فى عرض تأريخى وتحليل منطقى مزود بالشواهد وحافل بالأمثلة . ومن هنا كانت الحاجة إليه ماسة ؛ فطالب الآداب مثلا يهمه أن يعرف طبيعة الأساليب النثرية المختلفة ويدرس الأسس التى ينبغى أن تقوم عليها هذه الأساليب ، والظروف التى يجب أن تتوفر حتى يكتب التاريخ كتابة رزينة مهذبة ، وتكتب القصة أو الرواية كتابة جميلة ممتعة ، وتكتب الرسالة كتابة سلسة مركزة أخاذة ؛ وطالب الحقوق يهمه أن يعرف القوانين والمبادىء التى ينبغى أن تتبع حينما يقف مدافعاً فى ساحة القضاء ، أو خطيباً فى المجتمعات السياسية ، أو متحدثاً فى الجماهير الشعبية ؛ والقارىء العادى يتطلع إلى معرفة بعض هذه المقاييس والإلمام ببعض تلك الأسس والمبادىء حتى يكون حكمه على هؤلاء وأولئك حكما صحيحاً وتقديره لمواقفهم وآرائهم تقديراً سليما .

لقد كنا ندرك مبلغ ما فى هذا المجلد الثانى من فائدة ومبلغ ما لدى شبابنا المثقف من حاجة إلى الإلمام بما فيه ؛ كما كان هذا الإحساس نفسه يراودنا قبل أن يظهر المجلد الأول من هذا الكتاب ؛ ومن أجل ذلك فكرنا أكثر من مرة فى ترجمة المجلد الثانى قبل ترجمة المجلد الأول ولولا ما تعارف عليه الناس وألفه المجتمع من ترتيب ونظام لمضينا فى هذا السبيل وأخرجنا المجلد الثانى قبل المجلد الأول لإيماننا بشدة الحاجة إليه واقتناعنا بغزارة فائدته .

كانت رغبة القراء الذين كتبوا إلينا مضافة إلى رغبتنا الشخصية تستحثنا استحثاثا ملهما ، وتدفعنا دفعا قويا لكيلا تتوقف عجلة الترجمة ، ولكيلا يجف مداد الطبع . ولكن ظروفا أخرى لم نكن نتوقعها ولا نفكر فيها قد جاءت فحالت بيننا وبين تحقيق هذه الرغبة الجامحة والأمل المحبب إلى النفس .

سافرنا إلى اليونان لنشغل كرسى الأدب العربي فى جامعة أثينا فتحت أمامنا آفاق أخرى للدرس والعمل كانت بمثابة الواجبات : ومن حق الواجبات أن تتغلب على الرغبات ؛ وجدت حوافز متعددة ، بعضها قومى وبعضها أدبى ، فكانت الاستجابة إلى ماتتطلبه هذه الحوافز تقضى على الكثير من الوقت ، كما تستنفد الكثير من الامكانيات بالنسبة للجهد والعمل .

انصرفنا مضطرين إذن عن المضى فى الترجمة ، وهدأت الرغبة فيها ولكنها لم تنم حتى عدنا إلى مصر فى أواخر سنة ١٩٥٦ م ؛ وكان أول ما أتجه إليه التفكير هو المضى فى ترجمة ما بقى من هذا الكتاب ، الذى أصبح عندنا بمثابة شاغل كبير ومسئولية ثقيلة تتطلع النفس إلى التخفف منها ؛ ولكن أحداثا هائلة أخرى قد جدت فتغير لها وجه الشرق العربي وفتحت لها صفحة جديدة من تاريخه : كانت حوادث القنال وما تبع ذلك من اعتداء آثم على مصر . ومن منا لم يتأثر من جراء هذه الأحداث ؟ ثم من منا لم تتقاسمه فى أثنائها الآلام والآمال ؟.

توقفنا إذن عن الترجمة للمرة الثانية ؛ غير أنه لم تكد تستتب الأحوال وتستقر الأمور حتى أخذنا نشعل ثقاب الوقود من جديد ، وندير عجلة المحرك ، ونمضى فى الطريق الذى رسمناه لأنفسنا ورسمه لنا القراء من قبل .

واليوم وبعد الفراغ من هذه الترجمة المتعثرة رغم إرادتنا يستطيع القارىء أن يدرك مبلغ الهدوء النفسى الذى يملأ جوانحنا والطمأنينة التى ترفرف فوق رأسنا : وهل هناك ألذ للعامل من لحظة الفراغ من عمله ؟ وهل هناك أروح للزارع من وقت الغروب حينما يترك حقله ويتجه بماشيته إلى بيته البسيط الهادىء الوديع ؟.

وبعد ، فكل ما نرجوه لهذا المجلد الثاني أن يجد فيه القراء جميعـــا ما يحقق رغبتهم ويجسم آمالهم والله نسأل أن يوفقنا دائما إلى ما فيه الخير والصلاح ؟

حسن عون

الاسكندرية فى ٤ يونيه سنة ١٩٥٨

الكتاب الثالث

النثر

الفصل الأول

التاريخ

المقالة الأولى — معلومات عامة

التاريخ بمعناه الواسع : إن كلمة — تاريخ — يمكن فهمها بطريقتين ، فهى بمعناها العام عبارة عن عرض التطورات التى تطرأ أو يتعرض لها الكائن منذ نشأته حتى الحالة الراهنة التى هو عليها ؛ والتاريخ بهذا المعنى عبارة عن لوحة تصور المراحل التى يمر بها ذلك الكائن أثناء تطوره ، وكل ماهو فى الوجود سواء أكان فى عالم المادة أم فى عالم الفكر يمكن أن يصير موضوعا للتاريخ بهذا الاعتبار ، وعلى هذا سنرى بوفون (١) يقص علينا كيف تكونت الأرض ؛ وسنرى آخر يقص علينا كيف تطورت الأنواع النباتية أو الحيوانية ؛ وسنرى ثالثا يقص علينا مراحل تقدم العلم أو الفن ، كعلم الفلك والموسيقى ، مبينا كيف وصل كل من الفلك والموسيقى إلى الحالة التى نراهما عليها الآن ، « إن التاريخ بمعناه الصحيح عبارة عن العلم الذى يتخذ موضوعه الحالة التى تصير إليها الكائنات ، وهو فى تعرضه لدراسة الكائن فى حد ذاته يكون أقل اهتماما مما لو تعرض لدراسة تكوين ذلك الكائن والتغيرات التى طرأت عليه ، وهو أيضا عبارة عن العلم الذى يعنى بدراسة أصول الكائنات وتسلسلها ثم بدراسة تطورها ومايطرأ عليها من تغيرات » (٢)، غير أن

---

(١) Georges Louis de Leclerc de Buffon ، مؤرخ طبيعى وكاتب فرنسى مشهور؛ عاش مابين سنتى ١٧٠٧ ، ١٧٨٨ م . فقد ألف كتابا ضخما فى التاريخ الطبيعى ؛ وقد امتاز بسعة المعرفة وبسمو الأسلوب . ولشدة عنايته بالأسلوب قد ثار عليه كثير من الكتاب إذ ذاك فانتقدوه بزخرفة اللفظ وتنميق العبارة . ولكن ذلك لم يقف حائلا بينه وبين الشهرة فعين عضوا فى الأكاديمية الفرنسية . المترجم

(٢) انظر : Histoire des institutions politiques de l'ancienne France. Système féodal, Introduction, p. XV. Fustel de Coulanges للمؤرخ الفرنسى

ذلك الذى يسجل تاريخ الأرض والنبات والحيوان أو تاريخ علم أو فن إنما يدرس هذه الكائنات أو الأفكار فى حد ذاتها دون أن يشغل بموضوع الحضارة وكذلك الفيلسوف بدوره يحاول أن يرسم لوحة للتفكير الانسانى منذ عهد الفيلسوف — ثاليس(١) — حتى يومنا هذا ، ثم إنه يبقى فى دائرة النظريات المطلقة دون أن يتعرض للبحث عما يأتى : كيف شاعت فى المجتمع أفكار سقراط الفلسفية أو أفكار الرواقيين (٢) وكيف أثرت هذه الأفكار فى حياة الإنسانية ، ثم كيف استطاع سقراط على وجه الخصوص بواسطة نقده اللاذع للديانة اليونانية القديمة أن يهدم فى نفس الوقت كيان المجتمع القديم وأن يشق الطريق إلى الوطنية العالمية (٣) ».

التاريخ بمعناه الخاص : أما التاريخ بالمعنى الخاص المحدود ، الذى جعل منه نوعا أدبيا ، فهو يتخذ موضوعه الإنسان ، « وهو بهذا الاعتبار علم المجتمعات الإنسانية ، وموضوعه هو معرفة كيف تكونت هذه المجتمعات ، وهو يبحث عن القوى أو الأنظمة التى حكمت هذه المجتمعات ، ثم إنه يدرس النظم التى قامت عليها تلك المجتمعات ، ونعنى بذلك القانون ، والاقتصاد العام ، والعادات الفكرية والمادية ، وكل ما يتصل بحياة المجتمع ، فكل مجتمع من هذه المجتمعات عبارة عن

(١) ثاليس (Thalès) فيلسوف يونانى من المدرسة الإيونية ولد فى سنة ٦٤٠ وتوفى سنة ٥٤٨ ق . م . وله مؤلف فلسفى مشهور عنوانه : Cosmologie. (المترجم)

(٢) الرواقيون هم أصحاب مذهب زينون الفيلسوف اليونانى المشهور ؛ وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يجلسون للتدريس فى أروقة؛ ويمكن أن نراهم باسم آخر هو Stoïciens — ؛ وفلسفتهم تقوم على تربية الروح تربية عنيفة والتعود على الصبر والجلد واحتمال الأذى فى سبيل نصرة الحقيقة ، ثم على عدم الاهتمام بالمظهر . المترجم

(٣) « الوطنية العالمية» ترجمة لكلمة — Cosmopolitisme — وهى مركبة من كلمتين يونانيتين هما : Cosmos ومعناها « العالم » و Polis — ومعناها المدنية . ويريد المؤلف بهذه العبارة أن يقول : إن سقراط بفلسفته قد قضى على الوطنية الضيقة المحدودة التى تعتمد على اعتبارات خاصة كالجنس والنشأة والبيئة ولا تعترف بالأوطان الأخرى ولا بالشعوب الأخرى : ثم إنه نظر إلى العالم كله نظرة عامة فجعل منه وطنا واحدا وإلى الانسانية كلها فجعل منها أسرة واحدة . المترجم .

كائن حى ؛ وواجب التاريخ أن يصف حياة هذا الكائن ،،، التاريخ إذن هو العلم الخاص بشئون المجتمعات ؛ ونعنى بذلك علم الاجتماع نفسه (١)» ، ونحن لو سايرنا — فيكو — Vico (٢) الفيلسوف الإيطالى، فى اصطلاحه القوى لقلنا إن التاريخ عبارة عن « الإنسانية فى نشأتها » ثم إنه يحاول أن يهب العالم كثيرا من الخير ، كثيرا من النور ، كثيرا من النظام ، كثيرا من العدالة ،

قسام التاريخ : ينقسم التاريخ إلى ما يأتى :

١ — تاريخ العالم ، أو تلخيص للحضارة عند الشعوب الرئيسية منذ نشأة العالم ؛ وذلك مثل مؤلف القس — بوسويه (٣) — Discours sur l'histoire universelle ،

٢ — التاريخ العام ، الذى يعرض للروابط المتبادلة بين مجموعة من الشعوب مثل ، تاريخ أوروبا ،

٣ — التاريخ الخاص ، الذى يتعرض تارة لدراسة شعب ما مثل فرنسا ، وتارة لدراسة عصر ما مثل عصر لويس الرابع عشر ، وتارة لدراسة ظاهرة من الحياة الاجتماعية مثل الحروب ، التشريع ، الدين ،

أما من وجهة النظر الزمنية فهو ينقسم إلى ما يأتى :

١ — التاريخ القديم ، منذ العصور الأولى حتى عصر انقسام الامبراطورية الرومانية إلى الامبراطورية الشرقية ، والامبراطورية الغربية ؛ وذلك فى سنة ٣٩٥م ؛

---

(١) المرجع المتقدم للمؤرخ الفرنسى L'alleu et le domaine rural; Inlroduction, pIV Fustel de Coulanges.

(٢) هو yean-Baptiste Vico ؛ وهو فيلسوف ايطالى ؛ ولد فى مدينة نابل وعاش ما بين سنتى ١٦٦٨ ، ١٧٤٤م ؛ وله مؤلف مشهور عنوانه — العلم الحديث وأسس فلسفة التاريخ La science nouvelle et des principes de la philosophie de l' histoire.

(٣) أنظر تعليقنا على هذا الكاتب فى المجلد الاول ص ١٤

٢ — تاريخ العصور الوسطى ؛ وذلك من سنة ٣٩٥م حتى استيلاء الأتراك على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م

٣ — التاريخ الحديث ؛ وذلك من سنة ١٤٥٣ م حتى عصر الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩م

٤ — تاريخ العصر الحاضر ؛ وذلك من سنة ١٧٨٩ حتى اليوم ،

العلوم التى تخدم التاريخ : لقد نشأ عند المحدثين بجانب التاريخ علوم فرعية تخدمه ، وهدف هذه العلوم هو أن تهيء أمام المؤرخ مواد التاريخ وأن تعينه على أبحاثه ، وهذه العلوم هى :

١ — علم الحفريات أو دراسة الآثار والمواد التى خلفها الماضى كالمعابد والأعمدة واللوحات والصور والنقوش المحفورة والتماثيل والأوانى المنقوشة والأسلحة والأدوات المستخدمة فى وسائل الحياة والنقود ، ولقد احتفظ لنا عامود تراجان (١) فى روما بواسطة مانقش عليه من المناظر الحربية بكثير من المعلومات القيمةعن الجيش الرومانى ، وكذلك النقوش المحفورةوالأوانى المنقوشة ترينا الكثير من العادات والملابس التى كانت تستعمل فى الحضارات البائدة ، وكذلك التماثيل النصفية التى أقامها الفنان الفرنسى ـ جيراردون ـ Girardon (٢) ـ للملك لويس الرابع عشر وللقائد كونديه ـ Condé (٣) تستطيع أنتزيل الغموض عن الناحية الخلقية فى الملك وفى قائده الحربى

---

(١) أقيم هذا العامود فى رومه سنة ١١٢م لتخليد ذكرى الأمبراطور الرومانى تراجان .

(٢) فنان فرنسى اشتهر بعمل التماثيل ولد سنة ١٦٢٨ وعاش حتى سنة ١٧١٥م وله عدة تماثيل مشهورة تعتبر آية فى الفن وأهمها التماثيل التى هى موضوع الحديث المترجم .

(٣) هو من أعظم القواد الحربيين الفرنسيين فى زمن لويس الرابع عشر قد انتصر فى مواقع عده وكان من أهم الشخصيات التى يعتمدعليها لويس الرابع عشر. ماتسنة ١٦٨٦م١٠١ المترجم .

٢ — علم قراءة النصوص القديمة ، أو فن حل رموز الكتابات القديمة ، على الأحجار والآجر والخزف والمعادن ، وبفضل هذه الكتابات التى وجدت منذ سنين قد استطاع العلماء أن يسجلوا من جديد تاريخ مصر وتاريخ الشرق .

٣ — علم الباليوجرافى ، وموضوعه قراءة النصوص القديمة الموجودة على ورق البابيروس أو البردى ، والكتابات التى كانت على صفحات من الجلد ثم محيت وحل محلها كتابات أخرى ، والوثائق المكتوبة على الجلود ، وكذلك الوثائق التاريخية الأخرى المسجلة على صحائف من الورق .

٤ — علم نقد هذه المراجع ، الذى يمكن بواسطته التأكد من صحة المرجع، والتاريخ ، وتمييز ما أضيف على هذا المرجع من معلومات أخرى ، ومعرفة المصدر لهذه المراجع ؛ ويمكن أن يقال باختصار إنه العلم الذى نستطيع بواسطته معرفة قيمة الوثائق التاريخية الصحيحة سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة : وذلك كالخطابات أو الرسائل ، والمذكرات ، والتواريخ ، وقصص السابقين ، ويتصل بعلم نقد المراجع هذا علم دراسة الشهادات الإدارية والأوراق الحكومية والعقود والوثائق التى لم تسجل من أجل التاريخ ولكنها كتبت لغرض خاص يتصل بالأنظمة الحكومية وبالأخلاق والعادات العامة .

٥ — علم التاريخ ؛ ذلك العلم الذى يضع الحوادث فى أوقاتها ؛ فبواسطته يمكن عقد صلة بين حادثين لمعرفة الأسبق منهما ثم استنتاج ما بينهما من رابطة هى رابطة السبب بالنتيجة ، هذه العلوم عبارة عن أدوات ولا يمكن أن توجد إلا لخدمة التاريخ .

أما علم الجغرافيا فهو علم على حده غير أن معرفته تعتبر ضرورية بالنسبة للمؤرخ ، هذا العلم يمهد السبيل لوضع الحوادث فى أماكنها ؛ ونحن لا نستطيع أن نتتبع ظروف معركة ما تتبعا موفقا إلا إذا كنا على علم بالمواقع التى حدثت فيها. وفيما عدا ذلك فعلم الجغرافيا ، دون أن نذهب بعيدا فنعزو إلى وصف الأرض

تأثيرا عظيما كما صنع ـ ميشليه Michelet (١) ـ ثم نقول « كيفما يكون العش يوجد العصفور (٢) » : نقول إن علم الجغرافيا ، دون أن نساير ميشليه فيما ذهب إليه من المغالاة فى تأثيره ، يشرح لنا كثيرا من الآثار وذلك كتأسيس المدن القديمة الكبيرة على شواطىء الأنهار التى تستخدم طرقا للمواصلات مثل مدينة باريس، وروان ، وليون ، وتولوز ، وبوردو ، وموقع انجلترى البحرى هو السبب الرئيسى فى نشاطها الاستعمارى ، وكذلك مجارى الأنهار السريعة ومساقط المياه التى تحظى بها سويسره ، بفضل مافيها من ثلوج وجبال ، كل ذلك جعل من هذا البلد الصغير منافسا عنيدا بالنسبة للصناعة فى البلاد الأخرى التى اضطرت إلى استخدام البخار ولكن بأجور باهظه

المقالة الثانية — النظرية الحديثة بالنسبة للتاريخ

تعريف : إن التاريخ بمعناه الصحيح عبارة عن العرض الحقيقى للحياة الاجتماعية عرضا وافيا فنيا وبدلا من استعمالنا كلمة — قصة — التى يمكن أن يحدد بها فى فى العادة معنى التاريخ نستعمل كلمة — عرض — التى هى فى اعتقادنا أكثر انضباطا . إن التاريخ من غير شك يحتوى على قصص ، غير أنه أيضا يحتوى على صور وعلى وصف وعلى لمحات خاصة بالناحية المالية وبالناحية التجارية ، وكذلك بالنظم الحكومية ، وسنستعمل كذلك هذا الاصطلاح ـ عرض للحياة الاجتماعية ـ بدلا من الاصطلاح التقليدى ـ قصة الحوادث الماضية ـ ولكى يكون التاريخ متمشيا مع حاجيات العصر الحديث يجب ألا يشتمل فقط على الحوادث

---

(١) أديب ومؤرخ فرنسى ولد سنة ١٧٩٨ م وعاش حتى سنة ١٨٧٤ م وقد عرف بآرائه الحرة ومن أجل ذلك خاصمته الدولة فلم تمكنه من متابعة محاضراته فى الكولليج دى فرنس . وله من الكتب المعروفة تاريخ فرنسا وتاريخ الثورة الفرنسية ، وله من الكتب الأدبية La Montagne, l'oiseau. المترجم

(٢) Histoire de France 1er volume; préface 1869.

بل على الأفكار ، والفنون ، والعلوم والعادات ، والأخلاق ، والقوانين، والعقيدة وكل مظاهر النشاط الإنسانى ، وكل مايصور نفسية الشعب ويكشف لنا عن أخلاقه وطباعه . والتاريخ من ناحية أخرى يشبه ملحمة من الملاحم ، فهو لهذا الاعتبار يكون أثرا قوميا نرى فيه الدور الذى لعبته القوى المختلفة فترتب عليه عظمة المجتمع أو تدهوره . إنه سجل لتصوير الحقيقة وشرحها ، ولذا فهو يعتبر أثرا علميا ، وكلمة — تاريخ — فى اللغة اليونانية يقصد منها البحث عن الحقيقة . وكما يحدث غالبا أصل الكلمة هنا يدل على مايقصد منها . وهذا السجل يجب أن يكون أيضا سجلا فنيا بمعنى ألا يكون مختصرا جافا عاريا من الزينة بل يجب أن يكون عرضاً فيه حيوية وفيه جمال التصوير ؛ يجب أن تتوفر فيه شروط الأثر الفنى بمعنى أن تكون أجزاؤه وتقاسيمه مبعثا للذة العقل وأن تساهم كل جزئية من أجزائه فى خلق وحدة متآلفة منسجمة . التاريخ إذن عبارة عن أثر علمى وفنى معا ولنختبر الآن كيف وبأى قدر يكون التاريخ أثرا علميا ، وكيف وبأى قدر يكون أثرا فنيا ،

المقالة الثالثة — مبلغ مافى التاريخ من علم

١ — الحقيقة أو التاريخ الحقيق : إن مهمة المؤرخ هى أن ينقل إلينا الحقيقة كاملة دون أن يغير شيئا منها : إن ما يقرره يعتبر حقيقيا . وللوصول إلى هذا الغرض يجب أن يتوفر هناك شروط ثلاثة . (أولا) أن تكون لديه وسائل المعرفة ؛ (ثانيا) أن يكون لديه الحس النقدى ؛ (ثالثا) أن يتنزه تماما عن التحيز .

أولا — وسائل المعرفة : يجب على المؤرخ ، بقدر الامكان ، أن يلاحظ بنفسه الحوادث التى تروى أو أن يرجع بنفسه إلى مصادر هذه الحوادث . وذلك يستتبع حتما الرجوع إلى مكتشفات العلوم التى اعتبرناها منذ قليل فى خدمة التاريخ . وذلك بالرجوع إلى الآثار والنقوش والعقود ؛ ويجب عليه كذلك أن يجمع تقريرات أولئك الذين شاهدوا تلك الحوادث، وأن يقرأ بعناية المراسلات

المتبادلة والذكريات المسجلة ، والقصص التى تعتبر أصيلة فى الموضوع . غير أن هذه الوثائق العديدة وتلك المواد الغزيرة المعقدة التى تشرح حياة شعب بأسره ، كل ذلك يكون من الكثرة بحيث لايستطيع إنسان بمفرده أن يدعى معرفة ذلك كله بطريق مباشر وبكل ما يتصل به من تفاصيل . إذ ليس فى الوجود إنسان يحيط بالعلم كله أو يستطيع الرجوع إلى المراجع جميعا . ليس من الممكن الإحاطة فى نفس الوقت بالخطط الحربية وبالشئون المالية والتجارية ، وبالتشريع والسياسة ، وبالفنون والآداب ثم بالجغرافيا . ولهذا فالمؤرخ مضطر فى الغالب لأن يسجل النتائج التى وصل إليها العلماء والمختصون الثقاة فى مختلف الموضوعات وهناك فارق كبير بين العالم والمؤرخ . فالأول منهما يعنى بمسألة خاصة ثم يبحثها من كل نواحيها ؛ وكتاباته فى هذه الناحية تعتبر موضوعات مستقلة ومواد تعتمد عليها الدراسة التاريخية . وهو من هذه الناحية يشبه إلى حد بعيد من يستخرج المعادن من باطن الأرض ، فهو يستخرج كل ما يصادفه من رمل ، وحصى ، وأحجار رديئة أو صالحة دون أن يرفض شيئا من ذلك . أما الثانى منهما فيأتى دوره بعد هذا ؛ فهو يختار من بين هذه المواد الغزيرة المتراكمة قطع الاحجار الصلبة التى تصلح لبناء المؤسسة التى يريد أن يقيمها (١).

---

(١) ومن هذه الاستحالة التى تنهض أمام شخص بمفرده من أن يحيط علما بكل مايمس عصرا تاريخيا وبطريقة مباشرة ؛ نقول ، من هذه الاستحالة وجد حديثا نظام التعاون بين المؤرخين وذلك بأن يتقاسم هؤلاء المؤرخون الموضوع التاريخى ، وكل واحد منهم يعالج عصرا أو مسألة خاصة وفق ميوله ودراساته الخاصة ، كجماعة النحل كل واحدة تنهض ببناء زاوية من زوايا الخلية ولقد نشأ هذا النظام أول مانشأ فى ألمانيا ؛ وذلك بواسطة كتب التاريخ التى ألفها كل من — أونكين — Oncken ، وهيرين Heeren وأوكيرت Ukert وجيسيبريخت Giesebrecht . قلدت فرنسا فى ذلك ألمانيا . اذ بعد كتابة تاريخ أوروبا العام منذ القرن الرابع حتى عصرنا هذا تحت إشراف المؤرخين — لافيس Lavisse — و — رامبو Rambaud قد طبع منذ قليل كتاب تاريخى جماعى ، هو تاريخ فرنسا تحت اشراف المؤرخ لافيس Lavisse والذى يؤخذ على هذه الطريقة هو أنه يعوزها الوحدة فى وجهات النظر وفى الاسلوب . فهى طريقة تشبه طريقة دائرة المعارف ، وقاموس لاروس . (المؤلف)

٢ ـــ الحس النقدى : قد يكون المؤرخ فى بعض الأحيان شاهد عيان للحوادث التى يسجلها ؛ وواجبه حينئذ هو أن يسجل مارآه على شرط أن تكون رؤيته لها كاملة واضحة لا لبس فيها . غير أنه غالبا ما يكون بعيدا عن الحوادث وعن الأنظمة التى يتحدث عنها إما بعدا زمنيا وإما بعدا مكانيا وكثيرا ما يكون بعدا زمنيا ومكانيا معا . هو فى هذه الحالة يعتبر منقطع الصلة بالحقيقة التاريخية ؛ إذ أنها تصل إليه عن طريق الوسطاء . إنه مضطر فى بعض المسائل ـــ كالخطط الحربية والشؤن المالية ـــ أن يسير وراء تفكير قادة الحروب أو وراء الإحصائيات الاقتصادية . وهنا تنشأ الصعاب . أين هو الضمان لصدق هؤلاء الوسطاء ولعدم انحرافهم عن الحقيقة بواسطة جهلهم بها أو تحيزهم لها ؟ وكيف يمكن التأكد من صحة أخبارهم أو من مبلغ تعمقهم فى الفهم أو من درجة مالديهم من تحرى الحقيقة دون تحيز ؟ إن القارىء الحديث ، بالنسبة للحوادث بصفة خاصة لن يقبل مطلقا طريقة هيرودوت (١) الذى لم يكن يرفض أبدا ما يلقى إليه من قصص وأخبار أياكان مصدرها بشرط أن يكون فى ذلك إثارة للرغبة وحب الاستطلاع ، من ذلك ما يقصه عن الشاعر أريون Arion (٢) ـــ وكيف تمت له النجاة بواسطة سمكة من نوع الدوفان ، تاركا لكل إنسان مهمة تمييز الحقيقة من الخرافة ، إننا الآن نبالغ فى طلب الدقة والعناية من المؤلف ، نريد منه أن يكون بالنسبة لنا مرشدا أو قائدا ، لانريد منه أن يكون سميرا حلو الحديث أو راوية

---

(١) يعتبر هيرودوت من أكبر مؤرخى الأغريق ومن أقدم مؤرخى العالم ؛ والناس فى العصر الحديث مدينون له بكثير من المعارف التى لولا تسجيله لها لفقد بعضها إلى الأبد ؛ ومن أجل ذلك كله كان جديرا بأن يسمى أبا التاريخ . قام بكثير من الأسفار وأقام مع كثير من الشعوب؛وكانت أهم أسفاره فى بلاد الشرق. عاش فى خلال القرن الخامس قبل الميلاد . المترجم

(٢) Arion : هو أحد الشعراء والموسيقيين اليونانيين ؛ كانت حياته فى خلال القرن السابع قبل الميلاد وقد دار حوله كثير من الأساطير ؛ منها أن لصوص البحر أخذوه ثم ألقوا به فى اليم ؛ ولكن بفضل نغماته الموسيقية التى كان يرسلها على قيثارته تجمع من حوله سمك الدوفان مسحورا بهذا النغم الجميل ؛ وأمام ذلك أنقذ هذا السمك من الموت . [المترجم]

فنانا فى تلفيق الأخبار وتزيينها ، نريد منه أن يجهد نفسه لكى يزيل عن الحقيقة ذلك الطلاء الذى صنعه الزمن وآزرته فى ذلك سذاجة الناس ، وإذن فلا يستطيع الكاتب أو المؤرخ أن يصل إلى الحقيقة الخالصة إلا إذا كان عنيفا قاسيا فى طريقته ومنهجه ، وإليكم الآن الاسس الهامة لذلك المنهج :

أسس النقد : من الواجب أن نختبر بدقة مكان الاخطاء عند من ينقل إلينا الاخبار ، هل هو فى موضع ممتاز ، أو كما نقول فى الاحاديث العادية ، فى الصف الاول من المسرح لكى يرى الحوادث ؟ هل اكتفى بالنظر إلى ماجرى دون أن يحاول نظرة دقيقة فاحصة خلف ماجرى ؟ وباختصار هل لديه من المعلومات مايمكن أن يكتفى به ؟ ثم ألم يضطرب نظره إلى الحوادث بسبب أوهام أو نزعات خاصة ؟ وهل تقديره للأمور قد خلى تماما من التحيز ؟ سنرى بعد قليل كم يكون هناك من العوامل المختلفة التى ترد فيكون من شأنها أن تفسد مايجب أن يتوفر من حيادوأن تضعف من أمره ، هاهى ذى أسئلة عديدة بمناسبة المراجع التى يعتمد عليها المؤرخ لابد وأن يسأل نفسه عنها ثم يحاول الإجابة عليها ، لابد من أن يسترشد فى دقة وحذر بما كتبه المعاصرون للحوادث من كتب وما سجلوه من ذكريات ، إذ أنه من النادر أن يكون أولئك المؤلفون لهذه الانواع من الكتب فى مكانة تسمح لهم بالتزام الحيدة ؛ فهم إن تحدثوا عن أصدقائهم غالوا فى الثناء وإن تحدثوا عن أعدائهم غالوا فى الذم ، إنهم لايرون فى الغالب سوى جانب واحد من الامور. إن الإفضاءات أو الاعترافات التى كتبت على طريقة - روسو(١) - قد ألفت فى العادة رغبة فى الدفاع أو فى الثناء ؛ إنهم يحاولون تبرير موقفهم فى حين أنهم لايتورعون عن ذكر أخطاء الآخرين ؛ فأخطاؤهم الخاصة تكون على حساب

---

(١) جان جاك روسو . هو من أكبر كتاب فرنسا ، ترك كثيرا من الآثار الأدبية الرائعة ، وقد ترجم الكثير منها إلى لغات متعددة . واليه يرجع الفضل فى أنه دعا الكتاب إلى الرجوع إلى الطبيعة بما فيها الانسان ثم التأمل فيها . وكان عميق الفكر واسع الخيال ، ومن أجل ذلك كله اعتبر الملهم بالنسبة للرومانتيكية وللثورة الفرنسية . ولد عام ١٧١٢م ومات فى عام ١٧٧٨م [المترجم] .

الجار (١) ، ولن تكون هناك قيمة لكل هذه المؤلفات من ذلك النوع إلا فى المواطن التى تكون فيها عزة المؤلف وكبرياؤه بمنأى عن التجريح ،

يجب إذن على المؤرخ أن يضيف إلى شخصيته شخصية أخرى ، هى شخصية الرجل الاخلاقى النافذ البصيرة ، ومن الواجب عليه كذلك ألا يجهل أن «العقل فى الغالب مطية القلب» ؛ فعليه أن يحاول اظهار أسباب الخطأ الذى ربما ارتكبه المؤلفون السابقون بدون قصد ، ومما يساعده على ذلك دراسته التفصيلية لحياة أولئك الذين يعتمد عليهم فى استقاء الاخبار مثل - سالوست - Salluste(٢)، و - تاسيت - Tacite (٣) و - سان سيمون - Saint-Sinan (٤)، ولا يقبل من المؤرخ أن يكون عاجزا عن إظهار الخطأ عند من يتخذه مرجعا له ؛ وإنما يجب عليه أن يكون فى مكانة تؤهله لان يثبت الحقيقة ، ويمكن الوصول إلى هذه الغاية عن طريقين :

احدهما طريق مباشر ، وذلك حينما يقدم لنا الوسيط أو المرجع الضمانات الكافية بالنسبة للناحية العلمية وكذلك بالنسبة الأمانة العلمية ؛ مثال ذلك ماحدث

---

(١) يوجد فى هذا الكتاب Les Rêveries du promeneur solitaire (6e promenade) فقرة عجيبة تتصل بما كتبه جان جاك روسو فى كتابه Confessions ؛ وهذه الفقرة لم تذكر فى أى مكان آخر ومع هذا فهى تبين تماما العقلية التى كتب بها جان جاك روسو حياته الخاصة فهو يقول ضمن ما يتحدث عنه : « لقد أخفيت الجانب القبيح حينما صورت نفسى من جانب واحد » . فهو هنا يعترف بأنه أخفى الحقيقة لا لشىء سوى « الرغبة فى الكتابة » . « ولقد أضفت إلى الأشياء الحقيقية زينة وزخرفا من صنعى » . المؤلف .

(٢) مؤرخ لاتينى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد وبالرغم من شهرته كمؤرخ فانه من أكبر الكتاب فى الأدب . [المترجم]

(٣) مؤرخ لاتينى أيضا عاش فى خلال القرن الأول بعد الميلاد وأدرك الثانى كذلك حيث مات حوالى عام ١٢م . وله مؤلفات عدة فى الأدب وفى التاريخ ويعتبر من أكبر المؤرخين اللاتينيين كما يعتبر من أبرز كتابهم أيضا . [المترجم]

(٥) كاتب فرنسى عاش من عام ١٦٧٥ إلى عام ١٧٥٥م . كتب مذكراته الشخصية ولكنها ألقت ضوءا على الحياة الاجتماعية بشكل عام . [المترجم]

للقديسين الذين أوذوا واستشهدوا بسبب عدم إنكارهم لحقيقة الحوادث التي رأوها. والآخر طريق غير مباشر، وذلك حينما يتفق جمع من المؤلفين في رواية حادثة من الحوادث بينما هم على اختلاف في غير هذه الحادثة كما هم في اختلاف بالنسبة لمصالحهم الخاصة. واتفاق المراجع من هذا النوع على رواية هذه الحادثة يؤكد بصفة قاطعة حقيقة تلك الحادثة، وعلى العكس من ذلك أحيانا قد يجد المؤرخ نفسه أمام روايات مختلفة بالنسبة لحادثة من الحوادث، والقاعدة في هذه الحاله أن يلجأ المؤرخ إلى تفضيل رواية من رأى على رواية من سمع هذا إذا كانوا على درجة واحـــدة من الاخلاق (١)، وهكذ يوجـــد، بالنسبة لموت هانرييت، ملكة انجلترى، روايتان مختلفتان؛ إحداهما رواية ـ سان سيمون - Saint-Simon (٢) والاخرى رواية ـ مادام دى لافايت Madame de la Fayette (٣)، فالرواية الاولى تقرر أن الملكة ماتت مسمومة ثم تبين لنا بالتفصيل كل الظروف الملابسة لهذا الحادث، ويقول صاحب هذه الرواية أنه استقى هذه المعلومات من نائب عام في مجلس البرلمان هو - M. Joly de Fleury ـ؛ وقد زعم هذا النائب العام بدوره أنه استقى تلك المعلومات من أحد المدبرين لهذه المؤامره، هو Purnon ـ رئيس

---

(١) « إن أجدر الروايات بالثقة هي رواية شاهد عيان وعلى الخصوص إذا كانت من إنسان فاضل يقظ ذكى تسجل ما رأى في نفس المكان وفي نفس اللحظة التي وقعت فيها الحوادث؛ بشرط أن يكون هدفه الوحيد من ذلك هو تسجيل أو تقديم المعلومات بالنسبة لما حدث؛ وكذلك بشرط ألا يكون رائده من وراء ما يسجله هو النقد أو التجريح لخدمة غرض من الأغراض، ولا أن يكون ما يكتبه، هو عبارة عن قطعة خطابية منمقة للتأثير على الجمهور؛ بل لابد أن يكون ما يكتبه عبارة عن شهادة قضائية، عن تقرير سرى، عن إفضاء صادق، عن رسالة خاصة، عن ذكريات شخصية. وبقدر ما تقترب الوثيقة من هذا النوع من الأسلوب بقدر ما تكون جديرة بالثقة ومرجعا لمادة علمية مؤكدة. » Taine, les Origines de la France Contamporaine, T. III, la revolution, préface, p. 11.)

(٢) Scènes et portraits choisis dans les Mémoires authantiques du duc de Saint-Simon, par E. Lanneau T. I, pp. 82 et suiv. المؤلف.

(٣) Histoire de Madame Henriette d'Angleterre (Collection Michaud et Paujoulat pp. 101 et suiv. المؤلف.

الخـــدم الاول فى حاشية الملكة ، هانحن أولاء إذن أمام وسيطين هما ـ سان سيمون ـ والنائب العام ؛ أما رئيس الخدم فى حاشية الملكة فلا يبدو عظيم الخطر فى هذه المسـألة ، وأما فيما يختص بـ Madame de La Fayette فإنها كانت فى صحبة الاميرة حين وقوع الحادث ؛ فهى تقص علينا ساعة بساعة كيف نشأ الالم ثم كيف أخذ فى الازدياد ، وقصتها لذلك تصور موتا فجائيا غير أنه طبيعى ومن المعقول إذن أن نثق فى هذه الرواية التى تصدر عن مصدر يعتبر فى المكانة الاولى ؛ يضـــاف إلى ذلك أن الكشف الطبى على جثة الملكة لم يكشف عن أى أثر للسم .

وليس من السهل دائمـــا تمييز الحد الفاصل بين الخطأ والحقيقة ؛ فكثيرا ماتبدو لنا المراجع أو المصادر كأنها فى درجة واحدة من الاعتبـــار، وحينئذ نجد أنفسنا مضطرين إلى قبول الرواية الاقرب شبها من الحقيقة والاكثر مسايرة لطبيعة الحوادث ، غير أننا فى هذه الحالة لاتتوفر لدينا الثقة الكاملة؛ وكل ماينبغى الوصول إليه هو أن نرجح رواية على أخرى ، وذلك لان ؛ الحقيقة قـــد تبدو أحيانا كأنها بعيدة عن الحقيقة .

إن الحياة مليئة بالمفاجآت ؛ فقد يبدو حادث ما كأنه غير طبيعى وغير معقول ولكنه مع ذلك حقيقى .

المدرسة العقلية ـ إن من مبادىء هذه المدرسة أن ترفض كل مالا يتفق مع العقل وكل مالايساير التجارب فى الحياة ، ولما كان ـ رينان ـ Renan (١). من اتباع هذه المدرسة ومن المسايرين لفولتير (٢) فى هذه المبادىء الخاطئة فقد زعم أنه وضع أسسا جديدة لبيان نشأة المسيحية ، وقد شايعه فى ذلك كثير ممن تتلمذوا عليه . استبعد ـ رينان ـ من المسيحية كل المعجزات بحجة أنه لم يشاهد مطلقا أى

---

(١) كاتب فرنسى معروف بمواقفه ضـــد المسيحية كما تفهمها الكنيسة وشهرته كعالم وأديب لا تقل عن شهرته كمؤرخ . ولد عام ١٨٢٣ ومات عام ١٨٩٢ م المترجم

أثر لتلك المعجزات ؛ وحينما نقول - إنه لم يشاهد مطلقا - إنما نقصد - رينان - فقط ، صاحب التجربة الضيقة المحدودة القاصرة عليه وحده وعلى مدينة واحدة بمفردها ، هي مدينة باريس ، « إنه لنقد سقيم قاصر ذلك الذى يكتفى بالقول بأن كل مايبدو غير طبيعى يعتبر خطأ ، وكل مايبدو طبيعيا يعتبر حقا (١) » حينما يقرر جمع من الثقات حدوث أمر ما ، على شرط ألا يكون ذلك الامر من التفاهة بمكان ، لايمكن لاى نظرية ولا لاى منطق أن يطعن فى ذلك الامر أو يحاول اضعافه مهما كانت غرابته ومهما كان بعده عن الواقع الطبيعى .

عدم التحيز أو التزام الحياد :— كثيرا مايصادف المؤرخ فى بحثه أسبابا عدة تدعوه الى أن يضل الطريق ؛ غير أنه يصادف أيضا فى دخيلة نفسه من تلك الاسباب ماهو أدعى الى الخدعة والضلال ؛ ذلك لان هذه الاسباب من الدقة بحيث لايتميزها ولايحس بها . وهنا نلمس مسألة دقيقة هى عدم التحيز أو تحرى الحقيقة . والناس فيما بينهم مختلفون فى تقدير هذه المسألة . انعدم التحيز عبارة عن التجرد المطلق عن أى منفعة شخصية فى البحث والتحرى فى اظهار الحقيقة . « يجب أن يكون الكاتب محباللحقيقة فى نفسها حبا يدعوه الى أن يضحى فى سبيلها بكل شيء (٢) » وكل صفات المؤرخ ، فيما عدا هذه الصفة ، تتصل بالعلم أو المعرفة ؛ أما عدم التحيز فأمر يتصل بالضمير ؛ فهى اذن صفة اخلاقية ،

المثل الاعلى فى عدم التحيز :— يرى فينيلون - Fénelon - « أن المؤرخ الصحيح الجدير بهذه الصفة هو من لايكون ملكا لاى عصر ما ولا لاى بلد ما : فهو بالرغم من حبه لوطنه لايحاول مطلقا أن يرفع من شأنه فى أى أمر من الامور

---

(١) Petit de Julleville, introduction aux Considération s sur les causes de la grandeur des Romains Et de leur décadences P.XXIX. — المؤلف .

(٢) Saint - Simon, Op. cit., t. 11,p. 414 . المؤلف .

يجب على المؤرخ الفرنسى أن يلتزم جانب الحياد بين فرنسا وانجلترى؛ فعليه إذن أن يثنى على -تالبو- Talbot (١) كما يثنى على -دوجيكلان- Duguesclin(٢)(٣) ويذهب آخرون، مثل -تين Taine- وفوستيل دى كولانج- Fustel de Coulanges الى أبعد من ذلك فيطلبون من المؤرخ أن يقص الحروب والثورات وما عانته الشعوب من آلام بنفس النزاهة والحيدة التى يتصف بها عالم حينما يصف الكوارث التى تتعرض لها الارض أو « التغيرات التى تطرأ على حشرة من الحشرات »(٤)

عدم التحيز النسبي : هل فى الإمكان أن يلتزم جانب الحياد المطلق؟ هل من الضرورى أن يلتزم جانب هذا الحياد؟ إننا لا نعتقد ذلك. ولم يخطىء - سان سيمون حينما قرر بصراحته المعتادة : « إن الحياد المطلق أمر جميل ونبيل فى نفس الوقت ولكنه وهمى فليس يعنينى إذن أن ألتزم جانب الحياد ؛ ولو قدر لى أن التزمه فسيكون التزامى له عبثا (٥) ». هل يمكن رواية الجرائم البشعة ونحن فى هدوء يشبه هدوء العالم الكيميائى الذى يحلل نتائج السم؟ إننا لا نثور ضد الآلام الجسمانية لانها تحدث نتيجة قوانين طبيعية ؛ ولكن الامر على عكس ذلك بالنسبة للحوادث التاريخية التى تعتبر نتيجة لصنيع الإنسان. إن الحوادث الإنسانية مهما بعد زمنها لا يمكن ألا نتأثر بها أقل من تأثرنا بالحوادث التى تقع فى حياتنا الحاضرة. وكل شخصية من الشخصيات، سواء أكانت من الشخصيات المعاصرة

---

(١) تالبو — Talbot ، قائد حربى انجليزى عرف واشتهر فى أيام حرب جان دارك عاش ما بين سنتى ١٣٨٨ ، ١٤٥٣ المترجم.

(٢) Dugueselis قائد فرنسى عرف بمهارته الحربية واشتهر بعدائه للانجليز وبانتصاره عليهم. عاش ما بين سنتى ١٣٢٠ ، ١٣٨٠ م المترجم.

(٣) Fénelon., lettres sur les occupatios de l'Academie française, VIII : المؤلف.

(٤) Taine, Op. cit. l'ancien régime, préface, p.v.

(٥) Saint - Simon ، op. cit ، t.II ص ٤١٥

أم من الشخصيات الماضية ، لابد وأن تثير فينا إحساسا بالحب أو بالكراهيـــة وفق ماتكون عليه تلك الشخصية من نبل فى الخلق أو من سوء الخلق : « لاتوجد لوحة فنية واحدة مهما بلغت دقتها ومهما كانت مطابقتها للأصل دون أن يكون الرسام قد أضاف إليها شيئا من عنده . ولم يستطع أساتذتنا فى التاريخ أن يتحرروا من ربقة هذا القانون ولدينا من هؤلاء المؤرخين — تاسيت — الذى يصور نفسه أيضا فيما كتبه عن — تيبير — بالرغم من كبت الحرية الذى ساد فى عصره « خمس عشرة سنة طوالا »(١) .

إن التاريخ فى أغلب قصصه يتناول إحساسات هى فى الواقع عزيزة علينا ؛ ثم إنه فى تناوله لتلك الإحساسات يحاول أحد أمرين : إما النفى فيسبب لها الهدم وإما الإثبات فيزيد من خصوبتها ؛ ومن أمثلة هــذه الإحساسات : الرابطة التى تجمع بيننا وبين الاسرة ، ثم بيننا وبين الوطن ، وبيننا وبين العقيدة ؛ وأخــيرا بيننا وبين القوانين الاخلاقية .

سيجد القارىء عنتا فى قبوله لهذا « المبدأ الفلسفى » الذى لايرى فارقا :

بين رجل منافق جائر نفعى

وبين نسور متعطشة إلى الدماء ،

وقردة شريرة ، وذئاب مسعورة .

وليس من المعقول أن نطلب إلى المؤرخ أن ينظم لنا شعرا فيما يرويه أو يتقايأ سبا وهجاء على طريقة ميشليه **Michelet** . غير أن القدماء حينما يتحــدثون وهم فى « ساحة التاريخ » كانوا يلجئون إلى تعبير هو غاية فى الدقة . أننا نود أن نرى الفضيلة فى رداء هفهاف قشيب ، كما نود أن نرى الرذيلة فى ثوب مهلهل قذر؛

---

(١) Michelet, Histoire de France ، p're volume القدمه لسنه ١٩٦٩.

أو نود على الاقل، أن نشعر بإحساس خاص ينتقل خلال اللوحة التى تصور شقاء الإنسانية، وخلال تلك التى تصور الفضل والنبل والكرم والوفاء. ولقد أنصف ميشليه Michelet حينما تحدث عن ذلك الاحساس فزعم «أن المؤرخ الذى ليست لديه موهبة رسم ذلك الإحساس لا يعتبر مؤرخا بأى حال (١)». ولو أن سان سيمون Saint-Simon لم يكن دائما وفيا لمبادئه إلا أنه استطاع أن يشرح لنا حقيقة كيف يكون عدم التحيز. ألم يقل بالنسبة لما سجله من مذكرات هذه العبارة؟: «لقد كنت حريصا أشد الحرص ومحتاطا أشد الحيطة ضد إحساس بالحب، وضد احساسى بالبغض، بل ان حرصى وحيطتى كانا أشد بالنسبة لإحساس البغض؛ فما كنت أتحدث عن هؤلاء، ولا عن أولئك الا وميزان العدالة قائم بيدى؛ فما كنت أفرط ولا أبالغ؛ كنت أنسى نفسى، وأتقيها كما أتقى الاعداء؛ كنت أضع الامور فى نصابها وأدع الحقيقة الخالصة تسود كل ما أقول. وبهذه الطريقة أستطيع أن أقدر بأنى لم أكن متحيزا، وأعتقد أن ليست هناك طريقة أخرى لمجانبة التحيز» (٢).

الاسباب التى تضعف عدم التحيز :

ان الاحساس بالحب، والإحساس بالكراهية اللذين ذكرهما ـ سان سيمون منذ قليل، واللذين من شأنهما أن يفسدا حكم المؤرخ على الحوادث التاريخية، ينشآن عن أسباب سياسية وأخلاقيـة، وأدبية. وقد يكون منشؤهما فى بعض الاحيان عن طبيعة المؤرخ نفسه ومزاجه.

١ ـ الميول السياسية : قد ينقاد المؤرخ انقيادا أعمى تحت تأثير مبادىء الحزب الذى يدين له. ففى القرن السابع عشر كان المؤرخون يبحثون فى الإنظمة

---

(١) Op. cit. premier volume, preface de 1869

(٢) T. II. conclusion p.p. 415. 416.

الحكومية الفرنسية القديمة ما يبرر الحكم الملكى المطلق الذى ساد فى خلال ذلك القرن؛ واذا ما جاء القرن الثامن عشر كانوا يبحثون عن كل ما يبرر نظام الحكم البرلمانى . . .

٢ ـ الأسباب الاخلاقية

ا ـ الوطنيــــة التى أسيء فهمها : كل منا يود الرفعة لبلده والانحطاط للبلاد الاخرى . فى ذكر حوادث الحـــرب نفيض فى بيان الجرائم الوحشية التى أرتكبها العدو ونمضى فى صمت بالنسبة لما صنع من خير . وحينما يتعلق الامر بالانظمة الحكومية فكل ما يتصل بأنظمتنا حسن جميـــل ، وكل ما يتصل بأنظمة الآخرين شرقبيح : ولقد منع هذا النـــوع من الوطنية المؤرخ اللاتينى ، تيت ـ ليف Tite-Live من أن يصف فى اخلاص ما يمتاز به هانيبال من عبقرية حربية . لم يحس بمقـدار ذلك المجهود الجبار وتلك المهارة الفائقة اللذين أبداهما هانيبـــال ، وهو بعيد عن وطنه ، لكى يجند ويجرب جيشا من المرتزقه ، يستطيع أن يحاصر به روما ويكاد يقضى عليها القضاء الاخير. واذن فالوطنية المستنيرة المعتدلة لا صلة لها مطلقا بالوطنية المتطرفة الجارفة . فالأولى لا تتحاشى الاعتراف بما لدى العدو من فضائل ، ثم لاتأبى ملاحظةماعند الشعوب المجاورة من خير رغبة فى مجاراتها ثم فى التقدم عليها . ومن يتصف بهذا النوع من الوطنية لا يجد حرجا فى أن يذكر لمواطنيه الحقائق فى جرأة وصراحة مهما كانت قاسية مريرة ، فهو يذكر لهم مواطن الضعف ويضع أيديهم على مافى جسم الأمة من جروح لكى يعملوا على علاجها ، ثم يبين لهم الأخطاء لكيلا يقعوا فيها مرة أخرى .

ب) المسائل الدينية ـ من عادة الناس أن يتهموا بسوء النية أولئك الذين لا يشاركونهم فى نفس العقيدة ؛ فتراهم مرة يفترضون عندهم القصد النفعى أو الميل المتطرف ، ومرة أخرى يرمونهم بأنهم أبعد الناس عن قبول وجهة النظر البريئة الخالصة . ولكن اذا كان هناك تطرف دينى قد حمل عليه الناس وبالغوا فى نقده

فإن هنـاك أيضا تطرف إلحادى أشد غشاوة وأكثر تعصبا : ودليننـا على ذلك ماكتبـه فولتير بالنسبة للعصور الوسطى حيث عزا كل أخطـاء تلك العصور إلى العقيدة أو الدين .

وكذلك منذ اللحظة التى أصبح فيهـا المؤرخ ـ ميشليه ـ Michelet ـ العدو اللدود للقسيسين والملوك فإنه يستبدل بلهجته المعتدلة لهجة أخرى فيما كتبه فى تاريخ فرنسا. فبينما نراه فى الأجزاء الأولى من هذا التاريخ يصور العصور الوسطى وما تمتاز به من التمسك بأهداب الدين تصويرا شيقا معتدلا، إذا بنا نراه فى الأجزاء التالية يصور الكاثوليكيه بصورة تيس اليهود المطرود (١) فيلقى عليها كل الأوزار وكل الأخطاء التى ارتكبت أثناء القرون الثلاثة التى سبقت الثورة الفرنسية .

٣ ـ الأسباب الادبية

١) الافكار أو الاراء الضالة

ان مصدر الاخطا الرئيسى فى حكمنا على الرجال وعلى الانظمة الحكومية انما هو تلك الآراء الضالة فهناك أفكار تسبح فى الهواء و نتنفسها على غير علم منا. ولما كان ـ تأسيت ـ المؤرخ اللاتينى ، يشارك معاصريه فى أفكارهم عن المسيحيين فإنه جهل وجودهم ولم يرد أن يذكر شيئا عنهم . لم يكلف نفسه عناء البحث الموضوعى دون تحيز لكى يكون عنهم فكرة شخصية . ونحن من جانبنا نحس ميلا الى أن نحكم على الحضارات القديمة بناء على ما نراه بأعيننا وما ألفناه من عادات وأخلاق . فأغلب الناس لا يفرقون بين الفرنسى فى القرن العشرين ، والفرنسى فى القرن السابع عشر ، والفرنسى فى العصور الوسطى ؛ وليس هناك خطأ أشنع من ذلك . ولدينا على ذلك مثل

---

(١) من عادة اليهود أن يجتمعوا فى عيد الغفران ثم يأتى ربانهم الأكبر بتيس يحمله أوزار الشعب اليهودى كله ثم يلقى عليه كثيرا من اللعنات ، وأخيرا يطرده فى الصحراء ؛ ومن هنا أخذت صورة من يحمل أوزار الآخرين دون أن يرتكب هو وزرا . المترجم .

واضح ؛ ينتقد الناس الآن الغاء مرسوم نانت nantes (١) ـ نقدا مرا ، بينما كل المعاصرين لهذا الالغاء كانوا يؤيدونه تأييدا تاما .

هذا ومن يدين بعقيدة الدولة يعتبر من يخالف هذه العقيدة خارجا وعدوا للشعب ونظام الحكومة معا . ولا جدال فى أن الفرق بين الأنظمة الحكومية فى العصور الوسطى « والأنظمة الحالية التى نراها من حولنا كبير لدرجة إننا لانستطيع فى غير مشقة أن نصدر على تلك الأنظمة حكما يتسم بالنزاهة الكاملة. وإنه لمن الصعوبة بمكان على رجل معاصر أن يعيش بعقله فى جو الأفكار والحوادث التى كانت السبب فى نشأة تلك الأنظمة »(٢) .

على المؤرخ إذن أن تكون لديه قوة إدراك الفوارق بين العصور المختلفة . وهذا يتطلب ذكاء حادا وعقلا من الدقة والإرهاف بحيث يستطيع أن يدرك أسرار الأشياء وخفايا الأمور ؛ وهذا فى رأى باسكال ، يختلف تماما عن العقل الهندسى الذى يترسم الأشياء كما وضعت ويتتبع منطوق المسائل كما ذكرت .

ب ـ التفكير المقيد

إن التفكير على أسس هندسية فى التاريخ انما هو تفكير مقيد فى اتجاهه الرئيسى، تفكير همه أن يرجع كل شيء إلى مبدء قد رأى فيه الأولوية على غيره وإلى فكرة قد أدركها ووعاها سلفا . وفى هذا الصدد يرى مونتيسكيو(٣) أن لجو الأقليم الطبيعى

---

(١) فى سنة ١٥٩٨ م أصدر هنرى الرابع مرسوما يعترف فيه بوجود البروتستانت ويمنحهم حرية العقيدة ويسمح لهم بأنشاء أربع جامعات لنشر تعاليمهم ؛ ولكن فى سنة ١٦٨٥ م ألغى لويس الرابع عشر هذا المرسوم فحرم البروتستانت من حقوقهم ، وأمام هذا أضطر البروتستانت إلى الهجرة فحرمت بذلك فرنسا من فئة عاملة نشيطة مفكرة. المترجم.

(٢) Fustel de Coulanege' Op. cit. La Gaule Romaine, Preface, P,XI.

(٣) مونتيسكيو : من أكبر الكتاب فى فرنسا ؛ وهو من أولئك الذين مهدوا للثورة الفرنسية ؛ ثم كان داعيا كبيرا لنظرية فصل السلطات فى الحكم ؛ وله من الكتب :

Lettres Persannes - و - De La Grandeur et De La Décadence des Romains - و - l'Esprit Des Lois - .

ولد فى سنة ١٦٨٩ ومات سنة ١٧٥٥م.(المترجم)

اكبر الأثر فى ذلك ؛ ويرى ميشليه(١) أن أهم تأثير فى ذلك إنما يعود إلى جغرافية الأقليم ....؛ وأما تين(٢)فانه يعزو ذلك الى العواطف الشخصية والميول الخاصة .

والواقع أن الحقيقة ليست من البساطة بهذه الدرجة : فقد توجد أسباب متعددة لحادث واحد وقد تتغير هذه الأسباب بتغير الشعوت كما تتغير أيضا بتغير الأفراد . بل وهناك ما هو أشد من ذلك قد يخضع الشخص الواحد فى ظروف متتابعة لأحساسات متعارضة .

٤ ـ مزاج المؤلف

تفتقر طبيعة المؤرخ إلى مزاج هادىء وإلى سيطرة تامة على النفس مصدرها سلطان العقل المطلق على الخيال وعلى الشعور . ولما كان التشاؤم من طبيعة تأسيت فإنه يرى كل شيء من خلال منظار أسود . ولنأخذ لذلك مثلا حيا ؛ ذلك هو تيبير(٣) فقد كان أول عهده بالحكم امبرطورا حسن السلوك وديعا كريما ولكنه صار فى نهاية الحكم طاغية فظا جبارا . ثم جاء تاسيت ، الذى يصعب عليه أن يرى الخير فى كائن من الكائنات ، وكتب حياة الامبراطور تيبير فاتهم مسلكه فى أول حكمه بأنه لا يعدو أن يكون مسلك خداع ونفاق ؛ وهذه تهمة فى الواقع لا تستند على دليل ولا يؤيدها برهان . ومؤرخ آخر بعيد النظر مثل ميشليه يتصور فى

---

(١) ميشليه : تقدم فى ص ٤٩ من المجلد الأول .

(٢) تين Taine : هو فيلسوف فرنسى وبجانب الفلسفة قد اشتهر بالمؤرخ والناقد الأدبى وغلبت شهرته فى الناحية الأخيرة اذ أن محاولته شرح الآثار الفنية والأدبية والتاريخية بواسطة هذه التأثيرات: الجنس والبيئة أو الوسط، والزمن ، تقول ان هذه المحاولة قد جعلته يبرز فى هذا الميدان.وقد عاش من سنة ١٨٢٨ إلى سنة ١٨٩٣م . المترجم

(٣) تيبير ، هو ثانى امبرطوار فى الامبراطوريه الرومانيه ؛ ويعتبر ابن أغسطس، الامبراطور الأول ، بالتبنى، ويذكر المؤرخون أنه استحال طاغية تحت تأثير وزيره سيجان.ولد تيبير سنة ٤٢ ق . م ومات سنة ٣٧ بعد الميلاد . المترجم .

سهولة كبيرة ما يتخيله هو على أنه حقيقة ، ويسجل ما يفترضه هو على أنه مظهر من مظاهر ذلك الذى تخيله . وكذلك تستطيع الحساسية الشديدة ان تطمس نظر الكاتب ، كما أن عين الغضب ترى الأشياء مزعزة مضطربة .وعلى هذا الأساس يمكنه تفسير كثير من أخطاء سان سيمون (١) ـ ذلك الدوق الصغير المولع بأنظمة حياة القصور ، والغضوب سريع الانتقام لقد كان عقله فى ثورة دائما ؛ ولذا لم يستطع الامتناع عن ايذاء اعدائه؛ بل كثيرا ما كان يجد متعة فى احتقارهم والتشنيع عليهم . ولم يغفر سان سيمون ـ ابدا للويس الرابع عشر صنيعه فى استبدال النبلاء بصغار الموظفين فى إدارة شئون الدولة ، كما لم يغفر كذلك لمدام دى مانتينون (٢) أن حلت فى القصر محل الملكات . ولقد وضح للناس بشكل محسوس مااشتهر عن أسرة كونديه ـ فى قضاياه معهم بخصوص موضوع الأراضى الزراعيه .

وإذن فلكى تتوفر صفة النزاهة فى شخص لا بد وأن يجتمع فى هذا الشخص عدد من الصفات التى يصعب اجتماعها فى شخص واحد . ومن هنا ساغ أن يقال : لو صح أن الشعراء يكونون طبقة مختارة فان المؤرخين ، الجديرين حقا بهذا الاسم، يكونون صفوة هذه الطبقة .

٢ ـــ التاريخ الذى يشرح الأحداث :

البحث عن الأسباب :

حينما يصل المؤرخ إلى معرفة الحقيقة بواسطة ما حصل عليه من معلومات

---

(١) سان سيمون تقدم فى المجلد الأول ص ١٧٢

(٢) ما دام دى مانتينون : نشأت هذه المركيزه نشأة دينية كاثوليكية وقد تزوجت فى سن مبكر اضطرارا الشاعر اسكارون ، الذى كانت كل أعضائه مشلوله . وبعد أن عاشت معه ٨ سنوات مات زوجها . وعندئذ أصبحت المربية لأطفال لويس الرابع عشر ثم تزوجت سرا من لويس الرابع عشر فكان لها عليه تأثير عظيم . وبعد أن مات لويس الرابع عشر سنة ١٧١٥ م تركت حياة القصر وذهبت لتقضى بقية حياتها فى بيت أسسته هى لتربية الفقيرات من بنات النبلاء . عاشت من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٧١٩م . المترجم .

دقيقة يقينية ، وبواسطة ما وهب من ملكة فى النقـــدوقدرة على تجنب التحيز فأنه يبقى عليه بعد ذلك أيضا خطوة هامة لابد أن يخطوها . فالأحـــداث التاريخية مهما كانت عديدة ومهما كانت حقيقيه لا تعتبر ميدانا للعلم ، وإنما تعتبر ميدانا للبحث ؛ إذ أن ميدان العلم إنما هو البحث عن الأسباب والقوانين . ويبقى بعد ذلك إذن شرح هذه الأحداث التاريخية لكى يهمل منها ما لا يكون ذا شأن فى الموضوع ، ويمسك بتلك التى تصور عصرا من العصور أو شخصا من الناس . يبقى الأدراك العميق للصلات والروابط بين هذه الأحداث وغيرها ؛ وذلك عن طريق المقارنة مع ما سبقها أو ما لحقها ؛كما يبقى أخيرا الوصول إلى إبراز الأسباب والنتائج . إذ أن هذه الأسباب والنتائج ليست بمثابة أمور مادية مودعة فى الوثائق كما تحفظ المسامير الصغيرة فى صندوق ، بل هى موجودة على حالة أشبه شىء بالرمز أو التمثيل ؛ وعلى ذكاء المؤرخ إذن أن يحل هذه الرموز وتلك الاشارات . وقد كتب ـ مونتينى (١)ـ فى هذا بما عهد فيه من دقة فى التحليل يقول :

« لقد قرأت فى ـ تيت ليف(٢) ـ أشياء كثيرة لم يقرأها فيه غيرى(٣) » .

إن مهمة العلم ،كما يقول أرسطو ، أن يهدينا إلى « لماذا » . وبمعنى آخر أن يوضح لنا أسباب الأحداث . وكما يقول ـ باسكال(٤) ـ « إن الأشياء لا تعدو أن تكون أسبابا ومسببات ». وعليه يجب البحث فيما كان حاضرا بالنسبة للماضى عن الصلات المستمرة تحت ما يبدو أنه انقطع . فليس هناك من شىء يبدأ للمرة الأولى ، وكل

---

(١) مونتينى : كاتب أخـلاق فرنسى . كان على دراية واسعة بالثقافتين القديمتين ، اليونانية واللاتينية ؛ كما كان متأثرا بالمذهب الأبيقورى . وقد خلد اسمه كتاب ألفه تحت هذا العنوان : Essais . عاش من سنة ١٥٣٣ إلى سنة ١٥٩٢ م . المترجم .

(٢) تيت – ليف : يعتبر هـذا المؤرخ من أكبر المؤرخين اللاتينيين : له أسلوب أدبى ممتاز مما جعل كتابته فى التاريخ لا تقرأ لما فيها من حقائق تاريخية ، بل لما فيها من أسلوب أدبى رفيع. عاش من سنة ٩٥ ق. م إلى سنة ١٩ بعد الميلاد . المترجم

(٣) Essais, Liv. I, Ch xxv. المؤلف .

(٤) أنظر المجلد الأول ص ٩٨ .

شيء يستمر. والثورات فى الواقع ماهى إلا تطور ؛ إذ أن عوامل عده قد تساندت لاحداثها منذ زمن بعيد، كما أن نتائج هذه الثورات لن تكمل ولن تكون نهائية إلا بعدسنوات عديدة. ولذا يقول: فوستيل دى كولانج(١) « يجب لكى تؤسس حكما سياسيا أن تمضى أجيال عده، كما يجب لكى نقضى على حكم سياسى أن تمضى أجيال عدة أيضا »(٢).

إن قضاء ثورة سنة ٩٣ على الحكم السياسى القديم كان يحمل فى طياته أسبابا سياسية بعيدة، بعضها يتصل بالطبقة الحاكمة كالاستبداد فى الحكم، والفوضى فى نظام الملكيه، والاستغلال الفاحش للمزايا التى كانت مشروعةفى الأصل؛ وبعضها يتصل بالطبقات المحكومة كالحقدالشديد لدى الجماهيرالبائسة والمغلوبعلى أمرها؛ ذلك الحقد الذى تراكم خلال قرون عده. وأما أسبابه المعنوية أو الخلقية فانها توجد فى طبيعة المزاج الفرنسى؛ ذلك المزاج الذى لا يعرف التريث ولا التوسط فى الأمور، بل يستمر فى جموحه حتى النهاية. وأمام أسبابه القريبة فانها توجد فى تلك الخصومات التى كان يقوم بها الفلاسفة اللادينيون فى القرن الثامن عشر، كما كان يقوم بها أيضا ـ روسو(٣) ـ ضد الدين والملكية معا. وأخيرا فان هذه الحركة المعادية للحكم الملكى قد سارت فى خطوات سريعة بواسطة أولئك الأشرار الذين يظهرون فى أوقات الاضطراب، ويعملون على انغماس أجمل المحاولات الطيبة فى بحر من الدم والوحل؛ ومن هؤلاء الأشرار ـ مارا(٤) ـ و ـ روبيسبيير(٥).

---

(١) فوستيل دى كولانج؛ مؤرخ فرنسى ولد سنة ١٨٣٠ وتوفى فى سنة ١٨٨٩ م؛وقد عالج تاريخ السياسة الفرنسية القديمة علاجا يدل على سعة المعرفةوبراعة الأسلوب. المترجم

(٢) Fustel De Coulanges, La Gaule Romaine. Preface, P. XII. المؤلف:

(٣) روسو: أنظر ص ٧٨ من المجلد الأول.

(٤، ٥) مارا وروبيسبيير، شخصيتان معروفتان أثناء الثورة الفرنسية؛ وقد استطاعا أن يؤثرا على جماهير الشعب تأثيرا كبيرا كما تسببا فى اعدام الكثيرين من رجال الحكم إذ ذاك؛ وقد انتهى أمرها بالقتل؛ فقتل مارا فى سنة ١٧٩٣ م،واعدم روبيسبيير سنه ١٧٩٤ م. المترجم

إن أسباب الحوادث عديدة مختلفة ؛ وهي في مجموعها يجب أن ترجع إلى الجنس والأخلاق الوراثية ، والمنـــاخ ، والوسط ، والأفــكار ، والعواطف ، والنشاط الحر الطليق ، وإذن فليس هناك أصعب من استخلاص هذه الأسباب الشبيهة بالخيوط المتشابكة المتقابلة . كما أنه ليس أصعب من تقدير التأثيرات ومعرفة أيها أرجح ، والبحث عن الأسباب المختفية وراء الحجج المضلله ، ثم انتزاع الغطاء عن الشخصية لكي تظهر في ملامحها الحقه .

يجب ألا نوجه عنـاية كبيرة إلى بعض العوامل على حساب البعض الآخر . أو باستثناء ذلك البعض استثناء كاملا ؛ كما يجب ألا نستنتج نتائج هامة من أسباب تافهة كما كان يصنع ـ سان سيمون ـ و ـ ميشليه . من ذلك ما قاله ـ سان سيمون ـ من أن الحرب التي قامت بهـا فرنسا ، خلال تسع سنوات (من سنة ١٦٨٩ إلى سنة ١٦٩٧ م) حتى صلح ـ ريزويك (١) ـ ضد أوروبا بمجتمعه قد نشأت بسبب نقاش بين ـ لوفوا (٢) ، ولويس الرابع عشر من أجل شباك ، تريانون(٣) ، .أما ميشليه ، فإنه يقول إن سبب هـذه الحرب كان المرض الذي يعانيه الملك . وإليك نص قوله : « إن الملك في حزنه ، وفي ثورته النفسيه ، وفي انتظـاره المؤلم كان في صراع مستمر مع الأطباء الجراحين ، الذين منذ الصيف ، كانوا يودون العمل على مداواته وكان هو ينشر العذاب في أوروبا (٤) .

---

(١) ريزويك ؛ اسم قرية من قرى هولانده أمضيت فيها معاهدة الصلح بعد الحرب التي اشتعلت بين فرنسا من ناحية وأوروبا مجتمعة من ناحية أخرى ؛ وكان ذلك سنة ١٦٩١ م . المترجم

(٢) لوفوا هو أحد الرجال المشهورين في فرنسا أيام حكم لويس الرابع عشر ؛ والسبب في شهرته هو أنه نظم الجيش الفرنسي تنظيما عظيما تحت حكم هذا الملك . ولد سنة ١٦٣٩ ومات سنة ١٦٩١ م . المترجم

(٣) تريانون ؛ اسم قصر صغير بناه الملك لويس الرابع عشر بالقرب من قصر فرساي العظيم.
Saint - Simon, OP· Cit., I· 11, P. 188

(٤) Histoire De France, t. XIII. Ch. XXV. P 286·

أما وجهـــة نظر ـ فولتير ـ (١) ، وهو محق فى ذلك ، فكان يعزو ذلك إلى أسباب أكثر عموميه ؛ وهى « التيارات السياسية الخفيه » إذ أن لويس الرابع عشر كان يرغب فى أن يترك مدينة ـ كولونيا ـ لحماية كاردينال ـ فوستنبرج ـ صديق فرنسا ، وبصفة خاصة «تعطشه إلى المجد » ، و « الشهرة » التى بسببها « دأب الملك » وهو فى قمة عظمته ، على أن يعفى أويعزل أو يحقر كل الأمراء تقريبا؛ ولذا فقد اجتمعوا كلهم تقريبا ضده » (٢) . ربما كانت مناقشة ـ تريانون ـ ، كما كان المرض بمثابة الشرارة قد وجدت الفرص مهيأة للاشتعال فى تلك الظروف السيئة التى كانت توجد فيها أوروبا بالنسبة للويس الرابع عشر . كثيرا ما يختلف الناس فى تقديرهم للأسباب الأصيلة الأولى بالنسبة لحادث من الأحداث .

من ذلك مايراه ـ بوسويه ـ من أن أحد الأسباب التى أدت إلى تدهور الدولة الرومانية كان النزاع الطبيعى بين الأغنياء والفقراء . وعلى عكس ذلك يرى الكاتب ـ مونتيسكيو ـ ؛ فان ما كان من منافسة بين هاتين الطبقتين ،وما كان يبدو فى هذه المنافسة من ملاحظة وتساهل متبادلين كان فى نظر ـ مونتيسكيو ـ مبدأ من مبادىء القوة فى الدولة . ويرى المحدثون ، وهم أوسع علما وخبرة من السابقين، أن ـ مونتيسكيو ـ على حق فيما يقرر .

فلسفة التاريخ أو قوانينه

إن موضوع العلم فى نظر أرسطو إنما هو العام لا الخاص ، وبمعنى آخر إنما هى القوانين العامة .ليس يكفى للعالم الطبيعى أن يلاحظ فى سقوط تفاحة من الشجرة

---

(١) فولتير — أنظر ص ٣٨ من المجلد الأول .

(٢) Siecle De Louis XIv· Ch. XIv (à la Fin) -

أنها منجذبة إلى مركز الأرض، بل يجب عليه أن يكتشف بواسطة التجارب والمنطق القانون العام (قانون الثقل) الذى ينطبق على كل الأجسام والذى من أجله حدث هذا السقوط . وينهج المؤرخ نهجا مماثلا : فهو يعمم ويبحث القوانين أو « الصلات الضرورية » بين نظم الحوادث المختلفة : وميدانه فى ذلك الأفكار والأنظمه الحكوميه ، والادارة السياسية ، الثروة العامة . فهو فى الحالة الأولى يصل إلى هذا المبدأ ، الذى وضعه بونالد - : « ان الشعوب لا تمنح الا ما تستحقه من حكومات » . وفى الحالة الثانية يصل إلى هذه الفكرة التى صاغها البارون لويس ، أحد وزراء لويس الثامن عشر : « هيىء لى سياسة رشيدة ، أقدم لك إيرادا حسنا ». ولقد وضح - مونتسكيو » فلسفة التاريخ بمعناها الصحيح فى عبارته المشهورة : « هناك أسباب عامه ، أخلاقية كانت أم طبيعية ، تتوفر فى كل مملكة فتعمل على رفعتها أو على المحافظة عليها أو على تدهورها ، . فكل ما يقع من أحداث يخضع لما يسبقه من أسباب ، ولو حدث عن طريق الصدفة أن خربت دولة من الدول بواسطة موقعة حربية ، أى بواسطة سبب خاص ، فليس معنى ذلك أن هذه الموقعة هى التى أدت إلى انهيار تلك الدولة ، بل معنى ذلك أن هناك سببا عاما كان من لوازمه أن تنهار هذه الدولة بسبب تلك الموقعه : ويمكن أن يقال باختصار إن الحالة الجوهرية الأساسية للدولة يترتب عليها كل ما يقع من أحداث خاصة(١) » .

ولقد أفاض - مونتيسكيو - فى الملاحظات العامه ، التى لا تتصل بعصر معين،

---

(١) Considérations sur les Causes de la grandeur des Romins et de leur décadence, ch. XIII. وهناك أحد الكتاب المحدثين من العسكريين هو - Ch. Malo - قد أخذ بهذا المبدأ من جديد فاتفق مع مؤلف لكتاب يبحث فى حرب سنة ١٨٧٠ م على أن السبب الأساسى فى هزائم الفرنسيين ليس مرده « قلة عدد الجنود الفرنسيه ، إذ أن الفرنسيين كانوا أقوى من أعدائهم فى Spicheren ، وفى Borny ، وبصفة خاصة فى Rezonville » ، ولكن مرده « إلى أنهم لم يكونوا مستعدين للحرب » [أنظر : Journal des Débats , 20 Dec 1902] . إن الفساد العام هو العامل الرئيسى الذى قاد الفرنسيين إلى هذه الكوارث . المؤلف .

ولا بشعب بعينه ؛ وذلك مثل الملاحظة الآتية : « حينما نرى شعبين كبيرين يقعان فى حرب صعبة المراس طويلة الأمد فمن الخطأ السياسى غالبا أن نفكر فى إمكان تجنب هذه الحرب والبقاء بمثابة متفرجين مطمئنين ؛ إذ أن المنتصر من هذين الشعبين سيتجه بعد ذلك مباشرة إلى اشعال حروب جديدة ،وسيستفيد من جنده وما لديهم من خبرة فى محاربة شعوب ليست مستعدة ، وليس فيها إلا المدنيون(١).

ومع ذلك فان قوانين التاريخ بمثابة قوانين أخلاقية ، فهى إذن خاضعة لأنواع عديدة من الشذوذ ، مثال ذلك أنها لا تنطبق إلا على أغلب الحالات ، وأنها لا تملك قوة القوانين الطبيعية ويبدو أن مونتيسكيو ـ لم يكن من ذلك على ذكر تام . لقد خرب النظام الديموقراطى الجمهورية الأثينية ؛ ومع ذلك فليس من الصواب أن نستخلص من هذا مبدأ عاما مطلقا ؛ لأن هذه الديموقراطية كانت السبب فى سعادة جمهورية سويسره والجمهوريات الأمريكية . ولو صرفنا النظر عن الحديث بالنسبة للحرية الأنسانية فان هناك عوامل عدة تستلزم مراعاة التفاوت فى قوانين التاريخ ، كالعقيدة ، والجنس ، والأخلاق . يجب إذن عدم تعميم هذه القوانين إلا بالحيطة الشديدة .

« لم يكن التاريخ علما سهلا ؛ ذلك لأن موضوعه فى غاية التعقيد ، فالمجتمع الأنسانى عبارة عن جسم لا يمكن إدراك ما فيه من وحدة وانسجام إلا بشرط أن نختبر عن قرب جدا وبالتوالى كل عضو من الأعضاء التى يشتمل عليها والتى تخلق الحياة فيه .

إن الملاحظة التفصيلية الطويلة الدقيقة هى إذن الطريق الوحيد الذى يستطيع أن يقود إلى شىء من النظرات العامة . ان ما يحتاجه يوم واحد يستنفد حتما سنين

---

(١) نفس المرجع المتقدم فى الصفحة السابقة — ch. V — . كان ينبغى على فرنسا أن تذكر هذه الملاحظة التى أبداها — مونتيسكيو؛ وأن تتحالف مع النمسا ؛ كما أسرعت النمسا فصنعت ذلك قبل — Sadowa — ولو أن الفرنسيين عملوا ذلك لتجنبوا مصائب حرب سنة ١٨٧٠ م المؤلف .

عدة فى التحليل . وفى الابحـاث التى تتطلب كثيرا من الصبر ، ومن الجهـد ، ومن الحيطه ، ومن الجرأة تـكثر جدا مواطن الزلل ، ولا يمـكن لاى إنسان أن يفخر بتجنبه لذلك الزلل »(١) .

ومن أجل ذلك كان التـاريخ ، من حيث ما فيه من تفصيلات ، علمـا يخضع للتشكيل والتأليف من جـديد بدون انقطاع . ولـكى نستعمل لغة الفلاسفة نقول إن التاريخ فى صيرورة مستمرة . وبالرغم من أن الأسس فى هذا العلم تبقى فى العادة ثابته (٢) ، فان كل كاتب ، وفقا لمبلغ اطلاعه ودرجة تعمقه يستطيع أن يساهم بلبنة جديدة فى تشييد هذا البناء .

تأريخ الماضى

إذا كان شهود العيان ، فى الغـــالب ، أحسن المصادر لـكى يقدموا لنا حكما مضبوطا صادقا عن الأحـداث التـــاريخيه ، فإن موقفهم مع ذلك لا يبرر إدراكهم للأهميـة النسبية فى مواجهة تلك الأحـداث ، كما لا يبرر أيضا ، وبصفة خاصة ، تمـكنهم من التعمق فى فهم الأسباب البعيدة الخفيـه . وإذن فمن الضرورى أن نعود إلى المـاضى إذا أردنا أن نكون لأنفسنا نظرة عامة على مجموع الأحداث التاريخية وأن نتبين الأسباب الحقيقية لتلك الأحداث : فالتاريخ ، كغيره من سائر العلوم ، لايخلو من المشاهد النسبية. وبقدر ما يبتعد المؤرخون عن الأحداث التاريخية تبدو تلك الأحداث أكثر جلاء أو وضوحا. فالوثائق الحديثة تلقى على تلك الأحداث أضواء أقوى من ذى قبل ، وتفتح آفاقا جديدة ، وتصحح أخطاء سابقة . وتتمم ما يمكن أن يكون هناك من نقص فى تاريخ تلك الأحداث . هذا ويستطيع

---

(١) Fustel de Coulange, la gaule romaine, préface, p. XIII.

(٢) نقول – فى العادة – لأننا لاحظنا سابقا أن الاكتشافات التاريخية قدر لها أن تجدد تاريخ مصر ، وتاريخ الشرق . المؤلف .

المؤرخ فى نفس الوقت أن يحكم على الماضى حكما أكثر تجردا من العاطفة ، وأقرب إلى التزام الهدوء والتعمق فى التحليل . ومعرفة المؤرخ فى هذا تكون أكثر انضباطا وأشد بعدا عن جانب التحيز ؛ وقلما تتوفر هذه المعرفة بتلك الشروط للمعاصرين ؛ ذلك لأنهم ، بحكم قربهم من تلك الأحداث ، لم يروا إلا القليل من التفاصيل (١) . ومع ذلك فليس من اللازم أن نغالى فى التشدد بالنسبة لهذا المبدأ ؛ إذ أن - توسيديد روى لنا حرب البيلوبونيز ، وقد كان شاهد عيان فيها ، فكانت كتابته عنها أحسن مصدر عرفنا بواسطته تاريخ هذه الحقبة من تاريخ اليونان أجل معرفه ، وذلك بفضل ذكائه العظيم والتزامه للعدالة وعدم التحيز .

المقالة الرابعة

الفن فى التاريخ :

لسنا نعتقد ، كما لا يعتقد بعض المعاصرين أيضا ، أن التاريخ عبارة عن أثر « علمى خالص » بجرد عن اتجاه خاص ولون معين ، وبالتالى غير صالح لأن يكون

---

(١) وإليك مثالا للصعوبات التى يعانيها المعاصرون بالنسبة لحكمهم على الحوادث التى تقع تحت أعينهم :

لقد نشرت مجلة الدراسات التاريخية (La Revue des Etudes Historiques) الاعتبارات الخاصة بحرب السنوات السبع وهى عبارة عن مذكرات كتبها أخو فريدريك الأكبر ، الأمير هنرى البروسى ، أمهر القواد ، الذى ساهم بنصيب فى تلك الحرب الشعواء . فى هذه الحرب التى اعتبرها الفرنسيون خلال القرن الثامن عشر نتيجة لخديعة مدبرة بين - Madame de pompadour- - وبين القس المعروف بقس - بيرنيس - Bernis - يحاول الأمير هنرى أن يبحث عن بواعثها فى أسباب تافهة أشبه بالأسباب التى يدركها الأطفال ، فيقول إن الدافع إليها هو طموح قائد غير معروف ، أسمه - وينترفيلد - Winterfild - كان يرغب رغبة شديدة فى أن ينال حظوة بجانب فريدريك بواسطة ما يبديه من أعمال حربية . ثم استطاعت أخيرا الأبحاث العلمية ، التى قام بها - Le duc Alberst de Broglie - أن تضع الأمور فى نصابها . المؤلف .

شعبيا ، ومن أهدافه أن يجعل المواطنين يهتمون بالنسبة لأصلهم القديم ، بل غرضه الوحيد إنما هو أرضاء الطبقة الممتازه واشباع رغبة العلماء والباحثين . إنه لو خضع لهذه الشروط فقط لما استطاع أن يصل إلى ما يقصد منه . ومن أجل ذلك كان الفن عنصراً أساسيا فيه ؛ ذلك الفن ، الذى يتجه إلى الشعب فى إطاره الواسع، وينحصر قبل كل شيء فى النظام وفى الحياه .

النظام : ـ ليس من شأن التاريخ أن يسرد الحوادث مختلطا بعضها بالبعض الآخر ؛ بل من شأنه أن يجمع تلك الحوادث وينسقها فى مجموعات واضحة بينه.

وهناك أربع طرق ممكنة فى عرض الحوادث التاريخية :

الأولى: تخضع للنظام التاريخى ؛ أى إن كل الحوادث التى وقعت فى فترة محددة من الزمن تذكر مجتمعة فى هذه الفترة الزمنية بصرف النظر عن المكان الذى وقعت فيه .

الثانية: تخضع للنظام الجغرافى الذى ينقلنا تباعا من بلد إلى آخر. وقد وفق كل من ـ توسيديد ـ و ـ تاسيت ـ بين هاتين الطريقتين فى مولفاتهما التاريخية .

الثالثة: تخضع لنظام أشبه بالنظام بين الأمور المتوازيه بحيث تدرس كل ادارة من الادارات أو كل طائفة من الأحداث المتشابهة دراسة مستقلة على شرط أن تستنفد هذه الدراسه كل مايتصل بهذه الأحداث وبتلك الادارات ، كأن يدرس الجيش على حده ، وكذلك مسائل الاقتصاد ، والتجارة ، والعقيدة .وقداتبع فولتير هذه الطريقة فى كتابه « عصر لويس الرابع عشر »ولقدأوضحنافى مكانآخر المشاكل الخطيرة التى يتعرض لها التاريخ حين يخضع فى تأليفه الى هذه الطرق الثلاث (١) .

الرابعة : تخضع للنظام المنطق وهى الطريقة الوحيدة التى تعتبر واضحة ، وهنا

---

(١) أنظر Theor. de la Comp. litt., pp. 144 - 145

يجمع المؤرخ الانظمة الحكومية والحوادث التاريخية ، دون أن يهمل فى ذلك الطريقة الاولى والثانية اهمالا كاملا ، على أن يراعى فى هذا الجمع بصفة خاصة تأثير هذه الحوادث وتلك الانظمة بعضها فى البعض الآخر بالرغم من التباعد بينها بالنسبة للزمان ، والمكان وطبيعة كل على حده . سيرينا المؤرخون لحكم لويس الرابع عشر كيف كان طموح الملك وتزلف الحاشية له وتغريرهم به سببا فى حروب لاتنتهى ، تلك الحروب التى بعثرت مالية البلاد فاضطرت الحكومة الى فرض ضرائب جديدة ترتب عليها سخط الشعب وشقاؤه . وسنرى باختصار فى هذا الجهاز الحكومى الهائل كيف استطاعت كل ادارة من الادارات الحكومية أن تؤثر فى الادارة التى تجاورها ، وبالتالى ينتقل التأثير الى كل مصـــادر الحياة فى الشعب (١) .

«إن المؤرخ العبقرى حقا هو ذلك الذى يعرف كيف يختار من بين عشرين موطنا الموطن الذى يحسن فيه وضع الحادث التاريخى بحيث يضفى الضوء على المواطن الأخرى . كثيرا مايشرح حادث تاريخى سابق كل الظروف التى مهدت لحدوثه . وكثيرا مايتأخر ذكر حادث تاريخى آخر مع أن الاجدر به تماما أن يذكر فى يوم حدوثه ؛ ولو أنه تأخر لكان أكثر ملاءمة لكى تنشأ منه احداث أخرى(٢)

الحياة

بينما يلجأ الباحث أو العالم إلى شرح ما يريد بواسطـــة عبارات تجريدية واحصائيات وتحليل جاف ، إذ بالمؤرخ يكسو الحقيقة التى يؤرخها ، بالتعبيرات

---

(١) أنظر فى مؤلفنا – Theor. de la comp. litt. p. 146 – كيف يجب وضع الأجزاء الكبرى فى المؤلف التاريخى . المؤلف

(٢) Fénelon, op. cit., ch. VIII . المؤلف

الحسيه ذات الألوان الواضحة : إنه بذلك يخلق حيوية فى تأليفه بواسطة مايلجأ اليه من القصص ، ومن الصور ، ومن الأوصاف .

القصص

إن القصص الدراماتيكى السريع يستطيع أن يستولى على انتباه القارىء ، وأن ينقله تماما إلى عالم الواقع . فقصة ـ ثوسيديد ـ للحملة الأثينية إلى صقلية تشبه إلى حد بعيد إحدى مسرحيات سوفوكل (١) ـ من حيث الحيوية والتركيب المركز فهناك أولا الانتصارات الأولى للاثينيين ؛ ثم المفاجأة الناتجة عن وصول ـ جيليب (٢) ـ ؛ وأخيرا تقهقر الجيش وتعرضه أثناء التقهقر للهلاك بواسطة ضربات عدو لا يرحم .

الصور

إن الصورة التى يرسمها المؤرخ لشخصية من شأنها أن تبعث فى نفس القارىء هذه الشخصية نفسها بمالها من صفات خلقية ، وجسمانية ، وبما يصدر عنها من اشارات ، وبما ترتديه من ملابس . ومن أمثلة ذلك الصورة التى رسمها ـ تيت ـ ليف ـ لهانيبال (٣) .

---

(١) سوفوكل؛ شاعر يونانى ، مشهور ، ألف فى المسرح كثيرا ولم يبق من تأليفه سوى سبع مسرحيات هى :
انتيجون ، إليكتر ، التراشينيين ، أوديب الملك ، أجاكس ، فيلوكتيل ، أوديب فى كولون . عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد من حوالى سنة ٤٩٥ حتى سنة ٤٠٥ ق . م .

(٢) جيليب ، أحد قواد اسبارطة المشهورين ، عاش فى خلال القرن الخامس قبل الميلاد. المترجم

(٣) واليك ما يقوله ـ تيت ـ ليف ـ عن هانيبال فى تاريخه : v . ch, XXI . I
ليس هناك من شخص آخر استطاع بطبيعته أن يوفق بين المتناقضات مثله فكان مثاليا حينما يستلزم منه الامر أن يطيع للأوامر الصادرة اليه ، كما كان مثاليا أيضا حينما يستلزم منه الأمر أن يصدر الأوامر . ولذا لم يكن من السهل أن تدرك هل كان محبوبا أكثر عند رئيسه أم عند جنده . لقد=

يرسم المؤرخ طورا الصورة من قدمها ؛ ونعنى بذلك ألا يكون لديه منهج واضح فى رسمها ، وانما يضع الألوان المختلفة فى ثنايا تأليفه ، وعلى القارىء أن يستكمل هذه الصورة من خلال قراءته للقصة الكاملة ، وطورا آخر « تكون الشخصية مختلطة بالأحداث ، وبالاعتبارات، وباحساسات المؤلف فيتضح رسمها قليلا قليلا بواسطة تقدمها فى الظهور تباعا وبواسطة عودتها على مسرح الاحداث من حين إلى آخر ، أكثر حيوية بحيث لاتبدو أبدا فى معزل عن الأحداث أو كأنها صورة فى الهواء

=كان ـ هاسدروبال ـ (هوأخو هانيبال) يفضله على أى شخص آخر فى أن يسلم اليه قيادة الأمور التى تتطلب شجاعة وحسما . أما فيما يتصل بالجند فلم يعرف قائد حربى آخر يجاريه فى أن يبعث فى نفوسهم الجرأة والثقة . لقد كان جريئا بدرجة لا تتصور فى اقتحام الأخطار ، كما كان حاسما أيضا بدرجة لا تتصور حتى فى وسط الأخطار . ومهما كان العمل فان جسمه لا يكل وشجاعته لا تهزم ، وكان فى هذا يحتمل الحر الشديد كما كان يحتمل البرد القارس . كان فى مأكله وفى مشربه لا يبحث عن اللذة . بل يبحث عن حاجة جسمه الطبيعية . وكانت هذه الحاجة هى التى تحدد كمية ما يأكل وما يشرب كان نومه وصحوه لا يتقيدان بنهار ولا بليل، فلم يكن أبدا يستسلم للراحة الا حين يفرغ من مشاغله. ولحظات الراحة هذه لم يكن يقضيها على الفراش الناعم الوثير ولا فى الهدوء الذى يتطلبه بعد ذلك الاجهاد ، بل كان ينطوى فى رداء خشن من أردية الجند ثم يمتد على الأرض بين حراسه وفى وسط معسكره، وغالبا ماكان كثير من الناس يرونه وهو فى تلك الحالة. لم تتميز ملابسه فى شىء ما عن ملابس أصدقائه ، ولكنه كان يمتاز بشىء آخر عن الجند جميعا فارسا أو راجلا : كان الأول فى السير الى المعركة ، كما كان الاخير فى الانصراف منها . غير أن هذه الصفات الحربية العظيمة كان يعادلها أويتغلب عليها جمع من الرذائل الخطيرة ، تلك هى القسوة الوحشية ، والغدر الذى يفوق غدر الفينيقيين جميعا ، لم يكن صادقا ولا شريفا ، كما لم تكن لديه أدنى خشية من الآلهة ، لم تكن عنده ذرة واحدة من الضمير ، كما لم تبد منه فى يوم ما أية أشارة تدل على الوفاء بالعهد » .

هانيبال ، هو من أشهر القواد الحربيين فى العالم القديم ، وهو من الفينيقيين الذين كانوا فى قرطاجنة ، وجاءت شهرته الحربية من اختراقه لجبال الألب الوعرة على رأس جيشه ليحارب الرومانيين فى مدينتهم رومه ، ولم يهدأ لروما بال أيام عظمته الحربية ولكن بعد هزيمته فى روما وفراره إلى آسيا بدأت روما تحس بالقوة وتبسط سلطانها قليلا قليلا على حوض البحر الأبيض المتوسط . ولد فى سنة ٢٤٧ ق.م ومات سنة ١٨٣ ق.م المترجم

بل على العكس من ذلك لابد وأن تكون محاطة دائما بجميع الأمور الواقعية ، التى تسندها وتشد من أزرها . »(١)

الأوصاف

إن مهمة الأوصاف هى أن تضع تحت أعيننا التفصيلات المادية للواقع المحسوس، والمواطن التى وقعت فيها الأحداث التاريخية ؛ إنها بمثابة الزخرف، الذى يزين مناظر هذه الدرامة حيث تكون الشعوب أبطالا فيها . وفى هذه الحالة تصبح المناظر والشخصيات فى موضعها الطبيعى بدلا من ترددها فى عالم مبهم لاحياة فيه.

وباختصار يغدو التاريخ بواسطة الفن ، كما عبر عن ذلك - ميشليه - تعبيرا صادقا موفقا « بعثا كاملا للماضى(٢) » ؛ وهذا بفضل خيال المؤرخ وإحساسه . ومع ذلك فعلى المؤرخ أن يراقب نفسه فى حذر بحيث لا يخلط مبادئه وتعبيراته الشخصية بتلك المبادىء والتعبيرات التى تصدر مباشرة عن مصادره التاريخية . يجب أن يكون مقيدا بالواقع فلا يتزحزح أبدا عن ميدانه . « إن كل أجزاء الفن من صور ، وسمات ، وقصص ، وأسلوب ، وبيان ليست شيئا آخر سوى ثمرات العلم ؛ وبقدر ما يكون العلم مستوفيا لشروطه ، يكون الفن فى غاية ما ينتظر له من كمال : فالعلم يتوجه الفن كما أن الزرع أوالنبات يتوجه الزهر(٣) ».

ولقد ذكر لنا - تين - كيف تنشأ الآراء والإحساسات عند الاتصال بالوثائق: « وليس هناك من سبيل آخر سوى الوثائق لكى ترى عن قرب، وبالتفصيل مكانة الأشخاص ، وما يجرى داخل الأديره والمعابد ، وما يدور فى مجلس البلدية لإحدى

---

(١) أنظر E. Faguet, Etudes sur le XIX^e siécle : Jules Michelet p. 378 .

(٢) Michelet. Histoire de France préface.

(٣) Taine.

المدن ؛ من هذه الوثائق تستطيع أن تعرف أجر العامل ، وإنتاج الحقول ، وما يدفعه الزارع من ضرائب ، وما يقوم به جامعو الضرائب من عمل ، وما ينفقه الامراء والاساقفة من أموال ومبلغ ما تصل اليه ميزانية الدولة ، وما يلزم القصر من أموال تنفق على مظاهر البذخ والحفلات . وبفضل هذه الوثائق نستطيع أن نعطى لكل هذا أرقاما محددة ، وأن نعرف كيف كان يقضى اليوم ساعة بساعة ، بل ونستطيع ، أحسن من ذلك ، أن نصف بالتفصيل أصناف الاطعمة التى قدمت فى وليمة كبرى وأن نستعيد صورة ما كان يصنع للزينة فى الولائم والحفلات ؛ وبفضل هذه الوثائق أيضا نستطيع أن نتخيل ما كان يرتديه الفلاح من ملابس . وأن نصف ما كان يأكله من عيش ، ونُعيِّن الدقيق الذى يصنع منه ذلك العيش ، ونحدد بالدانق والمليم مبلغ مايساويه رطل من هذا الدقيق . إننا بواسطة أمثال هذه الوثائق نستطيع أن نصبح كالمعاصرين لهؤلاء الاشخاص الذين نكتب تاريخهم . وكثيرا ماراودتنى الرغبة ، وأنا أطلع على هذه الوثائق وأقرأ ما كتب على أوراقها القديمة الصفراء ، فى أن أتحدث إليها بصوت مرتفع(١) . والمؤرخ العبقرى حقا هو الذى يستطيع أن ينقل إلى القراء من خلال هذه الوثائق الغارقة فى الأتربة صورة تلك الحياة بما فيها من تفصيلات خاصة وتعبيرات مميزه .

وفى ذلك يقول — فينيلون : « إن الظرف إذا أحسن اختياره ، والكلمة إذا وقعت فى الموقع الملائم ، والأشارة إذا أفصحت عن شخصية الرجل أو عن مزاجه كل ذلك يعتبر من السمات الأصيلة فى التاريخ ومن الأمور التى لها فيه تقدير عظيم ؛ إذ أن ذلك يضع أمام عينيك صورة الشخص واضحة المعالم كاملة التقاطيع . »

---

(١) Taine, Les Origines de la France contemporaine, t. I : L'ancien regime, preface. VII — VIII

(٢) Fénelon, Op. Cit, CH, VIII ,

المقالة الخامسة

الطريقة القديمة فى التاريخ

إن التاريخ كما عرفناه منذ قليل يتمشى مع طريقة المحدثين فى كثير من الأمور، وبصفة خاصة مع أهل القرن التاسع عشر. ويتميز التاريخ عن غيره من سائر الأنواع الأدبية الأخرى بأنه أخر تلك الأنواع تطورا ونضجا؛ فقد خرج فى اليونان من الملحمة بعد أن توقف فى صورة غير كاملة، ولم يصل إلى نضجه الكامل إلا فى القرن الماضى. ويمكن أن نجد فى سهولة أسباب ذلك؛ اذ أن الفنون — الشعر، والرسم، والنحت — تنبعث فى اكثر الأحيان — ويكاد يكون دائما — من الخيال أو من الأحساس؛ ثم تصل بسرعة الى مرحلة كما لها. ولكى تصل الى هذه الدرجة من الكمال يكفى فى ذلك عبقرية الفنان. على العكس من ذلك بالنسبة للعلوم، وبصفة خاصه العلوم التجريبيه(١)، التى ينتمى اليها التاريخ؛ اذ انها خاضعة لقانون التطور: تطور فى طرق البحث بحيث تصبح أكثر انضباطا، وبحيث يساهم كل شخص فى الوصول بها الى درجة الكمال؛ تطور فى وسائل التحرى والاستقصاء، التى يخضع عدد كبير منها الى الوسائل الحديثه مثل الاكتشافات الأثريه، ومثل فن قراءة الكتابات القديمه —الايبيجرافيا —؛ تطور فى نفس ميدان الملاحظة الشخصية؛ ذلك الميدان الذى يزداد اتساعا يوما بعد آخر، والذى يتناول — حينما يكون البحث خاصا بالتاريخ — الجنس والطقس، والاقتصاديات، والتجاره، والثقافه العقليه، والخلقيه والفنيه. ولقد كان القدماء يجهلون ذلك كله، أو بالاحرى لم

---

(١) إن العلوم التجريبية مؤسسة، كما يحددها هذا الاصطلاح نفسه، على التجربة؛ فهى لا تتكون إلا بعد ملاحظات أجريت فى أناة وصبر على الطبيعه، وبعد محاولات طويلة؛ فعلم الطبيعة وعلم الكيمياء لم يوجد إلا منذ قريب؛ أما العلوم العقلية، على عكس ذلك تعتبر ثمرة العقل الخالص؛ ويكفى أن ندرك مثلنا لكى نهتدى بطريق العقل إلى كل ما يتصل به من صفات خاصة. المؤلف.

يدخل ذلك فى حسابهم الا قليلا . لقد أصبح التاريخ فى عصرنا هذا علما من العلوم . أما القدماء ومن يقلدهم من الفرنسيين فى العصر الكلاسيكى فأنهم يرون فى التاريخ عملا فنيا قبل كل شيء ؛ ومن هنا يظهر الفرق بين طريقة القدماء وطريقة العصر الحديث .

١ — التاريخ البطولى

كان التاريخ قبل القرن التاسع عشر يقص الأعمال الصادرة عن كبار الرجال : كان التاريخ إذن ارستوقراطيا وبطوليا . وكان أمره شبيها بأمر الملاحم ، حيث يشغل المسرح أو المكان الأول فيه قادة الشعوب ؛ أما الشعب فلم يكن معروفا ، كما لم يكن له أثر إلا قليلا . ومما لا شك فيه أن أعمال رؤساء الشعب كانت اذ ذاك راجحه ؛ غيرأن هذه الأعمال لم تكن ذات أثر إلا بفضل المؤسسات الاجتماعية ، وبفضل الحالة العقلية والخلقية للمواطنين الذين وكلوا أمورهم إلى قيادة أولئك الرؤساء . ومن قبل قد فهم ذلك — بوسويه — و — مونتيسكيو — حينما درسوا أسباب عظمة الرومان وأسباب تدهورهم .

٢ — التاريخ الحربى

كان المؤرخون القدماء يحبون أن يتخذوا موضوعا لتاريخهم العصور التى حدثت فيها أحداث حربية هامه مثل الحروب التى كانت بين الأغريق والفرس ، وحرب البيلوبونيز . وكانوا يهملون العصور المعروفة بعصور الإعداد أو الانتقال ، التى لم يحدث فى خلالها ما يسترعى الاهتمام ؛ ومعلوم أن الحضارة تتكون ببطء وبدون ضوضاء . ان هذه الفترات الغامضه ، التى تمر بها المجتمعات ، تهم المحدثين بقدر ما تهمهم الأحداث القوية التى تزعزع أمر الدوله . إنهم يبحثون فى هذه الفترات عن الأسباب الخفية للحركات الكبيرة المفاجئة محاولين إدخالها هكذا فى إطار النظام وضمن قانون التطور . التاريخ القديم إذن هو على الخصوص تاريخ حربى : إن

الحروب الآن ، وقد صار حدوثها بنسب معقوله ، أصبحت معتبرة كأحداث فى حياة الشعوب ؛ بل إنها تكون فصلا فى سجل الحياة الاجتماعيه .

٣ — مظهر الحقيقة

يجر الاهتمام بالفن أمثال — توسيديد — و — تيت ليف — إلى تفضيل مظهر الحقيقة على الحقيقة فى أغلب الأحيان . فهم يؤلفون من صنعهم أحاديث من جميع الأشكال ، وهى عبارة عن مقتطفات خطابية يختصرون فيها أسباب الأحداث والدوافع الاحتمالية التى سبقتها ؛ كأن يكون ذلك خاصا بإعلان حرب أو ضد إعلانها ، أو بتشريع قانون أو ضد تشريعه ، أو باصدار قرار أو ضد هذا الأصدار .

وهكذا يتخيل - توسيديد - الصور الأصلية من الخطب وما قيل ضدها بشأن سؤال ما : إحدى هذه الخطب تؤيد الموضوع والأخرى تنقض نفس الموضوع . ولو أن خطبة ما قد قيلت فان المؤلف يحتفظ منها بالمعنى إن كان فى إمكانه أن يلم به ؛ وإلا فإنه يفترض الأفكار التى كأنها نفس الأفكار فى الخطبة آخذا فى اعتباره شخصية الخطيب وما لازمه من مواقف ؛ وهو لايكاد يلتزم أبدا بذكر نفس الكلام الذى صدر عن الخطيب . إنه يعير إلى أفكار الآخرين تعبيره الشخصى لاهتمامه بالمحافظة فى تأليفه على الوحدة فى القوة وفى الأسلوب : وهذه الخطب ، فى الحقيقة ، تقدم صورة صادقة عما كان يدور من مناقشات فى « الأغورا » ، وفى تلك الاجتماعات ، حيث كان الكلام يلعب دورا بالغ الأهميه ؛ ولكن هذا لا يتفق وأذواقنا الحديثة بالنسبة للتحرى والضبط . وبمثل ذلك كانوا يروون الأحداث لا كما حدثت فى الواقع ، بل كما كان ينبغى أن تحدث ، لو أن الأمر يتعلق بعصور أو بأحداث بعيدة المدى وليس لدينا الوثائق بشأنها . كان اهتمامهم بايصال الحقيقة إلى القارىء أقل من اهتمامهم باستهوائه وايقاظ اللذة فى نفسه . وهاهو ذا - تيت -

ليف ـ قد ألف معركة « هوراس(١) » فى شكل قصة دراماتيكيه ، ولم يصنع فيها ـ كورنى ـ أكثر من أنه اقتطع منها الأجزاء الرئيسية ليؤلف منها فصول مسرحية تراجيديه . وفى الأوصاف . التى ذكرهـا ـ تيت ـ ليف ـ نجد نفس الاهتمام بالتأثير على الخيال . ووصفه لتخريب مدينة ـ الألب ـ(٢) ليس سوى صورة من صنعه أو مران حقيقى على القواعد البيانيه صادر عن شخص عبقرى بالنسبة لهذا الموضوع المتعارف ، وهو : تخريب مدينه :

سكون رهيب وخراب مقبض قد شلا حركة السكان جميعا حتى لم يعد فى الأمكان وهم فى هذا الذعر ، التفكير فيما يلزمهم أن يتركوه وفيما يلزمهم أن يحملوه معهم ؛ ولما أعيتهم الحيله أخذوا يتساءلون فيما بينهم ؛ فطورا تراهم وقوفا على أبوابهم، وطورا آخر تراهم يهيمون على وجوههم خلال مساكنهم لكى يلقوا عليها آخر نظرة منهم . وبعد ذلك كان صوت الفوارس يتعجلون الرحيل ؛ وكانت قرقعة البيوت المنهارة تسمع فى أبعد الأحياء ، كما كان مثار النقع يرتفع من الجهات النائية فيكون سحبا تحجب كل شيء . وأخذ كل إنسان يحمل فى سرعة خاطفة كل ما يستطيع أن يحمله معه من أشياء تاركا خلفه تماثيل آلهته وبيته الذى ولد فيه وترعرع تحت أسقفه . وكانوا ، وهم فى رحيلهم ، أشبه بخيط غير منقطع من المهاجرين الذين يملؤن كل الطرق(٣) . »

ها هى ذى عبارات مؤثرة حقا ؛ ولكن هذه العبارات ليست إلا من صنع الخيال

(١) هوراس ؛ اسم لأخوة ثلاثة من الرومانيين . وهم الذين تصدوا لقتال الأخوة الثلاثة المعروفين باسم – كورياس – كان هؤلاء يمثلون سكان مدينة – ألب – وأولئك يمثلون سكان مدينة روما . وكل ذلك ليس ثابتا تاريخيا ولكنه ضمن الأساطير . المترجم .

(٢) هى أقدم مدينة فى منطقة – لاسيوم – ؛ وقد أسسها إينيه ؛ وهذا من الأساطير أيضا . المترجم .

(٣) الكتاب الأول الفصل التاسع والعشرون L. I· Ch. XXIX.

وحده ، ومن الممكن أن تنطبق على كل الظروف المشابهة . وفى وصفه المستفيض لجبال الألب ، التى يحتمل أن يكون قد رآها ، ولكن عن بعد ، لا يزال الناس يتناقشون أيضا فى تحقيق المكان الذى مر منه هانيبال(١) ؛ ذلك لأن التفاصيل التى ذكرها - تيت - ليف - عن هذا المكان فى غاية الغموض .

٤ - التاريخ الذى من شأنه التهذيب

كان المؤرخون القدماء يهدفون إلى غرض سياسى أو أخلاقى . فتوسيديد و - بوليب - (٢) - كانا يكتبان موضوعات تتيح لرجال الحكم أن يجدوا فيها دروسا فى الأداره ؛ كما كان - ساللوست(٣) - و - تيت - ليف - و - تاسيت - ينقبون فى الماضى عن دروس فى الوطنيه . وفى فرنسايرى - بوسويه - فى تاريخ الأنسانية مادة للتفكير فى الخلاص من الويلات . وكان الأمر بالنسبة له ، كما كان بالنسبة لفينيلون من بعده ، هو أن التاريخ « يرينا الأمثلة الكبرى فيستخدم رذائل الأشقياء فى أصلاح أهل الخير(٤) . »

أما المحدثون فلهم وجهه نظر أخرى ؛ إذ أنهم يدرسون ويشرحون جهاز المجتمع . فتين « يكتب لهواة معرفة الحياة الأخلاقية ولمن يتجه تفكيرهم إلى العلوم

---

(١) هانيبال ؛ تقدم الكلام عليه فى ص ٤٦ .

(٢) بوليب ؛ مؤرخ يونانى . ولد فيما بين سنتى ٢١٠ ، ٢٠٥ ق. م ؛ وقد أخذ كرهينة فى يد الرومانيين حيث مكث فى روما ١٦ سنة . ولعله أهم مؤرخ قديم ؛ وقد كتب تاريخا عاما بالنسبة لعصره فى عدد كبير من المجلدات ؛ ولكن لم يبق منه سوى خمسة مجلدات ؛ مات حوالى سنة ١٢٥ ق. م. المترجم

(٣) ساللوست ؛ مؤرخ لاتينى ، ولكنه كغيره من المؤرخين اللاتينيين يعتبر أديبا فى أسلوبه وفى كتاباته وهذا ما يميز الكتابة التاريخية فى العصور القديمة عن نظيرها فى العصور الحديثة ؛ ولد سنة ٨٦ ق. م. وتوفى سنة ٣٤ ق. م. وله مؤلفان فى التاريخ : أحدهما عن حياة « جيجورتا » ؛ والثانى عن مؤامرة « كاتلينا » . المترجم

(٤) Lettre sur les occup. de l'Academie, fraancise, Ch. VIII.

الطبيعيه (١) ، ولكن ألم نبالغ فى المضى بعيـــدا فى هذا المنهج الجديد ؟ ألا يبدو من جانبنا أننا نفرط فى التمسك بهذا المنهج حينما ننكر على التاريخ وظيفته التهذيبية ، وحينما نطرح جانبا الخدمات المخلصة العظيمه والتضحيات الكبيرة التى كانت سببا فى نشأة الشعوب ؟ إن قصص المعارك ، على الخصوص ، فضلا عن دروس الاستراتيجيه التى تحتوى عليها ، تعرفنا كيف نموت من أجل أوطاننا . وهذا المنظر فضلا عما فيه من نبل وتشجيع ، يعتبر أحسن من منظر التبدل والتغير الذى يمر فيه الحيوان الناطق ، وبدلا من التوسع فى طريقة القدماء البالغة السمو فى المثالية والأخلاق ، والشديدة القابلية لأن تتمشى مع الحقيقة والعلم فأننا نجد اتجاها فى ازدياد مستمر إلى الاستعاضة عنها بطريقة ماديه وضيعه تصلح لاشباع رغبة متأججة ، ولكنها لا تستطيع خلق رجال أو مواطنين .

قد يكون من الخطأ أن نستنتج من الملاحظات السابقة أن معرفة التاريخ بمعناه العلمى كانت غريبة على القدماء ؛ فهذه المعرفة ، لدى ـ توسيديد ـ تبدو اضحة إلى حد كبير ، بل إنها مطبقة عنده تطبيقا تاما (٢) . ويهتم ـ بوليب (٣) ـ وهو كاتب مكروه ، ولكنه يعتبر من أعظم المفكرين فى العصور القديمه ، بالدور الذى تلعبه

---

(١) La REvolution, t. III : Le gouvernement revolutionnaire. préface, p. IV.

(٢) يبدو هذا فى عنايته الشديدة بالبحث عن الحقيقة ، التى حملته على اختيار موضوع من عصره حيث كانت تتوفر لديه معلومات أكيده ؛ وفى استصغاره لشأن الأساطير ؛ وفى إحساسه النقدى الذى جعله يقلل من شأن حرب طرواده ويصيغها فى قالب حملة عاديه (١ . I)، وفى ملاحظاته على مصادر الثروة والاقتصاد اليونانى (I.١) ؛ وفى احتقاره للأشياء التى لا يقصد منها سوى الظهور والأبهه ، ورغبة فى أن يضيف إلى العلم ثروة أكيده ؛ وأخيرا فى فلسفته المتصلة بالتاريخ مثال ذلك : البحث عن أسباب الأحداث ، والجهد العظيم الذى كان يبذله بالنسبة للأسباب الخلقية وللذكاء الأنسانى . (المؤلف) .

(٣) بوليب (انظر ص ٥٣ من هذا المجلد .

الادارات والمؤسسات الاجتماعيه ؛ فهو مؤلف قديم ولكن بمناهج حديثه .

وخلال القرن السادس عشر فىفرنسا عمل أمثال- باسكييه (١) Pasquier- و- فوشيه (٢) - Fauchet كما عمل فى خلال القرن السابع عشر والثامن عشر أمثال - دو كانج - Du Cange(٣)وأمثال- لينان دىتيلمونت- Lenain De Tillemont(٤)- ورجال الدين من البينيديكتان والأوراتوريان والجزويت ؛ عمل كل هؤلاء على استخراج الأحداث القديمة لتأكدهم من أنه لا يمكن التأليف فى التاريخ إلا إذا درست الوثائق دراسة مفصلة وفى أناة وصبر . وأول مثال من أمثلة العرض التاريخى العلمى الشديدالعنايه هوما اعطاه - بوسويه - Bossuet - بعداطلاعه على الوثائق الصحيحه فى كتابه العظيم المعروف باسم - Histoire Des Variations Des Eglises Protestantes. (٥) . وكتب - فينيلون - خطابه عن مشاغل الأكاديميه الفرنسيه حيث حاول أن يرسم فيه للتاريخ منهجا أصيلا وحديثا فى كثير من الاتجاهات ؛ فهو يطلب أن نعرف بالضبط « شكل الحكومه » و « شرح العادات

---

(١) باسكييه هو احد رجال القضاء المعروفين فىفرنسا خلال القرن السادس عشر وقد كتب دائرة معارف تحت عنوان - Recherches sur La France - ولد سنة ١٥٢٩ م ومات سنة ١٦١٥ م المترجم

(٢) فوشيه - Fauchet - مؤرخ فرنسى معروف ولقد اتخذ كتابة التاريخ كمهنة اذ كان يكتب لحساب الآخرين ولد سنة ١٥٣٠ م ومات سنة ١٦٠١ م. المترجم

(٣) Du Cange - عالم من علماء فرنسا كان ملما باللغة إلماما عظيما ومن اجل ذلك فقد الف قاموسا لغويا خاصا باللغة اللاتينية فى عصرها المتوسط والاخير ولد سنة ١٦١٩ م ومات سنة ١٦٨٨ م . المترجم

(٣) Lenain de Tillemont - احد المؤرخين فىفرنسا ولكن تأليفه فى هذه الناحية كان متجها الى التأريخ للأباطرة الرومانيين ولرجال الدين المسيحى : ويعرف له تاريخ الأباطرة فى القرون الستة الأولى بعد ميلاد المسيح ومذكرات يمكن استخدامها لمعرفة التاريخ الدينى ولد سنة ١٦٣٧ م. ومات سنة ١٦٩٨ م. المترجم

(٤) لقد وضح الاستاذ M. Rebelliau فى رسالته عن بوسويه مؤرخ البروتستانتيه - Bossuet Historien Du Protestantisme. مبلغ العناية التى بذلها بوسويه فى دراسته الأصلية لكل مايتصل بموضوعه من نصوص . (المؤلف)

شرحا مفصلا » والمؤسسات الأداريه و « منشأالاقطاعيات ، وخدمات الاقطاعيين وتحرير الارقاء ، ونمو الجماعات ، وتكوين الولاية الثالثة من الولايات الفرنسيه (١)، ووضع ميزانية الجيش على حساب الملك خاصة (٢) »وقد اتبع - مونتيسكيو - و - فولتير - هذا المنهج وأخذا فى اكماله حتى جاء القرن التاسع عشر فاتسع ووصل إلى درجة الكمال .

المقالة السادسه

الانواع المتفرعة عن التاريخ

إن للتاريخ فروعا عده : وهاهى ذى أهم تلك الفروع .

تاريخ حياة الاشخاص (Biographie)

إن هذا الفرع عبارة عن قصة تتناول حياة شخص من الناس . وحينما يكون هذا الشخص مثل قيصر أو لويس الرابع عشر ، بمعنى أن يكون له تأثير عظيم على مصير الانسانية فأن تأريخ حياته يعتبر جزءا من التاريخ بمعناه الصحيح ؛ إذ أن المؤرخ حينما يقص أعمال هؤلاء الاشخاص وماكان يصدر منهم يجد نفسه مضطرا لان يرسم صورة للشعوب التى كان يحكمها أولئك الاشخاص . مثال ذلك « حياة مشاهير الرجال » للمورخ - بلوتارك (٣) ، و حياه القياصرة الاثنى عشر » للمؤرخ

---

(١) كانت فرنسا تنقسم فى عهد الملكية الى ثلاث ولايات : ولايه النبلاء . ولايه رجال الدين ولاية غيرهما من الشعب (المترجم)

(٢) انظر الفصل الثامن .

(٣) بلوتارك ؛ كاتب اخلاقى ومؤرخ من كبار الكتاب اليونانيين، ولد فيما بين سنتى ٤٥ ، ٥٠ من الميلاد ، ومات حوالى سنة ١٢٥ م ، لقد درس فى أثينا أولا ثم انتقل الى آسيا والى مصر ليتم معارفه وخبرته واخيرا عاد الى روما ليكون المربى للامبراطور أدريان فى سن الحداثة وبعد ذلك رجع الى وطنه ليتولى اكبر منصب فى القضاء . وقد أثر عنه كتابان احدهما فى تاريخ مشاهير الرجال عند اليونانيين فى روما ، والثانى فى الاخلاق . . المترجم

سويتون (١) - . فيما مضى كانوا يتخيرون أبطالا مغمورين كقسيس بسيط من القرى ، وكأحد رجال القضاء ، وكجندى من رجال الجيش .

وفى مثل هذه الموضوعات يندر التحدث عن الحوادث السياسية والاجتماعيه ؛ ولو وجدت فرصة لهذا يكتفى على الأكثر بمجرد الأشارة إليها .

قد يأخذ هذا النوع من التاريخ فى بعض الأحيان صورة إفضاء بسر أو اعترافات ، حيث يشرح لنا نفس الكاتب مواطن الزهو والشرف بالنسبة لشخصه . وقد ذكرنا من قبل على أى صورة يجب أن نفكر بالنسبة لهذا النوع من التاريخ الذى لا تقبل وقائعه إلا بعد إحصاء وحساب .

المذكرات

هذا النوع من التاريخ يشبه تقريبا النوع السابق ؛ يمكن أن يطلق عليه أيضا اسم « يوميات » او « ذكريات » . وهنا يقص الكاتب الحوادث التى كان هو فيها البطل الرئيسى أو التى قام بها غيره ولكنها كانت متصلة به . وكان من نتيجة هذا النوع كتاب - الأناباز(٢)- Anabase للمؤرخ - كسينوفون -(٣) Xenophon - و«التعليق على حرب الغاليين والحرب الأهليه » لقيصر . ولقد كثرت كتابة « المذكرات » فى فرنسا ابتداء من القرن السابع عشر حتى العصر الحديث ، أى من وقت« مذكرات »

---

(١) سويتون ، هو احد المؤرخين اللاتنيين الذين كتبوا فى حياة القياصره وكتابه فى هذا الميدان يسمى تاريخ حياة القياصره الاثنى عشر الأوائل ، ولد نحو سنة ٦٩ م. وتوفى نحو سنة ١٤١ م. المترجم

(٢)،(٣) كسينوفون؛ مؤرخ وفليسوف وقائد حربى يونانى: ويعتبر فى نظر الكثير انه من من اشهر تلاميذ سقراط بدأت شهرته تدوى فى العالم القديم اثناء الحرب فى البلوبونيز حيث قاد بحكمة ومهارة الجيوش المنسحبة التى تعرف بالعشرة آلاف. وله مؤلفات أهمها كتابه - الأناباز - وكتاب تاريخى يسجل فيه حملة سيروس ضد ملك العزس - أرتحشاش- الثانى كما يسجل فيه أيضا إنسحاب الجيش من حرب البيلوبونيز وكان عدده ١٠٠٠٠ مقاتل وكلهم تحت امرته ولد سنة ٤٢٧ ق.م. ومات سنة ٣٥٥ ق.م. المترجم

دانجو ـ Dangeau (١) ـ و ـ سان ـ سيمون ـ Saint - Simon إلى وقت « مذكرات » القائد ـ ماربو (٢)ـ Marbot ـ وأخيرا « مذكرات » القواد الذين اشتركوا فى حرب سنة ١٨٧٠ (٣) .

الرسائل

وتعتبر الرسائل أيضا نوعا من « اليوميات » . وبعض هذه الرسائل تضيف إلى ما تقدمه من متعةأدبية فائدة تاريخيةعظيمه ؛ وذلك مثل رسائل ـ سيسرون ورسائل ـما دام دى سيفينيه ـ(٣) Madame De Sevigné ـ ،ورسائلـ فولتير ـ . إنها تكشف عما يدور فى زوايا مجتمع لانستطيع أن نعرف من أمره شيئا بطريق آخر ؛ وترينا بصراحة تامة عددا كبيرا من الشخصيات الهامه فى حياتها الخاصه .

وحينما يقوم أصحاب هذه الرسائل أنفسهم بدور سياسى أو اجتماعى ، كما هو الشأن بالنسبة ل ـ سيسرون ـ و ـ فولتير ـ فأن هذه الرسائل ، التى كتبت تباعا ، والتىأرسلت إلىصديق هومحل ثقة، تستطيعأن تكشفلنا عن السماتالحقيقيةلأخلاق من كتبوها ؛ فالرجل يبدو فيها طبيعيا ، بعيدا عن مشهد العالم ، معتكفا فى مكتبه ، خالعا عن نفسه كل رداء مصطنع . ومع ذلك فليس من الحيطة أن نثق بكل ما جاء

---

(١) Dangean — احد رجال الحاشية الملكية فى فرنسا ولكنه امتاز بعبقريته الادبيه وله هذا الخطاب المشار اليه ولد سنة ١٦٣٨ ومات سنة ١٧٢٠ م. المترجم

(٢) ماربو Marbot احد القواد المعروفين بالمهارة العسكرية والقدرة الأدبية ولد سنة ١٧٨٣ وتوفى سنة ١٨٥٤ م . المترجم

(٣) حرب سنة ١٨٧٠ ؛ هى عبارة عن الحرب التى كانت بين الالمان والفرنسين وقد استمر الالمان فى زحفهم حتى وصلوا الى باريس . ونتيجة ذلك ان اخذ الألمان منطقة الألزاس واللورين وكان حصارهم علىباريس شديدا وقاسيا حتى انالباريسيينا كلواالكلاب والقططوكادوايموتون جوعا . وقد دامت هذه الحرب سنة كاملة . . المترجم

(٤) مادام دى سيفينيه لعلها اشهر كاتبه فرنسية فى العصر الكلاسيكى وسببشهرتها فىهذا الميدانهو تلكالمجموعةالكبيرةمنالرسائلالتىكانتتكتبها لابنتهاولبعضصديقاتهاومعارفها. ولدت سنة ١٦٢٦ م. وتوفيت سنة ١٦٩٦ م. المترجم

فى هذه الرسائل ثقة عمياء ؛ إذ أننا هنا أيضا يجب أن نحتاط أمام هذه الثرثره .

وبعد فأن هذه الأنواع الثلاثه - رسائل ، مذكـــرات ، بيوجرافى - تفيض بالنوادر وبالتفاصيل الدقيقة ؛ وإذا هى روقبت كما ينبغى استطاعت أن تهيء لنا وسيلة قيمة يمكننا بواسطتها أن ندخل فى أعماق النفوس ، وأن نرسم صورة واضحة المعالم ، وأن نصف عصرا من العصور .

الأبحاث المستقلة — Monographie

يستطيع المؤرخ أن يجد عونا كبيرا ، كما يستطيع أن يمضى سريعا جدا فى عمله بواسطة هذه الأبحاث المستقله ، التى ليست سوى أبحاث تتصل بموضوع خاص من موضوعات التاريخ أو موضوع متصل بالتاريخ ؛ وذلك كالأبحاث التى تتناول تاريخ مدينة من المدن ، أو أثر من الآثار ، أو تتناول عادة من العادات ، أو تبحث فى مسألة اقتصاديه ، أو تعالج أمرا من أمور الاقتصـاد السياسى ، أو حادثة من الحوادث التاريخية التى بقيت غامضه ؛ من أمثلة ذلك البحث الذى عالج مسألة التسميم (١) فى أيام لويس الرابع عشر . وهذه الأبحاث قد كتبت فى أكثر الأحيان بواسطة علماء أو بواسطة أمناء على الوثائق (الدفترخانه) قد عرفوا بالأمانة واستقوا معارفهم من الوثائق الأصليه ؛ وإذا كان هذا شأن تلك الأبحاث فأنها تستطيع إذن أن تقدم ، بالنسبة لبعض الموضوعات الخاصة ، المعارف التى يمكن اعتبارها ممحصة ونهائيه .

---

(١) هى مجموعة من الحوادث الغامضة المروعة فى فرنسا اثناء حكم لويس الرابع عشر وقد نشأ ذلك من جانب بعض الساحرات اللاتى كن يشتغلن بالسحر وفى نفس الوقت كن يتسببن فى قتل بعض الناس تنفيذا لمآرب بعض الشخصيات وخصوصا شخصيات القصر . المترجم .

الفصل الثاني

الخطابه

المقالة الاولى

طبيعة الخطابة

تعتبر الخطابة فن الأقناع . فهى فن لأنهاخاضعةللقواعد الثابتة عن طريق العقل والتى تكون فى مجموعها أسس علم البيان .

الفرق بين الخطابة والبيان

إن موطن الخلاف بين الخطابة والبيان واضح ؛ فالخطابة فن استطاع الذكاء الأنسانى أن يحققه ويطبقه عمليا . أما البيان فهو علم نظرى عقلى ؛ والصلة بين هذا العلم وبين الخطابة تشبه الصلة بين الفنون الشعريه والشعر نفسه ، أو الصلة بين أرسطو (١) وهومير (٢) أو سوفوكل . مهمة البيان تحليل خطب الخطباء ومحاولة استنباط القواعد الرئيسية للخطابة وتأسيس بنائها . وفى هـذه الدراسة القصيرة والبحث المحدود الذى نقوم به الآن لا يمكننا التعرض لموضوع آخر فى هـذا الميدان (٣) .

---

(١) انظر ص ١٨ من المجلد الاول .

(٢) انظر ص ٣٥ من المجلد الاول .

(٣) كانت الخطابة عند القدماء اهم الفنون ولذلك كانوا يوجهون اليها اكبر عناية لممارستها والتعرف على أسرارها وقد برع فيها من القدماء من لايزال التاريخ حتى اليوم يخلد ذكراهم ويحفظلهم ما استحقوه من شهرة فىهذا الفن من القول مثل ديموستين عند الأغريق وسيسيرون—

أهمية علم البيان

كثيرا ما يفهم الناس من كلمة « بيان » معنى غير كريم ؛ فهم حين يقارنون بين الخطيب والعالم البيانى ترتسم فى أذهانهم صورة المقارنة بين الناظم والشاعر؛ وشبيه بذلك أيضا حينما يريدون أن يفرقوا بين تأليف يعتمد على العقل والذكاء وتأليف آخر يعتمد على الوصف والنقل والاحصاء ، أو بين الفن والمهنة ، أو بين الشخص موضع الثقة ، والشخص الموهوب ؛ ومع ذلك فمن الحقائق الثابتة أن علم البيان ليس فيه ما يشين ولا يستحق من الازدراء هذه الدرجة التى هوى إليها . إن هذا العلم يهيئنا تماما لإدراك الوسيلة التى ينبغى أن نسلكها فى سبيل الاقناع؛ إنه بمثابة العلم يحل محل الغريزه ، ويضيف إلى التجارب الشخصية تجارب الآخرين ، ويساهم فى تقوية المواهب الطبيعية ونضجها . ولن يصل الذكاء إلى نضجه الكامل بدون المعرفة العقلية للنماذج وبدون الدراسة العميقة لقواعد الفن (١) .

ومن جهة أخرى كيف يمكننا تذوق التفاصيل والدقائق فى خطابة - ديموستين(٢)

= عند اللاتنيين وعلى بن ابى طالب عند العرب .

كان الاغريق واللاتينيون بصفة خاصه ينظرون الى هذا الفن نظرة اجلال وتقدير، وكانوا يعتبرون الخطابة والبراعه فيها بمثابة السلم الذى يوصل الى ارقى مناصب الدولة . ومن أجل ذلك فقد كان التنافس شديدا بين الخطباء كما كان تأثير الخطيب الموهوب فى الجماهير أشبه شىء بتأثير السحر فى الافراد . ولقد حاول كثير من الكتاب المحدثين معالجة موضوع الخطابة من جميع نواحيه : الناحيه النظرية والناحيه العلميه أو الفنيه والناحيه التاريخيه ، والمراجع فى ذلك كثيرة ، نذكر منها هنا زيادة على ما كتبه مؤلفنا فى هذا الفصل - البحث الذى كتبه الاستاذ - M. Roustan - تحت عنوان - L, Eloquence - ومن القدماء الذين كتبوا عن الخطابه أيضا سيسرون وتاسيت .
وبالنسبة لأهميه هذا الموضوع قد أردنا بهذه النبذة ان ننبه القارىء إلى أن الموضوع واسع فعلى من يعنيه الأمر من القراء ان يبحثه فى غير هذا الكتاب . المترجم

(١) انظر : نظرية التأليف الأدبى لنفس المؤلف ص ١٠٠ - ١٠٢

(٢) ديموستين ، هو اشهر خطيب يونانى قديم كان ولايزال يضرب به المثل فى الخطابة والمثابرة وقد انخرط ديموستين فى معمعة السياسة فألهب الناس بخطبه الحماسية التى كان يلقيها فى اثينا مدة=

وسيسرون - و بوسويه (١) - إذا كنا نجهل نظام تأليف الخطبه ، وطبيعة البراهين المختلفه ، وطريقة عرض هذه البراهين ؟ إن الفنون جميعا ، سواء فى ذلك فن الخطابه أو فن المسرح أو فن الرسم ، لها اصطلاحاتها الخاصة المألوفة لدى كبار الفنانين ؛ وهذه الاصطلاحات تعتبر ضرورية بالنسبة للناقد إذا أراد أن يحكم على الانتاج فى هذه الفنون، لا كما يحكم الهواة الذين يرضون بالأحكام التقريبية والتقديرات العاميه ، بل كما يحكم أولئك الذين يحكمون العقل والمنطق ، ويذهبون فى تحليلهم إلى عمق الموضوعات . ومن الغريب أننا فى هذا العصر بما فيه من مزاعم علميه نعلن عن ازدراء علم البيان ، أى عن نفس العلم الذى يختص - بالبحث فى الخطابه(٢) .

= خمسة عشر عاما ضد فيليب ملك المقدونيين ووالد الاسكندر الاكبر ؟ وبقى يثير حماس الاثينيين ضد المقدونيين حتى مات فيليب وجاء من بعده الاسكندر ، وحينما قام الاسكندر بحملته الى الشرق اشرف على زمام الامور محله قائد مقدونى اسمه - انتيباتير - فاضمر شرا لديموستين ولكى يتخلص هذا الخطيب منه انتحر بأن تعاطى السم . وقد ترك مجموعه عظيمه من الخطب أهمها ما قاله ضد فيليب ومما يعرف عنه انه كان الثغ لايفصح فى الكلام ولكنه اخذ على نفسه بعزيمة قويه ان يعالج هذا الضعف فكان يذهب كل يوم الى البحر ويملأ فمه من الحصى ثم يمارس الكلام مع ذلك ، كما يروى ايضا انه كان صدره ضعيفا وصوته ليس بالقوى فكان يقف على صخرة فى شاطىء البحر وهو هائج ثم يلقى خطابه بصوت مرتفع لكى يتغلب على هدير الأمواج ويقوى صدره وصوته فى نفس الوقت حتى يمكنه التغلب على اصوات الجماهير حينما يعارضون خطابه . ولد سنه ٣٨٤ ق. م ومات سنة ٣٢٢ ق. م. المترجم

(١) بوسويه هو احد القسيسين الفرنسيين الذين اشتهروا بالخطابة الدينية الرائعة وقد اشتهر بخطب الرثاء التى كان يلقيها بعد موت الشخصيات البارزة . ولقد خدم الادب بلغته وأسلوبه كما خدم الكنيسة بآرائه . ولد سنه ١٦٢٧ م. ومات سنة ١٧٠٤ م. المترجم

(٢) فى مقال ظهر حديثا فى مجلة نجد بعض الافكار القيمة عن تدهور علم البيان وعن النتائج السيئة لهذا التدهور «انه من المفيد جدا لعالم البيان ان يعرف بالضبط تاريخ مولد إينيوس (وهو من اقدم الشعراء اللاتينيين ، ولد سنه ٢٤٠ وتوفى سنة ١٦٩ ق م. ومن اثاره الشعريه ملحمة ، وبعض المسارح من نوع التراجيدى وقد عرف بصعوبة أسلوبه وعدم سلامة لغته) . وان يكون فى استطاعته ان يذكر دون توقف من الذاكرة اسماء عشرين ممن الفوا فى القرن السادس عشر الذين لم يقرأ لهم ولن يقرأ ابدا لواحد منهم سطرا واحدا ، نقول ان هذا اكثر فائدة بالنسبة لعالم البيان من ان يعرف كيف يقوم برهانا فى خطبة من الخطب . ولهذا فإن الخطبة الفرنسيه لدى الشبيبة المدرسية تحظى بتقدير ونجاح لايمكن ان يعادلها فى ذلك سوى الشعر =

موضوع الخطابة

إن هدف الخطابة إنما هو الإقناع ؛ وينبغي التمييز بين الاقناع عن طريق العقل ، والأقناع عن طريق القلب؛ أو الشعور؛ فالأول عبارة عن يقين نظرى يأتى عن طريق العقل الخالص ؛ وذلك كيقيننا بانضباط شكل هندسى . والثانى عبارة عن يقين عملى مصحوب بعزم و تصميم. فالشخص المقتنع عن طريق العقل يقول « أنا أعلم » ، أو « يجب علىّ » ؛ أما الشخص المقتنع عن طريق القلب أو الشعور فأنه يقول « أنا أريد » .

وإذن فهدف الخطيب هو الوصول بالمستمعين الى درجة التصميم على العمل ، وحفز أولئك ، الذين يدركون ماتناوله فى خطابه من مبادىء على التقدم فى ميدان العمل . وبفضل الخطيب تتحول الأفكار إلى إحساسات ثم تتحول هذه الأحساسات إلى إرادة وتصميم .

المقالة الثانيه

الأقسام الكبرى :

يقسم أرسطو (١) الخطابة بالنسبة للموضوع الذى يتناوله الخطيب إلى ما يأتى :

= اللاتينى . هل يتفق هذا مع العقل ؟ وهل الافلاس فى فن المنطق يتمشى مع علم المنطق ؟ انه لمن الغريب أن يعنى المبان باستقصاء قوانين الخطابه حينما يكون دورها فى المجتمع ضعيفا تافها والآن وقد كثرت الفرص للمران على فن االخطابه واخذت قوة اللسان وهى أسمى شىء وأسوأ شىء فى نفس الوقت تتحكم فى العالم كما كان الشبان أيام - ديموستين - و - سيسرون - تقول الآن وقد حدث هذا نجد علم التربية يهتم اشد الاهتمام بأهمال اسرار القول . انهم يعلموننا الآن كيف نبتلع المعلومات لا كيف نتكلم . ومملكة اليوم انما هى فى لميدى المهرة من الثرثارين . La Science Sociale عدد مايوسنه ١٩٠٢ م .

Plus De Rhétoriqne , Par H. La Bordonniére , PP 454 - 455

(١) Rhetorique , 1. 1, Ch . 11.

أولا - خطابة الأبهة ؛ ومن أمثلتها الخطب التى تلق فى الأكاديمية الفرنسية؛ وموضوع هذا النوع من الخطابه هو الجمال والبحث عن متعة السامع .

ثانيا : الخطابة السياسية ؛ وهدفها بيان ماهو مفيد أو ضار بالنسبة للدولة .

ثالثا : الخطابة القضائية أو المدنية ؛ وهى التى يحاول المترافعون فيها أن يبرزوا الأفكار المتصلة بالعدالة أو الظلم .

رابعا : الخطابة الدينية ؛ وهى التى تحاول أن تحمل المستمعين إلى كل ماله صلة بالقداسة والدين .

وهذا النوع لم يذكره أرسطو، ولكنه لو أدرك المسيحية وعاش فى عصر القديس بازيل - Bazile (١) - والقديس - جان - خريزوستوم - Jean chrysostome (٢) لما ترك هذا النوع الرابع .

وقد أراد بعض المحدثين أن يضيفوا إلى الأنواع المتقدمة نوعا خامسا هو الخطابة الحربية : ولكن هذا النوع فى الواقع يمكن إدخاله ضمن الخطابة السياسية . وهذ التقسيم يمكن اعتباره مستوفيا لانواع الخطابة على شرط ألا نكون متشددين فى تتبع دقائق الأنواع . وهنا كما فى سائر الفنون نجد أن هذه الانواع تتداخل فيما بينها بالنسبة لبعض النقط فالخطيب السياسى يستطيع أن يضيف إلى هدفه الأساسى وهو مصلحة الدولة بعض الاعتبارات الاخرى التى تقوم على الشرف ،وعلى الجدارة الخلقية ، وعلى العدالة . وكذلك المحامى ، وهو يستند على مسألة العدالة ، يستطيع أن يلجأ إلى مصلحة الشعب ليأخذ منها أدلته وبراهينه . وفى الدفاع الذى قام به -

(١) هو احد آباء الكنيسه اليونانيين ،كان اسقفيا القيصريه ، وله شهرة واسعه بالنسبه لمؤلفاته المتصلة بالدين والاخلاق . عاش من سنه ٣٢٩ الى سنه ٣٧٩ م. المترجم

(٢) كان يطلق عليه ايضا - جان ذو الفم الذهبي - وهو ترجمة الكلمه اليونانيه - خريسوستوم وهو ايضا من آباء الكنيسه ، وكان بطريقا فى القسطنطينيه . وقد اشتهر بقدرته الفائقه فى الخطابه ومات تعذيبا بواسطه الامبراطورة - اودوكس عاش من سنه ٣١٧ الى سنه ٤٠٧ م. المترجم

ديمو ستين ـ ضد ـ ميدياس نجده ، بعد أن شاد بحرمة المواطن ورجل القضاء يطلب فى إلحاح عند ختام قوله رعاية هذه المسألة : إنه لما يعنى الجميع الا يترك إنسان مهما كانت عظمة مكانته فى المجتمع ، بدون عقاب اذا كان سفيها أو فظا غليظ القلب وإلا فستنهار القوانين وسينهار تبعا لها كل ماهنا لك من ضمانات شخصية .

أولا ـ خطابة الابهه أو الاكاديميه

لقد نشأ هذا النوع من الخطابة فى اليونان مع نشأة ـ جورجياس (٢) ـ ونشأة السوفسطائيين ؛ وقد أصطلح المحدثون على تسمية هذا النوع بالخطابة الاكاديمية . وكل عنايتها متجهة إلى متعة الفكر والاذن ، وذلك بواسطة ماتعتمد عليه من أفكار خلابة واختيار موفق للتعبير وانسجام موسيقى فى الاسلوب . وهى تحتوى على الاغراض الاتية :

١ — المدح

وهنا كان يتجه الثناء إلى أشخاص من عالم الاساطير أو إلى أشخاص حقيقيين . وكانت الخطب التى تقال فى هؤلاء الاشخاص تتصف تارة بالرزانة ، وتارة أخرى تنقض فى بساطة ماهو معروف عن أولئك الاشخاص وتشغل الذهن بما تحتوى عليه من تلاعب بالالفاظ والمعانى .

٢ — ذكر المآثر

كان هذا النوع يعد عند اليونانيين ليقرأ فى المحافل اليونانية العامة ، وكان يعالج

---

(١) جور جياس ؛ هو من أوائل السوفسطائيين اليونانيين . كان مولده فى صقليه ومارس فن القول بمهارة فائقه حتى استطاع هو وزملاؤه السوفسطائيون أن ينكروا الحقائق المجرده ويعزوا كل شيء الى بلاغة القول وحسن صياغة الحجج والبراهين . ومما يذكر عنه أيضا أنه كان استاذا لثوسيديد . ولد سنه ٤٨٥ ق٠م ومات سنه ٣٨٠ ق٠م المترجم

بعض المسائل السياسيه أو الأخلاقيه . وأهم أثر عرف من هذا النوع هو « مآثر أثينا » ، الذى الفه - إيسوقراط (١) - ثم قرأه بنفسه فى الألعاب الأوليمبيه التى أقيمت سنة ١٨٠ قبل الميلاد .

وفى روما كان الخطباء اللاتينيون يذكرون مآثر الأباطرة حتى وهم أحياء ؛ وكان هذا نوعا من الرياء يستغل فى الملق . وأول من شق هذا الطريق من اللاتينيين هو - بلين الصغير (٢) - ؛ وذلك فى كتابه - بانيجيريك - Panégirique - عن - تراجان(٣) - ؛ ثم تبعه فى هذا جمع من علماء البيان الغالبين ، الذين كتبوا بالتوالى عن - ديوكليتيان (٤) - و - كونستانتان (٥) - و - جوليان الأبوسطاط (٦) - و - تيودوز(٧) - .

٣ - المراثى

كانت المراثى فى اليونان تلقى فى حفل رسمى معد لتكريم المحاربين الذين وقعوا صرعى من أجل الوطن . وكانت هذه المراثى تتميز بالطابع القومى ، كما كانت أيضا ترفع من شأن الوطن . وها نحن أولاء نرى ، فى تاريخ - توسيديد - (٨) - ، -

---

(١) ايسوقراط ؛ خطيب يونانى من أثينا ؛ وكانت رسالته التى دافع عنها بخطابته هى الدعوى إلى اتحاد اليونانيين جميعا ضد الفرس وفى سبيل ذلك الهدف كان يدعو أيضا الى التحالف مع مقدونيا. غير أن الحوادث برهنت على خطأ تقديره فدخل فيليب فى حرب ضد الأثينيين تم انتصر عليهم؛ وقد حز ذلك فى نفس إيسوقراط وأبت نفسه أن يعيش تحت استعباد مقدونيا فترك نفسه بدون طعام حتى مات . ولد سنة ٤٣٦ ق.م ، ومات سنة ٣٣٨ ق. م. المترجم .

(٢) بلين الصغير ؛ سمى بالصغير لأن له عما أو خالا كان يسمى - بلين القديم - ؛ وهو من الأدباء الرومانيين ؛ وله من المؤلفات مجموعة من الرسائل تلقى ضوءا على عادات القدماء وأخلاقهم، ثم مؤلف آخر عن مآثر تراجان . ولد سنة ٦٢ م ومات نحو سنة ١٢٠ م. المترجم

(٣)،(٤)،(٥)،(٦)،(٧) هؤلاء جميعا أباطرة رومانيون وتاريخهم حافل معروف ؛ والذى يعنينا هنا معرفته هو أنهم كانوا موضوعا لذلك الثناء المتطرف . المترجم .

(٨) توسيديد ، من أكبر مؤرخ يونانى بمعنى الكلمه ، وتاريخه عن حرب البيلوبونيز =

بيريكليس(١) - يؤبن الجندالذين قتلوا فىالسنة الأولى من حرب البيلوبونيز (٢) . وقد اكتشف فى خلال القرن التاسع عشر بعض أوراق البردى المصريه التى تسجل جانبا كبيرا من مرثية أخرى ألفها - هيبيريد (٣) - ليرثى بها الأثينيين الذين ماتوا أمام - لاميا(٤) - فى سنة ٣٢٣ .

وفى روما وجدت هذه المراثى أول ما وجدت فى العصور الأولى من الحكم الجمهورى؛ فقد قال -فاليريوس پوبليكولا(٥) - مرثية من أجل- بروتوس (٦) -

---

-يعتبر مثلا أعلى فى تتبع الأحداث تتبعا فلسفيا وبدون تحيز ، ويمتاز هذا التاريخ بعد ذلك بأسلوبه الموجز الرائع وبقصصه السريع المفعم بالحوادث وبعبارته القوية السليمة . ولد نحو سنه ٤٦٠ ق. م ومات نحو سنة ٣٩٥ ق. م. المترجم .

(١) بيريكليس ، هو من مشاهير الرجال فى أثينا ،كان رجلا من رجالات الدولة ، وخطيبا من الخطباء البارزين . صار فى سنة ٤٥٩ق. م رئيسا للحزب الديموقراطى فى أثينا فأصلح كثيرا من أمور الشعب وأجرى كثيرا من الأصلاحات وعمل علىتوسيع مستعمرات أثينا وتقوية أسطولها فى البحر . وهوالذى نفىتوسيديدبعيدا عن أثينا . ولد سنة ٤٩٩ق مومات سنة ٤٢٩ ق.م . المترجم

(٢) حرب البيلو پونيز، هىعبارة عن الحرب التى حدثتبين اسبارطه وأثيناودامت نحوامن ٢٧ سنه من سنة ٤٣١ ق . م إلى سنه ٤٠٤ ق . م ؛ وهذهالحرب تنقسمإلى ثلاث فترات، الفترة الأولى من سنة ٤٣١ — سنة ٤٢١ وانتهتهذه الفترة بصلح بين المتحاربين بعدأنخرب كل فريق مدن الفريق الآخر ، وبدأتالفترة الثانيهفىسنة ٤١٦ ق. م وانتهت فىسنة ٤١٣ ق . م بهزيمة الأسطول الاثينى فى صقليه ، وبدأت الفترة الثالثه فى سنة ٤١٢ ق . م حيث ينتصر الأثينيون أول الأمر ثم يقوى عزم الاسبارطيين بعد ذلك بمساعدة الفرس فيتقدمون وينتصرون على الأثينيين وتنتهى هذه الحرب بأن يفرضالاسبارطيون على الأثينيين حكومة موالية لهم سميت حكومة الثلاثين من الظلمه ، وانتهت هذه الفترة سنة ٤٠٥ ق . م . المترجم

(٣) هيبيريد ، هو خطيب أثينىأيضا عاصر ديموستين وشاركه فى مواقفه السياسيه ، غير أنه بقى حتى جاء - أنتيباتير - فأمر بأعدامه سنة ٣٢٢ ق . م المترجم.

(٤) لاميا ، مدينة يونانية تقع فىمنطقة - تيسالى - ، وسببشهرتهاأنها كانت ميدان الحرب بين الأثينيينوالمقدونيين بعدموتالأسكندر الأكبر ؛ و باسمهاسميت تلك الحرب . المترجم .

(٥)،(٦) فاليريوس پوبليكولا ؛ هوأحدالمؤسسين للجمهورية الرومانيةالتى سبقت عهد-

أمام جمعية الشعب . وبعد ذلك أخذ نظام المراثى طابعاً خاصاً ؛ إذ أن واحداً من أقارب المتوفى ، والده أو ابنه ، كان يعد الوظائف التى شغلها الميت ؛ كما كان يعد انتصاراته وما يتحلى به من صفات (١) . كان ذلك بمثابة صفحة من تاريخ الأسره ؛ وكان مقدراً لهذه المرثية أن تسجل ثم تضم إلى سائر الأوراق الخاصة بالاسرة لكى تحفظ ضمن سجل الاسرة العام فى ذلك المكان الخاص بذلك - أتريوم - فى كل بيت من البيوت . ومن أمثلة ذلك ما صنعه قيصر حينما رثى عمته جوليا ، وزوجته كورنيليا ؛ وكما صنع انطونيوس حينما رثى قيصر ، وأوغسطس حينما رثى ابن أخيه - ماسيللوس وتيبير حينما رثى أوغسطس ، وكاليجولا حينما رثى تيبير ؛ وأخيراً كما صنع نيرون حينما رثى كلود .

٤ — التمرينات المدرسية

قد اعتاد السوفسطائيون وعلماء البيان من اليونانيين أن يؤلفوا خطباً يقصدون من ورائها أن يصفق لهم المعجبون فى حفل من الناس وأن يستخدموها كنماذج بالنسبة لتلاميذهم . وقد ترك لنا أفلاطون مجموعة من هذه الخطب ألفها هو مقلداً فيها السابقين ، ففى كتابه « الوليمه »(١) نجد « خطبة أغاثون » حيث قلد فيها طريقة

= الامبراطوريه ، وكان يشاركه فى تصريف شئون الجمهورية بروتوس - ، وقد اشترك معاً فى وظيفة القنصلية لهذه الجمهورية سنة ٥٠٩ ق . م وهى السنة الثانية بعد نشأة الجمهورية الرومانيه . المترجم

(١) كانت جنازة الشخصيات الكبيره تقف فى الميدان العام من روما ، الفوروم ، حيث تقال المراثى (المؤلف)

(٢) الوليمه — le Banquet ، هذا الكتاب هو من الكتب المشهورة لأفلاطون . وهو عبارة عن حوار يدور حول الحب فيتناول الجمال الجسمانى ثم ينتقل الى الجمال الروحى ، ومن ذلك كله ينتهى الى الجمال المطلق أو الى فكرة الجمال المطلق الأبدى . وفى هذا الحوار يرسم أفلاطون صورة رائعة لسقراط . المترجم

- جورجياس(١) - وفى كتابه - فيدر - قلد - ليزياس(٢) .

وكذلك وجدت هذه التمرينات فى روما ، ولكنها أخذت اسما آخر فكانت تدعى « ديكلاماسيونيس - Declamationes » ، وكانت تحتوى ضمن ما تحتوى ، على المناظرات ؛ وكانت تتصل بنوع الخطابة السياسية والمناقشات العامة ، كما كانت تتصل بنوع الخطابة القضائية والمسائل المدنية . وكانت فى جملتها عبارة عن جدال حول موضوعات خيالية . وأول ما عرفت هذه التمرينات عند الرومان كان فى زمن سيسرون ثم نمت وانتشرت بسرعة بعد ذلك .

الخطب الاكاديمية

خطابة الأبهة أو الخطابة الأكاديمية فى فرنسا توجد فى أكاديمياتها، وعلى الخصوص فى الأكاديمية الفرنسية (٣) ؛ ومن هنا نشأت تسميتها بهذا الشكل . وهى تشتمل على الأنواع الآتية :-

١ - الخطب التى تقال فى الاستقبال .

٢ - الأحاديث الموجزه التى يلقيها السكرتير الدائم يؤبن فيها الأعضاء الذين

---

(١) جورجياس : انظر ص ٥٦ من هذا المجلد .

(٢) ليزياس ؛ هو أحد الخطباء الأثينيين المشهورين وكان من أشد الحانقين على حكومة الظلمة الثلاثين ، وتمتاز خطابته بالوضوح وجمال الرونق ، والصفاء الذى هو من لوازم منطقة الأتيك . ولد حوالى سنة ٤٤٠ ق . م وتوفى حوالى ٣٨٠ ق . م . المترجم

(٣) عرفت أول أكاديمى فى اليونان ؛ هى عبارة عن المدرسة التى كان أفلاطون يدرس فيها اراءه ومذاهبه الفلسفية ، ويوجد فى فرنسا الآن خمس أكاديميات هى : الأكاديمى فرانسيز Academie Française التى أسست فى سنة ١٦٣٥ و Acad. des inscriptions et Belles-lettres التى تأسست سنة ١٦٦٣ م ، و Acad. des Sciences التى تأسست سنة ١٦٦٦ م و Acad. des Sciences morales et politiques التى تأسست سنة ١٧٩٥ و Acad. des Beaux-Arts وكانت الأخيرة ذات أقسام مختلفة ولكنها ضمت الى بعضها فى سنة ١٧٩٥ م . ولكل واحدة من هذه الخمس ٤٠ عضوا يقبلون بالانتخاب وواحد أو أكثر من السكرتيرين الدائمين إلا ال Academie des Sciences - فعدد أعضائها ٦٦ عضوا واثنان من السكرتيريين الدائمين . المترجم

فارقوا الحياة ؛ ومن هذه الأحاديث يوجد لدينا سجل حافل قد جمعه ـ فونتنل(١)ـ تحت عنوان «رثاء الأكاديميين من الأكاديمية الملكية للعلوم، الذين ماتوا منذ سنة ١٦٨٩ م».

٣ ـ الموضوعات التي طرحتها الأكاديمية لتكون موضوع مسابقة في فترات معينة . وفي بعض هذه الموضوعات يوجد ما يتصل بالثناء على شخصية من الشخصيات البارزة .

من ذلك المسابقه التي كانت بين (٢) ـ La Harpe . ـ و ـ القس موري (٣)ـ Maury ـ من أجل الثناء على ـ فينيلون ـ ؛ وفي بعضها الآخر نجد موضوعا يتصل بالأدب أو بالأخلاق. من ذلك المسابقة التي فاز فيها ـ La Harpe ـ بالجائزة الأولى، ـ جايار ـ (٤) Gaillard ـ بالجائزة الثانية ؛ وموضوع هذه المسابقة : « شقاء الحرب وفوائد السلام ـ des malheurs de la guerre et des avantages de la paix .

٤ ـ الخطب التي ألقيت من أجل جوائز « الفضيلة » أو جوائز ـ مونتيون (٥)ـ montyon ـ ؛ وتعطى هذه الجوائز لأحد الأكاديميين يقص أعمال البذل التي يقوم

---

(١) فونتنل ، هو أحد رجال الادب الفرنسيين وكان يمت الى كورني بصلة القرابة ، عين سكرتيرا دائما لأكاديمية العلوم ، وقد أتاحت له هذه الوظيفة فرصة تأبين من يموت من أعضاء الاكاديمية ، وله غير هذه المجموعة من الرثاء مؤلف آخر تحت عنوان: entretiens sur la pluralité des mondes ولد سنة ١٦٥٧ ومات سنة ١٧٥٧ م . المترجم

(٢) La Harpe شاعر وناقد فرنسي ؛ ألف كتابا في الادب عن القرن السابع عشر . ولد سنة ١٧٣٩ ـ ومات سنه ١٨٠٣ . المترجم

(٣) القس موري – Maury هو أحد الكرادله الفرنسيين ، واشتهر بالخطابه ؛ وألف في ذلك كتابا أسماه « الخطابه الدينية . ولد سنة ١٧٤٦ م . ومات سنة ١٨١٧م . المترجم

(٤) جايار – Gaillard رسام ونحات فرنسي ولد في باريس سنة ١٨٣٤ م ، ومات سنة ١٨٨٧ م المترجم .

(٥) هو أحد البارونات الخيرين في فرنسا ، وقد امتاز بإنشاء عدد من الجوائز في موضوع الفضيلة والادب ؛ وكانت تصرف هذه الجوائز في كل سنه . ولد هذا البارون في باريس ، وعاش من سنة ١٧٣٣ إلى سنة ١٨٢٠ م المترجم

بها الأبطال المغمورون من أجل عمل الخير . وكان الطابع الغالب على هذه الخطابة الأكاديمية البيان الأجوف أو البيان المصطنع . وفى خلال القرن الثامن عشر قد برز فى هذا الميدان - سوار - (١) Suard - و - توماس(٢) Thomas - و - القس مورى - L'ABBÉ MAURY .

ثانيا - الخطابة السياسية

لا يقتصر دور الخطابة السياسية على متعة العقل ولذة الأذن فحسب ؛ إذ أن الخطيب فى هذا النوع يجد نفسه أمام واقع ملموس ؛ فمن واجبه إذن أن يستحث الارادة ويستثير العزيمة إما لمنع حرب أو للاقدام عليها ؛ وذلك وفقا لما يتطلبه الوطن من شرف أو أمن ؛ وإما لأخذ الاصوات من أجل انتخاب قانون أو لمعارضة هذا القانون ؛ وذلك وفقا لما ينطوى عليه ذلك القانون من عدالة أو ظلم ، ومن نفع أو ضرر . وهذه كما نرى ، موضوعات نبيلة وخطيرة فى نفس الوقت ، جديرة بأن تلهم الخطيب أجل إلهام وأن تهز روحه هزا أمام نسمات الوطنية والعدالة والحرية ؛ وفيه أيضا يجد الفرصة لاستغلال كل الامكانيات بالنسبة للخطابة المركزه والعقيدة المتأججة لكى يصل إلى هزيمة منافسيه الخطيرين بما لديهم من منطق ساحر ، وحمية مؤثرة .

عصور الخطابة السياسية

أما فى الزمن القديم فلم تكن الخطابة السياسية ممكنة إلا فى ظل أنواع خاصة من الحكم ؛ فقد أزدهرت ازدهارا عظيما فى ظل الحكم الديموقراطى لدى

---

(١) سوار Suard ناقد وصحفى فرنسى ألف كتابا هاما تحت عنوان :Memoires ولد سنة ١٧٣٣ م ومات سنه ١٨١٧ م . المترجم

(٢) توماس Thomas هو أحد رجال الادب الفرنسيين. ولد سنة ١٧٣٤ م ومات سنة ١٧٨٥ م . المترجم

اليونانيين ، كما أنها ازدهرت ازدهارا عظيما أيضا فى ظل الحكم الجمهورى لدى الرومانيين . وإليك ما يقوله ـ فينيلون ـ فى هذه المناسبة :

كان كل شىء عند اليونانيين يتعلق بمشيئة الشعب ، كما كانت مشيئة الشعب نفسه ترتبط ارتباطا وثيقا بقوة البيان فى الكلام . تحت نوع الحكم عندهم كانت الشهرة المادية والادبية ، كما كانت السلطة ترتبط ارتباطا كاملا بحالة اقتناع الشعب ؛ وكان الذى يتحكم فى هذه الحالة من الاقناع إنما هم ذووا الحمية وأصحاب الدهاء من البيانيين . كان البيان فى الكلام اذن هو الدافع الرئيسى إلى الحرب وإلى السلام . ومن هنا وجد هذا العدد الضخم من الخطب فى كتب التاريخ عند اليونان ؛ وإذا كنا لا نكاد نعتقد بصحة هذا العدد الكبير من الخطب عند اليونانيين القدماء فإن ذلك لبعد الزمن بينهم وبين ماهو لدينا الآن من أخلاق وعادات. وها نحن أولاء لا نزال نرى، فيما كتبه ـ ديودور(١) الصقلى، نيسياس(٢) (Nicias) و (جيليب Gylippe (٣) يلعبان بمشاعر سكان ـ سيراكوز(٤) ـ فأحد الخطيبين يحصل منهم

(١) ديودور الصقلى أحد المؤرخين الكبار فى العالم القديم من الاغريق. ألف كتابا تاريخيا عظيما يجمع حوادث العالم من القدم حتى سنه ٦٠ ق.م. وكان يعيش فى عصر الامبراطور أوغسطس . المترجم

(٢) نيسياس Nicias أحد القواد الاثينيين امتاز بمهارته فى أثناء حرب البيلوبونيز وأمضى معاهدة مع اسبارطه سنة ٤٢١ ق . م . ولكنه أخفق وهلك فى الحملة التى توجهت الى صقلية ولم يحكم لها القيادة وكان موته سنه ٤١٣ ق . م المترجم

(٣) جيليب Gylppie – قائد اسبارطى ؛ وهو الذى انتصر على الجيش الأثينى بقيادة نيسياس فى صقلية وبعد أن احتل الاسبارطيون مدينة أثينا كلف جيليب بنقل الغنائم من أثينا إلى اسبارطه وبعد أن نقلها اتهم بأن احتجز منها جانبا لنفسه ؛ فحز ذلك فى نفسه وقبل أن يعيش فى المنفى باختياره المترجم

(٤) سيراكوز ؛ ميناء هام فى جزيرة صقلية وقد لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الحروب بين روما واليونانيين فى الزمن القديم ، وفى هذه المدينة عاش العالم اليونانى الكبير ارشميدس الذى سخر عبقريته وعلمه فى الدفاع عنها حينما اشتد الحصار البحرى عليها من جانب الأسطول الرومانى ويروى أنه فى أثناء هذه الظروف استطاع أن يسخر قوة الشمس فيحرق بها سفن الأسطول ـ

على الموافقة على ابقاء المساجين من الأثينيين أحياء ؛ والآخر بعد لحظة من ذلك ينتهى بهم إلى الموافقة على إعدام نفس هؤلاء المساجين (١) » . وقبل عصر الأباطرة فى روما كانت كل المسائل ، التى تهم الدولة ، موضع نقاش فى مجالس الشورى ، أى فى مجلس الشيوخ أو فى المجامع الشعبية . الواقع أن الحياة السياسية عند القدماء كانت أشد قسوة وأكثر اضطراما منها عند الشعوب الحديثة ؛ فأكثر المهن ، التى تستنفد اليوم جانبا كبيرا من النشاط الانسانى كالطب وسائر الصناعات اليدوية ، كانت متروكة إلى الارقاء ؛ أما الأحرار فلم يكن لهم مطمع سوى الوصول الى الوظائف العامة ، والمساهمة فى شئون الحكم .

أما فى الزمن الحديث فلم يوجد لهذه الخطابة السياسية ، التى كانت لها السيادة المطلقة فى أثينا وفى روما ، مكان تحت حكم الملكية المطلقة فى فرنسا . وقد لاحظ ذلك ـ فينيلون ـ حين قال(٢) :

« لم يعد للكلام عندنا أى سلطان ؛ إذ أن المجالس لم تعد سوى احتفالات ومناظر . ويكاد لا يبقى لدينا شىء من آثار الخطابة القوية لا فى برلماناتنا القديمة ، ولا فى حكوماتنا العامه ، ولا فى مجالسنا التى تضم الأعيان من الرجال ، كل شىء يقرر خفية فى مكاتب الأمراء أو فى بعض المفاوضات الخاصة، وهكذا لم يعد لشعبنا ما يستحثه لبذل نفس المجهود الذى كان يبذله اليونانيون لكى يحكموا عن طريق البيان فى القول . »

وأما فى العصر الحاضر فقد نهضت الخطابة السياسية واستطاعت أن تنتج الفحول

الرومانى ، وذلك بواسطة عدسات من زجاج مخصوص تتجمع فيها أشعة الشمس ثم تعكس تلك الاشعة على الهدف المقصود فتشتعل فيها النار . المترجم

(١) انظر ص١٧ : Fénelon, lettre sur les occup. de l'acad. franç;

(٢) نفس المرجع . Projet de rhétorique

من الخطباء مثل القائد - فوا (١) - Foy - و - بيرييه - جيزو - (٢) - Berryer - و - (٣) Guizot - و مونتالمبير - (٤) Montalembert - و يوليوس فافر - (٥) Jules Favre . وقد صحبت هذه النهضة نظام الحكم البرلمانى، الذى نشأ فى فرنسا مع حركة الاصلاح فى سنة ١٨١٥، والذى يوجد الآن فى كل دول أوروبا تقريبا . اننا اليوم لا نجد أمور الشعب تناقش فى مكاتب الملوك، بل فى البرلمان حيث يستطيع أى نائب أن يعتلى منصة الخطابة .

الصفات التى يجب أن تتوافر فى الخطيب السياسى

من لوازم الخطابة السياسية أن تكون عملية وأن يكون ميدانها الشئون المادية للشعب وللدولة . وهى تتطلب استعدادا كاملا للبذل المطلق من أجل مصلحة الشعب،

---

(١) فوا Foy لعل شهرة هذا القائد العسكريه قد جاءت من أنه أحكم قيادة الجيش الفرنسى وهو منسحب من أسبانيا سنة ١٨١٤ م ؛ ثم لمع نجمه بعد ذلك فى معركة واترلو ، وكانت شهرته كخطيب لاتقل بحال عن شهرته كقائد عسكرى، وقد عاش فيما بين سنتى ١٧٧٥ وسنة ١٨٢٥م المترجم

(٢) بيرييه Berryer ، كان محاميا من الطراز الاول وخطيبا لا يشق له غبار، وحينما انخرط فى سلك السياسة كان من أشد السياسيين عداء للأمبراطورية الثانية فى فرنسا، عاش من سنة ١٧٩٠ إلى سنه ١٨٦٨ م . المترجم

(٣) جيزو Guizot ، أحد رجالات الدولة فى فرنسا ومن كبار المؤرخين فيها. ولعل أهم أخطائه السياسية هو أنه كان يمالىء سياسة انجلترى ولا يجرؤ على مخالفتها . وأهم مؤلفاته هى: تاريخ الثورة فى انجلترا ؛ وتاريخ الحضارة فى أوروبا وفى فرنسا . ولد فى سنة ١٧٨٧ ومات فى سنة ١٨٧٤ م . المترجم

(٤) مونتا لامبير Montalemebert احد رجالات السياسة الفرنسيه اللامعين ومن أبرز المدافعين عن الكاثوليكية الحرة فى فرنسا ؛ عاش من سنه ١٨١٠م الى سنه ١٨٧٠م. المترجم

(٥) يوليوس فافر Jules Favre ؛ ولد فى مدينه ليون ولمع نجمه مبكرا فى أفق السياسة والمحاماه؛ وهو الذى اقترح سقوط الامبراطوريه فى فرنسا ؛ وحينما قامت حكومة الدفاع الوطنى فى فرنسا كان هو واحدا من أعضائها ، وأخيرا اختير لتمثيل فرنسا فى معاهدة فرانكفورت ؛ وقد عاش من سنه ١٨٠٩ م الى سنه ١٨٨٠ م .

كما تتطلب كذلك خبرة طويلة بالناس ودراية واسعة بنظام المجتمع . ولو لم يتوفر ذلك فأن عبقرية الخطيب ومواهبه لا تنتج الا الاندفاع وراء قرارات مخربه . ولقد كان الشأن عند اليونانيين أنه بالرغم من أن كل مواطن كان له الحق فى الكلام أمام أعضاء جمعية - بنيكس - (١) Pnyx - . الا أن منصة الخطابة فى الواقع كانت مخصصة لواحد من عشرة خطباء معينين لا يقتصر همهم على دراسة موضوع المناقشة اليومية فحسب ، بل لابد أيضا من دراسة الادارة العامة للدولة ، وللحرب وللتجارة ، وللاقتصاد . ويجب أن نلاحظ الدقة المتناهية التى استعملها - ديموستين - فى تفصيل المعدات الحربية من سفن وجند ومواد غذائية ضرورية من أجل الحرب ضد فيليب (٢) .

ليس هناك أخطر على الأمة من رجال الدولة المرتجلين؛ فهؤلاء الرجال «يشبهون أولئك الذين يقول عنهم - موليير - : انهم يعلمون كل شىء ولكنهم لا يفهمون شيئا أبدا ... ان هى الا بعض عبارات منمقة محفوظة ، بعض كلمات ضخمة جوفاء ، بعض تغييرات فى الصوت ممتعة للأحساس ، بعض ضربات باليد جيدة فى الوقع بعض « أشباح » تبرز من مخبئها فجأة فى لحظات مقصودة : وهذا أكثر مما يجب لينقاد الشعب الى ما يقال (٣) . وفى الحقيقة ان أمثــــال هؤلاء الرجال يقودون الشعوب الى الهاوية . وهذا ما لاحظه - تين - Taine - فى كثير من الدقة وقوة الاحساس : « ان المجتمع الانسانى ، وبخاصة المجتمع الحديث، عبارة عن أفق واسع معقد . ومن أجل ذلك فمن الصعب أن نعرفه. وأن نفهمه . ولهذا كان من الصعب أيضا أن نصرف أموره . ويستنتج من ذلك أن العقل المثقف أجدر وأكثر مقدرة على ذلك من العقل الذى لم يهذب ، وأن إنسانا تخصص فى ذلك أولى من إنسان آخر لم يتخصص (٤) » .

ثالثا - الخطابة القضائية

إن موضوع الخطابة القضائية هو مصلحة مجموعة من الأفراد أو مصلحة شخص

---

١ - اسم لميدان عام فى أثينا القديمة كان يجتمع فيه مجلس الشعب لمناقشة شئون الدولة. (المترجم)

٢ - انظر : 1ere Philippiques ويقصد المؤلف هنا فيليب ملك مقدونيا ووالد الاسكندر الأكبر (المترجم)

٣ - انظر : La science sociale, article cité p. 456

٤ - انظر : Op. cit, t, III : la conquéte jacobine, prèface.

بمعين . إن هذه الخطابة باسم العدالة و باسم القانون تحمى حياتهم، وشرفهم، وسمعتهم، وثروتهم ، أو بالاختصار تحمى حقوقهم . ولنلق نظرة على هذا الموضوع فى اليونان وفى روما وفى فرنسا .

فى اليونان

كان كل مواطن يونانى مضطرا إلى أن يدافع عن نفسه بنفسه . وكان يستطيع عند اللزوم أن يطلب معونة أحد المحامين ليقدم له بعض الشروح التكميلية (١) . ولم يكن يسمح فى المحاكم المدنية بالالتجاء إلى التأثير العاطفى ، كما أن زمن المرافعة كان محددا بواسطة ساعة مائيه كانت تعرف عند اليونانيين باسم « الكليبسيدر » . وكثيرا ماكان المتهمون من طبقة الفقراء كالعمال والمزارعين. وكان هؤلاء المتهمون يلجؤن إلى أحد المحامين المحترفين ليؤلف لهم ، نظير أجر يدفعونه ، المرافعة التى يتلونها بعد ذلك بأنفسهم أمام القضاه . وكانت هذه المرافعات عبارة عن خطب تتفق مع طبيعة الشخص ومكانته فى المجتمع ؛ فلم تكن إذن من الخطب العظيمة ؛ وكل ماكان يتطلب منها إذ ذاك إنما هو البساطة والوضوح . غير أنه فى بعض الأحيان كان الطالبون أو المترافعون من الأشخاص ذوى العبقرية والمواهب مثل ـ إيشين ـ(٢) Eschine ـ و ـ ديموستين ـ الذين كانوا يؤلفون خطبهم بأنفسهم فكانت من الآثار الأدبية الخالدة .

فى روما

كان المتبع عند الرومانيين أن ينوب عن المتخاصمين أحد المحامين أمام القضاء. وكانت القضايا العامة يترافع فيها أمام الجمعية الشعبيه الهامة التى كانت تعرف إذ ذاك باسم . « كوميس » . وكان من المتبع أيضا أن يحضر أصدقاء المتهم تلك المرافعات

---

١ ـ يستطيع كل شخص فى فرنسا ان يدافع عن نفسه بنفسه على شرط ان يطلب موافقة المحكمة على ذلك : ولكن الغالب الكثير أن يقوم المحامون بهذه المهمة (المؤلف)

٢ ـ هو من أشهر الخطباء اليونانيين قديما ؛ وكان أكبر منافس لديموستين . دافع كثيرا عن سياسة . فيليب ـ فى أثينا ، ومن أجل ذلك اتهمه الاثينيون بالخيانة وبأنه باع نفسه بالمال للملك ـ فيليب ـ ، مما اضطره إلى ترك أثينا ليعيش فى منفى ؛ عرف بسمو الاسلوب وثروة المعانى وقوة الحجج عاش من سنة ٣٨٩ إلى ٣١٤ قبل الميلاد . (المترجم)

وكثيرا ما كان عددهم يصل إلى المأتين أو أكثر . وكان يحدث فى رومه مثل ما كان يحدث فى اليونان من أن تتحول المرافعة إلى مناقشة سياسية ؛ فكان سيسرون أثناء دفاعه عن ـ ميلون (١) ـ يدافع كذلك عن الأرستوقراطية الرومانية ضد الحكومة الشعبية الممثلة فى ـ كلوديوس (٢) ـ . وكثيرا ما كانت توجه التهم الى القدامى من القادة والقناصل مثل ـ سيبيون (٣) ـ و ـ سيسرون ، مما كان يدفع هؤلاء الى الوقوف أمام الشعب للأجابة عن تلك التهم وعن تبرير الخطة التى كانوا يسلكونها فى اداراتهم . ومن ذلك ما حدث لسيسرون من التهمة التى وجهت اليه من جراء تسببه فى إعدام ـ كاتيلينا (٤) ـ دون أن يلتزم فى ذلك الطريق القانونى المشروع. ولقد أخذ الدفاع فى هـــذه القضية مظهرا هاما أعاد إلى الأذهان عصر الخطابة السياسية المزدهر .

فى فرنسا

أما لدى الفرنسيين فالخصومات المدنية والمخالفات القانونية، والغرامات، وغير ذلك من القضايا ، كان ذلك كله من عمل القضاة المحترفين . ومهمة المحامى فى ذلك

---

١ ـ ميلون . هو احد النواب الشعبيين الرومـانيين وكـان زوجا لابنة القائد الرومانى المشهور ، ـ سيلا ـ ؛ اتهم بقتل ـ كلوديوس ـ سنة ٥١ ق.م ، وقد دافع عنه سيسرون دفاعا مجيدا أنقـذه من الاعدام ، وقد توفى سنة ٤٨ قبل الميلاد . المترجم

٢ ـ كلوديوس ، هو احد الحكام الشعبيين الرومانين ، وقداشتهر بغلظته وجبروته . استطاع أن ينفى سيسرون، وقد قتل فى ثورة شعبية بيد ميلون ـ سنة ٥٢ قبل الميلاد. المترجم

٣ ـ سيبيون ، هو احد القواد الرومانيين المشهورين ، عرفت مقـــدرته الحربيه فى الحرب البونيه الثانية ثم فى انتصاره على هانيبال فى سنة ٢٠٢ قبل الميلاد . ولكن الشعب انقلب ضده واتهم بالاثراء على حسابه فنفى ومات فى منفـاه وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه العباره لن تدفن فيك عظامى أيها الوطن الجحود ، ومما يؤثر عنه أنه دافع عن نفسه دفاعا خالدا حين اتهمه الشعب بابتزاز الاموال لمصلحته . المترجم

٤ ـ كاتيلينا ، وهو احد القواد الرومانيين المشهورين ، ولد حوالى سنة ١٠٩ قبل الميلاد وقد لعب دورا هاما فى السياسة الرومانيه، وكان موته فى سنة ٦٣ قبل الميلاد . المترجم

أن يحاول الاقناع بواسطة أسلوب مهذب بليغ؛اذ أن الالتجاء الى الأسلوب العاطفى المثير لا يروق فى مجتمع مثقف ملم بخبايا القانون والتشريع ، مصمم على عدم التأثر بالبلاغة الخطابية وفى حصانة ضد التأثيرات الكلاميه .

وهذا التأثير العاطفى لا يستساغ ولا يأخذ طريقه الا فى الدفاع عن الجرائم . ومنذ عصر الثورة الفرنسية قد وكل أمر هذه الجرائم الى قضاة مدنيين من السهل أن يتأثروا بحالة المتهمين ومستقبلهم . ومن هنا قد اشتهر بعض هذه المرافعات الخطابية وبقيت كآثار فنية .

رابعا — الخطابة الدينية[1]

تعتبر الخطابة الدينية من لوازم الدين المسيحى ؛ وهى من أهم وسائل الدعوة الى هذا الدين والعمل على إنتشاره ؛ اذ أنها تحاول شرح العقيدة وتدعو الناس الى التمسك بالمسلك الخلقى . ولقد أعطى السيد المسيح نفسه الامثلة الاولى من هذه الخطابة . وقد أراد من تلاميذه أن يذهبوا فى الارض لتعليم الشعوب المختلفة

---

(١) سيرى القارىء وجهة نظر المؤلف هنا بالنسبة للخطابة الدينية وصلتها بالمسيحية؛ ونظن ان المؤلف هنا قد نظر إلى المسألة من زاوية المسيحية فقط ؛ كما نظن أنه لو اطلع على نظام الخطابة الدينية فى الإسلام وقرأ بعض الخطب الدينية عن المسلمين لتغير موقفه ؛ فالخطابة الدينية عند المسلمين مبدأ من المبادىء العملية وهى شرط لا بد منه لأداء صلاة الجمعه ، ولقد ورثنا الكثير من الخطب الدينية الرائعة فى العصور الأولى للاسلام .

نعم قد ضعف أمر هذه الخطابه فى عصور التدهور وأصبحت شبحا هزيلا للخطابه الدينية ، فلا تحتوى الا على عبارات جوفاء ؛ وجمل منمقة مسجوعه، ومعانى مكررة ممجوجه لاحيوية فيها ولا صلة لها بالواقع . ولكن منذ النهضة الحديثة واليقظه الاسلاميه بدأت الخطابه الدينيه عند المسلمين تستعيد مجدها القديم وتحتل مكانتها المرموقه بين المجتمعات الاسلاميه ولقد تنبه لذلك أولياء الأمر فى الجامعه الازهريه وعرفوا ما لهذا الركن الأساسى فى الدين من خطورة وقدر فأنشؤا كليه خاصه للدراسات العليا يتخصص بعض طلابها فى الوعظ والارشاد ليكون منهم الأئمه والخطباء والوعاظ وقد بدأت هذه الكليه منذ زمن تخرج من يوكل اليهم أمر الخطابة الدينيه فأحيوا هذه الخطابه وبرهنوا على مقدرة وجدارة فى هذا الميدان . المترجم

وتبشيرهم بهذه الدعوة الجديدة. ونستطيع أن نقرأ أيضا فى كتاب « الاعمال » خطب القديس بطرس لليهود وخطبة القديس بولس أمام الشعب فى الميـــدان العام [الأريوباج] بأثينا .

ويقصد من الخطب الدينيه تلك التى تتخذ موضوعا لها الحقيقة والمسلك الخلقى المسيحى . وأنواع هذه الخطب ما يأتى :

١ - السيرمو Le Sermon بمعناها الصحيح، وهى خطبة طويلة الى حد ما جمعت بين العنايه فى الألفاظ والفخامة فى التركيب .

٢ - البرون Le Prône وهى عبارة عن مجموعة قصيرة من الإرشادات بلغة عادية تلقى الى رجال الدين بعد قراءة فصل من الإنجيل فى أيام الاحد وفى أيام الاعياد . وها هو ذا القديس جوستان - Saint Justin ، الذى استشهد فى القرن الثانى يحدثنا عن طريقة توجيه الكلام الى الحاضرين بعد قراءة الانجيل فيقول: «حينما يفرغ القارىء من تلاوته ينهض المشرف أو الرئيس فيدعو الحاضرين الى العمل بهذه العظات النبيلة (Apol I, 65-67.)

٣ - الأوميلى L'homélie ، وهى كما يحددها معنى اللفظ، عبارة عن حديث بسيط بلغة عادية يتناول فيه المتحدث شرح فقرة من الانجيل بواسطة الانجيل نفسه .

ومنذ القرن الأول كان يقصد من هذه الكلمة فى كنائس الشرق الشرح الشفوى للنصوص المقدسة ، غير أنها أصبحت بعد ذلك مباشرة مرادفة لكلمة - سيرمو - ومن أمثلة ذلك حديث القديس يوحنا خريزوستوم Saint Jean Chrysostome فى تمجيد أوتروب (١). - Eutrope

٤ - المحاضرة La Conférence ، هى عبارة عن خطبة تلقى إلى جمع خاص من المستمعين ؛ كأن يكون ذلك الجمع من الشبـاب أو من الرجال أو من النساء ، وبطبيعة الحال فى موضوعات خاصة وبأسلوب يتفق مع هذه المجتمعات .ومن أمثلة

---

(١) أوتروب - Eutrope « احد الوزراء فى عهد الامبراطور أركاديوس ؛ وكان من أصل أرمنى وقد كتب القديس يوحنا خريزوستوم فيه رثاء مشهورا ؛ وقد أعدم هذا الوزير ٣٩٩م. المترجم

ذلك مجموعة الخطب الدينية التى ألقاها بوسويه Bossuet من أجل الطبقة الارستوقراطية فى المنزل المعروف باسم لونجفيل Longueville عند الراهبات المعروفات باسم الكارميليت (١) Carmélites . وموضوع هذه المحاضرات فى العصر الحاضر يغلب أن يكون فلسفيا أو اجتماعيا ويقل أن يكون دينيا. وفى هذه المحاضرات كثيرا ما يلجأ المحاضر إلى البراهين العلمية والعقلية وقلما يلجأ الى البراهين الدينية. وها نحن أولاء لا نزال نذكر حتى اليوم محاضرات القس لاكوردير (٢) Lacordaire والقس دى رافينيا (٣) De Ravignan فى كاتيدرائية نوتردام .

٥ - خطب المدح أو البانيجيريك - Panegyrique ؛ وهذه الخطب فى عرف المسيحيين تختلف تماما عن نظيراتها عند القدماء ؛ ومن أجل ذلك فقد وضعناها ضمن الخطب الدينية . ويختص هذا النوع من الخطب بتأبين القديسين حيث يذكر تاريخ حياتهم ومآثرهم ، ويعقب ذلك الدعوة إلى التحلى بفضائلهم، واسمى مثل لذلك هو تأبين بوسويه للقديس بولس .

٦ - خطب الرثاء - Oraison Funébre ؛ ولهذه الخطب أيضا طابع خاص عند المسيحيين لا يعرفه الوثنيون ؛ فقد كانت هذه الخطب عند اليونانيين تهدف الى غرض وطنى ، كما كانت تهدف عند الرومانيين إلى تمجيد الأسر الارستوقراطية وذكر مفاخرها . أما آباء الكنيسة المسيحية فقد اتخذوا من ذلك أمثلة طيبة للتحدث عنها

---

١ - الكارميليت - Carmélites ، اسم لجماعة من الراهبات ينتمين لنظام دينى خاص ، ومنشأ هذا النظام كان فى فلسطين يوم كان يقوم به رجال الدين ، ولما دخل هذا النظام فى فرنسا تحت حكم لويس التاسع انضم إليه كثير من رجال الدين هناك وأصبحوا يلقبون بكارم - وفى سنة ١٤٥١ م أنشىء فى فرنسا نظام مماثل للسيدات وأصبحن يلقبن بـ - كارميليت - وبقى هذا النظام عشرات من السنين لا يعرف الشدة فى مبادئه ولا القسوة فى تنفيذ أحكامه حتى دخلت فيه القديسة تيريز خلال القرن السادس عشر فأحكمت قواعده واشتدت فى مبادئه وقست فى فرض هذه القواعد وفى تنفيذ أحكامها . المترجم

٢ - لاكوردير - Lacordaire ، أحد رجال الدين البارزين فى فرنسا ، وهو ينتمى إلى طائفه الدومينيكان ، وكان مولده فى ساحل الذهب ، واشتهر ببلاغته فى الخطابة الدينيه خلال القرن التاسع عشر . عاش من سنة ١٨٠٢ م إلى سنة ١٨٦١ م . المترجم

٣ - دى رافينيا - de ravignan هو من رجال الدين البارزين أيضا ولكن ينتمى إلى طائفة الجزويت وقد اشتهر كذلك بمقدرته البلاغية فى الخطابة الدينيه . ولد فى فرنسا سنة ١٧٩٥ م ومات سنة ١٨٥٨ م . المترجم

والتحلى بفضائلها . ولقد تحدث القديس(١) جريجوار دى نازيانز Saint Grégoire de Nasianze إلى مستمعيه فى خشوع وترحم عن أخيه سيزير Cesaire وعن صديقه القديس بازيل Basile ؛ كما تحدث القديس أمبرواز(٢) Saint Ambroise عن الامبراطور تيودوز - Théodose

ولقد أصبح هذا النوع من الخطب فى عصر النهضة خطبا يقصد منها التفاخر حيث تتزاحم فيها المعارف والذوق الردىء . ومن أجل ذلك قد حل الاستشهاد بشعر فيرجيل وشعر أو فيد على منبر الكنيسة محل الاستشهاد بعبارات من الانجيل كما احتلت التعبيرات الخفيفة والتراشق بالألفاظ مكانة عظيمة مما أدى إلى وجود تناقض غير مستساغ بين خطورة الموضوع وما يقال فيه من أمثال هذه التعبيرات وقد استطاع بوسويه أن يعيد سنة آباء الكنيسة فى هذا الموضوع . إذ عرف كيف يتناول الحديث كما يتناوله القس وكيف يستغل الثناء على الأموات فى تهذيب الأحياء وتعليمهم . ولو أنه « يسكب الدمع مع الرحمات » على هانريت الفرنسية(٣) Henriette de France وعلى هانريت الانجليزية(٤) Henriette D'angleterre

---

١ - القديس جريجواردى نازيانز – Saint Gregoire de nasianze أحد رجال الدين المشهورين من اليونانيين تولى أسقفية القسطنطينيه وقد عاش آخر حياته فى عزلة عن العالم يسجل أشعاره و خطبه ورسائله . ولد نحو سنة ٣٣٠ م ومات نحو سنة ٣٩٠ م . المترجم

٢- القديس امبرواز Sant Ambroise ؛ هو رئيس الاساقفة فى ميلان ، وقد حدثت فى أيامه ثورة السكان فى سالونيك فأخمدها الأمبراطور تيودوز بقسوة شديدة أطلق عليها المؤرخون – مجزرة سالونيك – . وعندئذ غضب القديس امبرواز من ذلك الفعل الشنيع غضبا شديدا ؛ حتى حرم على الأمبراطور دخول الكنيسة. وفى هذه المناسبة ألقى القديس كلمته المشهورة ضد هذا الأمبراطور . ولد سنة ٣٤٠ م. ومات سنة ٣٩٧ م. المترجم

(٣) هانرنيت دى فرانس **Henriette de France** هى بنت هنرى الرابع وقد تزوجت من شارل الاول ملك انجلترى وقد القى بوسويه بعد موتها رثاء مشهورا . ولدت سنة ١٦٠٥ م وماتت سنة ١٦٦٩ م . المترجم

(٤) هانريت د انجلترى **Heniette d' Angleterre** هى بنت هانريت السابقة وشارل الاول ملك الانجليز وقد تزوجت فى فرنسا من فيليب دورليان أخى لويس الرابع عشر وقد لعبت دورا اساسيا هاما بين فرنسا وانجلترى ويعتبر رثاؤها من الاثار الخالدة بالنسبة لبوسويه ولدت سنة ١٦٤٤ م وماتت سنة ١٦٧٠ م . المترجم

وعلى الأميرة بالاتين (١) Palatine ، وعلى لويس الثانى (٢) أمير كونديه ، نقول ولو أنه يسكب الدمع مع الرحمات على هؤلاء إلا أنه كان يكرر دائما ما يقول ؛ و من أمثلة ذلك قوله : اختفى الجمال وزال المجد أمام الموت « الذى جاء فطمس بظلامه كل شيء ، أنها حقيقة خالدة تلك التى تعرف بالفضائل المسيحية ، التى لا وجود للانسان بدونها والتى تتبعنا حتى بعد القبور .

وحينما أعاد بوسويه إلى هذا النوع من الخطابة ، الذى كان قد ابتعد عن رحاب الكنيسة وتعاليمها ، الروح الدينية مع ما يتصل بها من أفكار تتعلق بالموت وبالقدرة الألهية ، التى توجه وحدها ، دون شريك ، الناس وما يتصل بهم من من أحداث ، نقول ، حينما فعل ذلك بوسويه قد استطاع أن يرتفع إلى درجة من السمو لم يصل اليها أبدا لا خطباء اليونان ولا خطباء الروم ؛ كما استطاع فى نفس الوقت أن يضيف إلى هذه الأفكار من عبقريته ومن جمال الاسلوب وحسن التعبير ماهو جدير بها حتى لقد أصبحت خطبه فى هذا الميدان تمثل أقصى مايصل اليه الجهد البشرى وتصور مثلا أعلى لا ينافسه فيه إنسان .

طابع الخطابة الدينية

إن من واجب الخطيب المسيحى أن يدعو الناس على الخصوص الى العمل بما فى الأنجيل . ولم يعرف الحواريون نوعا آخر من الوعظ أو الخطابه ؛ فى هذا الكتاب المقدس الذى مضى عليه الفا سنه ، والذى يسجل كلام المسيح ، تتردد دائما هذه الفضيلة القدسية التى كانت فيما مضى تهدى الناس إلى تتبع خطوات السيد المسيح والتى لم تفقد حتى الآن شيئا من تأثيرها . ونستطيع الآن أن نطبق على هذه النصوص

(٥) الاميرة بالاتين La Princesse Palatine هى بنت دوق دى مانتو وتزوجت ملك بافيير فى المانيا وكانت تشتهر بالذكاء والجمال وقد خلدها بوسويه بما قاله فيها من رثاء بعد موتها ولدت سنة ١٦١٦ م وماتت سنة ١٦٨٤ م المترجم

(٦) لويس الثانى امير كونديه Louis II , prince de Condé هو أحد القواد العظام فى فرنسا انتصر فى عدة مواقع وشارك فى كثير من الحروب ومن اجل ذلك استحق من بوسويه رثاء يخلد ذكراه . ولد سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٨٦ م المترجم

المقدسه نفس الكلام الجميل الذى قاله بوسويه بمناسبة رسائل القديس بولس . « وكما نرى نهرا عظيما لايزال يحتفظ ، وهو يندفع إلى الوادى ، بتلك القوة العنيفة المتدفقه ، التى اكتسبها من منحدرات الجبال حيث يأخذ مياهه ، فإننا نرى أيضا هذه الفضيلة الإلهية، رغم بساطة أسلوبها ، تحتفظ بكل قوتها التى هبطت معها من السماء (١) » .

ويقول أيضا الكونت دى مونتا لامبير - Le conte de montalembert إلى أحد اقربائه وهو خارج من تأبين قسيس متواضع من قسس القرى « إننا بعد الخطب الدينية الطنانة فى باريس نشعر بالسعادة حين نسمع شيئا من الأنجيل » .

وأهم الصفات الأساسية للخطيب الدينى هى الوضوح والتأثير ؛ ثم إن حديثه ينبغى أن يستشف منه الحماس واليقين اللذان يصوران لنا احاديث الحواريين ؛ كما ينبغى أن يكون بعيدا عن فكرة الاهتمام باعداد العبارات المنمقة رغبة فى اعجاب السامعين مما دعا لا برويير(٢) - La bruyére إلى أن يقول : «لقد أصبحت الخطبة المسيحية نوعا من المناظر (٣) » . وليس معنى هذا أن منبر الكنيسة يستبعد الخطابة بمعناها الصحيح ؛ فلو اتخذنا بوسويه مثلا لكفانا برهنة على عكس ذلك . « انما الخطابة فن عرض الحقيقة فى ظروف أكثر ملاءمة وأشد رعاية لاثبات اليقين والايحاء بالاقناع : وهذا هو واجب كل إنسان يدعو بما فى الأنجيل(٤) . » . ولقد أنصفت ما دام دى سيفينى Madame de séviyné حين كتبت هذه العباره : « كيف نحب الله إذا لم نسمع كلاما جميلا(٥) . ؟ »

---

١ – **Bossuet panégyrique de saint paul; 1er point, éd. Rebelliau p. 174.**

(٢) لابروبير **La Bruyére** هو واحد من اشهر ادباء فرنسا كان مربيا للاميرة كونديه وقد اصبح عضوا فى الاكاديميه الفرنسية سنة ١٦٩٣ م ولد سنه ١٦٤٥ ومات سنة ١٦٩٦ . المترجم

٣ – **les caractéres ch. xv. la chaire.**

٤ – **Cours de rhétorique et de belles-lettres. par hugues blair. traduit de l'anglais Par . Pierre prèvo ə ɛ ·ʇəédit 1821, tII p. 70**

٥ – **Lettre à madame de Grignan 1er avrail 1671.**

المقالة الثالثه

وسائل الإقناع .

إننا لا نملك السيطرة المباشرة على إرادة امثالنا من الناس. ولكننا نستطيع أن نصل إلى هذه الارادة بطريق غير مباشر ؛ وذلك : أولا ـ بواسطة الذكاء الذى نستخدمه فى شرح الغرض وبيان الأسباب التى توصل إليه . ثانيا ـ عن طريق الإحساس ؛ ولا يكون ذلك إلا بالاستيلاء على القلب والتأثير فى المشاعر التى تسيطر على حرية الفرد وتتجه بها إلى الجهة المقصوده . وإذن فهناك قوتان هائلتان يعتمد عليهما الخطيب هما : البراهين والتأثيرات .

١ ـ البراهين واليقين

تعريف .

إن المقصود من كلمة برهان هو كل ما يستخدم فى سبيل الأقناع وفى توضيح الحقيقة وبيانها بيانا كاشفا . كما أن الصيغة المنطقية التى تصاغ بها هذه البراهين تسمى أدلة . وأما طريقة تقوية هذه الأدلة المختلفه وترتيبها فى مجموعات مركزة واضحة فهو ما يعرف بالاثبات عن طريق البرهنة . وأما فن مناقشة تلك البراهين والأدلة ، وهذا الاثبات بقصد إظهار الصحيح من الباطل والقوى من الضعيف فذلك ما يعرف بالمنطق .

أهمية البرهنة

« أن كل وسيلة من وسائل الأقناع يجب أن تكون مؤسسة على اليقين ؛ ومعنى ذلك أنه يجب علينا أن نتجه أولا إلى قوة الإدراك إذا أردنا أن نسيطر على القلب سيطرة دائمة (١) . » والخطيب الذى يتجه إلى الاحساس فقط يستطيع حقيقة أن يستميل إرادة السامع حينما يؤثر على مشاعره ؛ إذ أن التأثير العنيف كتأثير السخط، والغضب والحب ، والحماس يستطيع أن يتغلب على إرادتنا فيجد من جانبنا الاستجابة إلى ما يقال ؛ غير أن ذلك لا يعدو أن يكون كلهيب القش لا تلبث أن تنمحى آثاره؛ فليس هناك ما هو أسرع فى التبدل والتغيير من الإحساس ؛ وحينئذ يختفى التأثير ، ويعود السامع إلى حالته النفسية الأولى بدرجة من السرعة والعناد تجعله يدرك تماما ، بعد

---

١ ـ Hugus blair, op. cit. p. 70

أن رجع إلى صوابه، مبلغ تأثير المفاجاة والاعجاب الناتجين عن بلاغة الخطيب وسحره . وعلى العكس من ذلك ان اليقين المؤسس على العقل والادراك يبقى ثابتا دون تحول . بل إنه يستطيع أن يقاوم عواصف الأحساسات والمشاعر؛ وهوفى ذلك يشبه الفنار الراسخ فى الصخر يرسل أشعته الهادية بين العواصف العاتيه . وهكذا يلتزم المرء دائما سبيل الطاعة أمام سلطان العقل؛ فهو باسم الحقيقة والعدل والخير يعمل أو يتظاهر بالعمل .

ومن اجل ذلك فان أسفه شيء يرتكبة الخطيب هو ان يبدو وكأنه أهمل فى مستمعيه ملكة العقل وقوة الايمان؛ وان يتجه مباشرة الى مشاعرهم ويغزو الموطن الضعيف فى ارواحم قبل أن يضع، ماأ مكنه، تفكيرهم فى حصانة وضمائرهم فى هدوء وراحة » . (١) اننا جميعا نعتقد او نريد ان تبدو علينا سيما المعتقدين أن الانسان الجدير بأن يسمع هو ذلك الذى لا يستخدم الفكرة الا من اجل الحقيقة والفضيلة » (٢) . وهناك سؤالان يتصلان بالبرهنة هما : أولا ـ ماهى طبيعة البراهين المستعملة وكيف يمكن العثور عليها؟ . ثانيا ـ فى اى صيغة يمكن ان تصاغ هذه البراهين وكيف يمكن ترتيبها؟ واذن فهناك موضوعان للكلام هما : الابتكار والنظام

الابتكار

المواطن العامة او المشتركة

لقد قسم ارسطو وعلماء البيان من بعده البراهين المختلفة الى عدة مجموعات أو مواطن مشتركة؛ فالمواقف الخطابية تعتبر المصدر الذى يمكن ان تصدر عنه البراهين لكل أنواع الخطب؛ من ذلك الوصف الذى يتلائم مع العامه . ويمكننا تقسيم البراهين كما يمكننا ايضا تقسيم الادلة المتصلة بذلك الى براهين خارجية والى براهين داخلية فالاولى خارجة عن الموضوع اوبالاحرى على هامشه؛ والثانية داخلة فيه او تكون جزءاً منه .

---

١ - Marmontel, eléments de littérature, t. II, p.38

٢ - Fénelon. op. cit.,ch. IV : projet de rhétoriqne,

المواطن او الموضوعات الخارجية

تشمل هذه الموضوعات الخارجية مايأتى :ـــ

اولا ـ النصوص ، كنصوص التوراة والانجيل بالنسبة للخطابةالدينيه ، وكنصوص القانون بالنسبة للمحاكم . ويعتبر الدليل مفحما او مقنعا اذا كان مستمدا من القانون على شرط ان يوضّح ذلك النص القانونى توضيحا كاملا اذا كان فيه بعض الغموض وان يبين المتكلم ان القانون فى هذه الحالة ينطبق انطباقا قويا على المسألة المتنازع فيها .

ثانيا ـ الوثائق المكتوبة كالعقود والاتفاقات والوصايا التى تثبت حق الملكية أو الدّين . . . الخ . وتعتبر هذه الوثائق أدلة قاطعة اذا كانت قد كتبت بطريقة واضحه لاتحتمل التاويل .

ثالثا ـ الشهادة. فشهادة الشاهد لها وزنها الكبير اذا كان ذلك الشاهد محل ثقه بالنسبة لما عرف به من الناحية الاخلاقية . فلو ان انسانا اتهم بالقتل فانه يستطيع ان ينقذ نفسه من هذه التهمة بواسطة شهود عدول يقررون انه حين ارتكاب هذه الجريمة كان موجودا فى مكان بعيد عن محل وقوع هذا القتل ، وحينئذ تسقط التهمة من نفسها .

رابعا ـ القسم . وهذا القسم فى عصر يسوده التمسك بالدين ومن افواه اناس يؤمنون بالله ايمانا عميقا يعتبر دليلا قويا ؛ وصيغة القسم فى الواقع تنطبق على هذه العباره : اشهد الله ان اقول الحقيقة ولا اغير شيئا منها والا استحققت من جانبه اشد أنواع العقاب. واليك نص واحدة من الوصايا العشر التى نزلت على موسى فى طور سيناء « لاتذكر اسم الله عبثا » وانه لمؤسف ان نجد فى العصور القليلة الايمان ولدى أناس لايؤمنون بالله ولا بالقانون ، كما نجد ذلك سائدا فى هذا العصر ، ان القسم بالله وهو عهد مقدس لايقام له وزن ولا اعتبار. ولقد حاولوا عبثا ان يستبدلوا هذا القسم بكلمة الشرف ، وعامة الناس حينما ينتهى امرهم الى الشك فى أى شىء لا يقيمون وزنا كبيرا الى كلمة الشرف ، اذا انهم يقولون فيما بينهم ايضا :

وما الشرف إلا قديس قديم ليس هناك ما يدعو إلى احترامه الآن .

خامسا ـ الأقوال المأثورة عن آباء الكنيسه على منصة الوعظ؛ وكذلك الأقوال المأثورة عن رجال القضاء فى ساحة المحاكم .

المواطن أو الموضوعات الداخلية

أما البراهين الداخلية فتشتمل على ما يأتى :ـــ

أولا : التعريف أو التحديد ، ويمكن بواسطته تحديد معنى كلمة ما ليكون من ذلك نقطة البدء فى البرهنه . ومنذ قليل أُتهم صاحب فندق بالسرقة من أجل أنه أحتجز كرهينة زمام حمار كان يركبه أحد المسافرين الذى رفض أن يدفع ما عليه من دين بسيط لصاحب الفندق . ومع ذلك فقد استطاع المحامى أن يبرىء صاحب الفندق ؛ إذ أنه تمكن من تحديد معنى السرقة كما يفهمها القانون ، كما تمكن أيضا من من بيان أن المخالفة المرتكبة لا تستحق أن ينطبق عليها معنى السرقة .

ثانيا : تعداد الأجزاء التى تذكر فيها الأحداث المتتابعة بحيث تتعاون كلها فى بيان الحقيقة وتوضيحها. لقدزعم ـ أبنير ـ Abner ـ ، وهوفى حالة من حالات القنوط ، أن الإله قد اعتزل شعبه ، وأن «رحمته فى آخر الأمر قد ضاقت بالناس». ثم يأتى ـ جواد ـ joad ـ فيعدد له آخر « المعجزات » التى لم تكن سوى مظهر من مظاهر القدرة الالهية لمصلحة اليهود :

ولقد حقق الله كل وعيده من أجل المصائب الكبرى للظلمة من بنى إسرائيل ؛ ولقد خرب الملحد ـ أكاب ـ Achab ـ المزرعة التى اغتصبها بعد أن ارتكب جريمة القتل ، ثم آل أمرها إلى أن تروى بدمه ؛ وبالقرب من هذه المزرعة المشئومة قد ذبحت ـ جيزابيل ـ jezabel ؛ كما وطئت الخيل بأقدامها هذه الملكة .

ويستمر ـ راسين ـ فى ذكر هذه الأحداث إلى أن يستخلص من ذلك قوله :

ألا فلتعلم يا أبنير أمام هذه المشاهد الرائعة أن الله فى هذه الأيام هو نفسه فى الأيام الخاليه (١) .

---

١ ـ Racine, Athalie, act 1, sc. 1.

ثالثا : جنس الموضوع ونوعه ؛ وبمراعاة ذلك يمكن تكييف ميدان القول والاحاطة بأطرافه (وقد وضحنا ذلك بتفصيل فى كتابنا : **Théorie de la comp. lit. p. 151-158)**

رابعا : الملابسات : وهى أمور ثانوية تتقدم الموضوع الرئيسى أو تحيط به أو تتبعه .

وإذن فهذه الملابسات إماأن تكون سابقة أو مصاحبة أو تابعه . ولقد استطاع علماء البيان أن يميزوا من هذه الملابسات سبعة أمور قد جمعت فى بيت من الشعر اللاتينى هو :

Quis ? quid ? quibus auxiliis ? cur ? quomodo ? quando ?

وترجمته هى : من ؟ ماذا ؟ أين ؟ بأى الوسائل ؟ لماذا ؟ بأى طريقة ؟ متى ؟

وهذه الظروف أو الملابسات إما أن تكون ظروفا تدعو الى تعظيم الجريمة والتهويل من أمرها كسبق الاصرار والإحسان من جانب المعتــــدى عليه ومن شأنها تجسيم الجريمة ومضاعفة خطورتهـا بالنسبة للمتّهَم ؛ وإما أن تكون ظروفا مخففة تدعو الى تبسيط الجريمة والتلطيف من حدتها كالإثارة من جانب من وقع عليه الاعتداء ، وثورة الغضب من جانب المعتدى ومن شأنها تخفيف المسئولية بالنسبة للمعتدى .

خامسا : الأسباب والنتائج . وهذه وتلك تستخدم فى تأليف الموضوع وعرضه من حيث ما يشتمل عليه من أسس أو ما ينتهى اليه من أغراض؛فالخطيب اليونانى ديموستين (١) أراد (٢) (**ler philip**) أن يرفع من الروح المعنوية فى مواطنيه ويبرهن لهم أن فيليب (٣) عرضة للهزيمة كغيره من القواد الحربيين حين قال « إن مصدر قوة فيليب يكمن فيما لديكم من ضعف وإهمال ؛ تماسكوا وقووا أنفسكم فالنصر حليفكم » . وفى موقف آخر، حينما أراد أن يستحث الأثينيين لنجدة مدينة أولانث

---

١ - انظر ص ١٤ من المجلد الأول .

٢ - هى مجموعة الخطب التى الفها ديموستين ضد فليب . المترجم

٣ - هو فيليب ملك مقدونيا الذى دخل فى حروب ضد الأثينيين وانتصر أخيرا عليهم. المترجم

Olynthe (١) ، نجده يوضح لهم العواقب الوخيمة بالنسبة لهذا الضعف وذلك الأهمال . ولو أنهم وقفوا موقف المتفرج فى هذه المعركة لاستولى فيليب على مدينة أولانث ثم اتجه فى غزوه الى منطقه الأتيك(٢) . لم يكن لهم اذن الا أن يختاروا بين الحرب مع فيليب خارج منطقة الأتيك والحرب المدمرة معه فى داخل المنطقة.

سادسا : المقارنة ـ ونعنى بذلك أن نقرب الى الحقائق الثابتة حقيقة لا تزال تحتاج فى إثباتها الى البرهان ؛ ويمكن ذلك بواسطة عقد الصلة القوية بينها وبين الحقائق الأولى ؛ وبذا يتضح وضعها دون عناء كبير . ومن أمثلة ذلك ما صنعه ديموستين فى أولى خطبه ضد فيليب حين أضاف الى براهينه السابقة برهانا آخر يثبت به تفوق الأثينيين على فيليب فذكرهم بما أحرزوه من نصر على عدو أكثر قوة وأشد بأسا من فيليب نفسه ، ذلك العدو هو أهل اسبارطه (٣) .

ويدخل ضمن هذه المقارنة البرهنة المستمدة من الشخص نفسه أو من مسلكه ، اذ من الممكن أن يستغل مسلك الخصم أو منطقه الذى يعتمد عليه ليؤخذ من ذلك حجة عليه لا يسعه الا أن يعترف بها والا فسيحكم عليه بالتناقض مع نفسه . من ذلك ما نجده من موقف ـ سينا ـ (٤) Cinna ـ حينما اكتشفت مؤامراته ، فهو يزعم أنه تآمر ليعيد الى الوطن حريته ، ولكن أوغسطس فى منظر آخر من المسرحية يعارضه حيث يقول ان المتآمر لم يكن له سوى هدف واحد ، ذلك هو احتياج روحه الى الحكم المطلق ، واذن فلم يكن سينا مخلصا ولا صادقا فى قوله :

---

١ ــ مدينة اولانث ــ Olynthe ، إحدى المدن الهامة فى اليونان قديما ، وكانت النجدة المطلوبة لها فى الوقت الذى كان فيليب يضيق الحصار عليها . المترجم

٢ ــ منطقة الاتيك ، هى عبارة عن الجزء الجنوبى من بلاد اليونان الذى تقع فيه العاصمة اثينا وقد عرف بصفاء سمائه ، وحسن موقعه . ونضرة طبيعته وجودة مناخه مما جعل الأدباء يتحدثون عنه كثيرا ويشيدون بوصفه وجماله المترجم .

٣ ــ اسبارطة ، معروفة قديما بحصانة موقعها وشجاعة سكانها التى كانت مضرب الأمثال ، وقد خربت على مر الأيام ولم يبق من آثارها الآن سوى أطلال بالية . ولقد لعبت هذه المدينة دورا اساسيا هاما فى تاريخ الأغريق ، كما لعبت دورا حربيا له خطورته المترجم .

٤ ــ سينا ــ Cinna هو من نسل پومپى ، وقد عرف عنه أنه صنع مؤامرة ضد أغسطس ولكن أغسطس قد أصدر عفوه عنه بعد أن اكتشف تلك المؤامرة المترجم .

ولو أنني أصغيت الى سياستك لتوقف سلام الوطن على حاكم مطلق يأخذ فى يده مقاليد الأمور كلها لكى يحتفظ بكل شيء . ولو أنك باسم الحرية كنت تعتدى وتقاتل فإنك ما كنت لتمنعنى أبدا من إعادة هذه الحرية .

وكثيرا ما يلجأ المحامون إلى هذا النوع من البرهنة حينما يثيرون أمام المحكمة التى يترافعون فيها ما صدر عنها من أحكام سابقة أو من فتاوى قانونية . فتراهم يقولون مثلا إن المحكمة قد قضت بكذا فى قضية مشابهة من كل الوجوه إلى هذه القضية التى بين أيديكم اليوم . وإذن فعلى المحكمة أن تقضى بنفس الحكم إن لم يكن فى نيتها العدول عن حكمها السابق .

سابعا : المواقف المتعارضة ، ويقصد من ذلك أن يؤدى موقف ما إلى نتيجة بالنسبة لعمل ما ، ثم تستنتج نتيجة جديدة تتعارض مع النتيجة الاولى فى صالح عمل آخر له صلة بالعمل الاول ، فمثلا يقول سيسيرون فى كتابه عن الخطابة فى الفصل الثانى ما نصه : « إن جراكوس - Gracchus - يعتبر مجرما حين أشعل الثورة الشعبية ، وإذن فإن - أوبينيوس - Opinius يعتبر بريئا حين أعدم جراكوس »(١)

ثامنا : الامور التى يناقض بعضها البعض الآخر ، وبيان ذلك أن نحاول التقريب بين حادثين متناقضين أو بين خبرين لا يمكن أن يصدقا معا ، فاذا صح أحدهما ثبت كذب الآخر ، وذلك كما حدث بين الذئب والحمل ، يقول الذئب :

إننى أعلم انك شتمتنى فى العام الماضى .

فيجيبه الحمل :

« وكيف يمكن ذلك وأنا لم أكن قد ولدت بعد ؟ وهذه المواطن العامة ، التى هى موضع سخرية كثير من كتب البيان ، ليست سوى محاولة تنظيم منهجى . وبعد فإن التمييز بين أنواع البراهين التى تتناسب مع الموضوع مرده إلى الفطنة والتفكير السليم .

---

١ - Cicéron, de oratore, II, 40

اختيار البراهين

إن من واجب الخطيب ألا يلقى القول جزافا والا يتخذ سهمه مما يصادفه من أنواع الاخشاب . فمن الضرورى اذن أن تكون براهينه ، كما يقول ارسطو، واضحة الدلالة ومفحمة (١) ، فليس هناك أضرعلى البرهنة من الادلة المشكوك فيها ، ذلك لانها تضعف من الادلة الصالحة بما توحيه من أن الخطيب ليس متأكدا من قوة هذه الادلة الصالحة مادام يرى من الضرورى أن يدعمها ببراهين واهيه .

ب - النظام

أما النظام فهو متصل بطريقة التأليف ، وله وجهتان : الاولى تنظيم كل برهان على حده ووضعه فى الصيغة المنطقية الخاصة به، الثانية جمع البراهين المختلفة ثم العمل على التنسيق فيما بينها .

أولا - الأنواع الرئيسية من البراهين

ا - القياس ، **Syllogisme** وهو عبارة عن الصيغة الكاملة للبرهان، وهو يتألف من ثلاثة أجزاء ، ففى الجزء الأول ويسمى بالقضية الكبرى يبدأ البرهان بمبدأ عام قد ثبتت صحته بدون معارضة أو قابل للإثبات بطريقة لا يتسرب اليها الشك؛ وفى الجزء الثانى ، ويسمى بالقضية الصغرى ، ينصب الكلام على إثبات حالة خاصة بطريقة محكمة مضبوطه ؛ وفى الجزء الثالث ، ويسمى بالنتيجة ، يكون القصد بيان أن هذه الحالة الخاصة تدخل ضمن المبدأ العام . ولو أخذنا مثلا دفاع سيسرون من أجل - ميلون - **Milon** - لوجدناه صورة من هذا القياس الآتى : إنه عمل مشروع أن يدافع المرء عن حياته ضد اعتداء غاشم ، ويدل على ذلك صالح المجتمع ووضع القانون . الحق أن كلوديوس - **Clodius** - قد هاجم ميلون بدون أدنى مبرر : وهنا يحاول الخطيب (سيسرون) جهده أن يثبت ذلك بواسطة مسلك كلوديوس . وإذن فقتل ميلون كلوديوس يعتبر عملا مشروعا .

---

١ - أنظر **Rhétoripue, I-III, ch. xvI.**

والجزء الأول والثانى من هذا القياس يسميان مقدمه (بريميس - prémisses) .
غير أن أرسطو كان يرى أن القياس يتصل بالمنطق أو بالمناقشة الفلسفية والعلمية أكثر من اتصاله بالخطابه ، وأن البرهان المفضل بالنسبة للخطيب إنما هو القياس المضمر ، أو المختصر ، وهو القياس الذى يشتمل على القضية الكبرى وعلى النتيجة فقط ، ويسمى أنتيمين - Enthyméne ؛ فهو أكثر حيوية وأشد ملاءمة لما ألفناه فى الطريقة العادية للبرهنه .

ب - القياس المضمر .

وهو قياس مختصر لإننا نحذف منه قضية يمكن بسهولة الاستغناء عنها ، ومن هنا كان اشتقاق اسمه Enthyméne » ، وهى كلمة يونانية معناها « لدى فى عقلى أو فى إدراكى » . وإذن فكل برهان من هذا النوع يمكنه نظريا أن يؤلف قياسا كاملا ، أى قياسا من النوع السابق ، ففى قصة الذئب والحمل ، التى ألفها لافونتين، نجد الحمل يدحض قول الذئب بواسطة أقيسة مضمره ، فهو يجيب على عتاب الذئب من أنه عكر ماء النهر بقوله :

إننى أعيذ جلالتكم من الغضب ، والأولى بكم أن تعتبروا .

وهنا القضية الصغرى:

انى كنت أشرب من مجرى النهر على بعد عشرين خطوة من جلالتكم ، وكنتم أنتم فى أعلى النهر أما أنا فكنت فى أسفله .

وهنا النتيجة :

وأننى بناء على ذلك لا أستطيع بأية حال أن أعكر على جلالتكم الشراب .

وهنا نجد القضية الكبرى مضمرة ولكنها تبدو واضحة للعين تماما وهى : ومن المستحيل أن يعود مجرى النهر إلى الوراء .

وكذلك فى نفس القصة نجد الحمل يجيب على الذئب الذى اتهمه بأنه شتمه فى « العام الماضى » :

وكيف يمكننى ذلك ،

(وهنا نجد النتيجة السلبية فى صيغة استفهام) وأنا لم أكن قد ولدت بعد ؟

ويرد المعتدى (الذئب) :

لو لم تكن أنت فإذن أخوك .

ويدحض الحمل من جديد فيقول :

ليس لى أخ .

وهنا فى هذه المرة نجد النتيجة نفسها مضمره . ومن الممكن أن يتكون البرهان من مجموعة من الأقيسة المضمره حيث يمكن عن طريق حقيقة ثابتة البرهنة على حقيقة أخرى مشابهة لها ، وحينئذ تنطبق هذه الحقيقة على الحالة الخاصة التى هى موضع الكلام ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله بوسويه :

« وإذا كان الله يهب للمتقين سعادة زمنية جزاء عبادتهم فكم يكون أعظم من ذلك ما يهبه لهم من سعادة حقه ، أى من فضائل (١) » .

ج ـ البرهان القاطع ذو القضيتين المتباينتين ، وهذا هو المقصود من الكلمة اليونانية ـ ديليم ـ Dilemme . وهو عبارة عن قياسين مضمرين ينتهيان حتما إلى نتيجة واحدة . ومن امثلة ذلك ما يستعمله ماتان(٢)ـ Mathan لكى تتعهد أتالى(٣) Athalie بالتخلص من الطفل جواس (٤)Joas حيث يقول : إما أن يكون هذا الطفل ابنا للملك ، وإما أن يكون غير معروف النسب ؛ ومع كلا الافتراضين يجب قتله :

وإليك القياس المضمر الأول فى مسرحية ـ أتالى ـ(٥) لراسين :

فلو كان من أصل عريق لكان مستقبله السعيد داعيا إلى التعجيل بقتله .

---

(١) Bossuet. oraison funebre de Marie-thérèse

(٢ و ٣ و ٤) هى أسماء أشخاص فى المسرحية

(٥) Racine Athalie , acte II sc.v.

وهذا هو القياس المضمر الثاني فى نفس المسرحية :

ولو كان من أصل وضيع فمن الخير قتله وإخفاء أثره ، إذ لا أهمية له ؟

ثانيا — ترتيب البراهين

أما فيما يختص بترتيب البراهين فإن سيسرون ينصح ، كما ينصح من بعده - كاتيليان - باستعمال الترتيب الذى يسير عليه القواد الحربيون ، الذين يضعون الجنود الأقوياء فى المقدمة ، والأقل قوة فى الوسط . والأبطال فى المؤخرة ، إذ من المهم فى الواقع أن يفجأ الخطيب مستمعيه أولا بالبرهان المقنع ، وإلا فسيشعر المستمعون منذ البداية بشعور ردىء ، وحينئذ سيصعب على الخطيب بعد ذلك أن ينتزعه منهم. كما أنه من الضرورى أيضا فى آخر الخطبة وفى نفس اللحظة التى يتخذ فيها القرار أن يتركهم تحت التأثير القوى لبرهان لا يقبل الجدل . وأما البراهين المتوسطة فنى وضعها بين البراهين المقنعة ، التى فى المقدمة والتى فى المؤخرة ، تعتبر بمثابة دعائم لتقوية ما سبقها وما لحقها .

٢ - الاقناع والتأثير

أهمية الاقناع —

إن مهمة الخطيب لا تنتهى عند مرحلة نقل الفكرة إلى عقول المستمعين وبيان ما يجب عمله بيانا شافيا . فالمستمع يستطيع أن يرى الخير ولكنه لا يجد دائما العزيمة لعمله . وهناك فرق بعيد بين الفكرة والعمل ، كما أن هناك عوامل عدة تشل إرادة المرء وتحول بينه وبين اداء الواجب ، وتلك العوامل هى الأنانيه ، والمنفعة الشخصيه ، والشرف ، والعاطفة ، والاشمئزاز من بذل المجهود . وخلاصة القول هى أن الخطيب لا يكتفى بالاقناع عن طريق القول ، بل من واجبه أن يصل إلى القلب فيقنع عن طريق اليقين .

« إن الاقناع المنطقى ، الذى يسلب العقل حريته ، ليس له على القلب أو على الروح أدنى سلطان ، ومن أجل ذلك فإن إرادة المرء تستمر فى معارضتها القوية

العنيده حتى مع الاستسلام الكامل من جانب العقل . وعلى العكس من ذلك الاقناع عن طريق القلب فإنه يجرد الروح تجريدا لا شعوريا من كل أنواع المعارضة حتى ولو لم يصل الاقناع المنطق إلى نفس الدرجة التى وصل إليها الاقناع القلبى. إن سلطة الاقناع المنطق تعتبر سلطة ظاهرية مكشوفة؛ وأما سلطة الاقناع القلبى فإنها تتسرب بعمق فى كل ثنايا النفس الداخلية وتستغل كل الوسائل الممكنه لكى تصل إلى الاستمالة والإغراء والتأثير . فالأولى تسيطر على العقل، والعقل قوة سلبية ، والثانية تكتسب فتأسر ، فتؤثر فى كل إمكانيات الروح الايجابية، ثم فى الخيال وفى الإحساس، ثم بواسطة هذين العاملين المهمين تستطيع أن تستحث الإرادة (١) » . وهكذا تستطيع الخطابة أن تستحوذ على الانسان كلية ، وأن تستولى منه على كل المسالك المؤدية إلى إرادته .

هذا والعامل الرئيسى من عوامل الاقناع القلبى إنما هو التأثير .

تحديد معنى التأثير (٢) [pathétique]

ويقصد من ذلك كل ما له دخل فى إثارة العواطف والإحساسات عند السامع على شرط أن يكون متصلا بالحقيقة أو بالموضوع الذى يراد البرهنة عليه. وهدف ذلك التأثير هو تصوير تلك الحقيقة أو ذلك الموضوع بصورة محبوبة جذابة . وذلك كالذى يقرره لنا مؤلف كتاب ـ التقليد ـ (٣) Imitation ـ فى عبارة تدل على قوة إدراكه النفسى المرهف ، إذ يقول : « أينما يوجد الحب لا يوجد الألم » . ويستطيع الخطيب بدل أن يثير احساسات تضر ببراهينه أن يخلق إحساسات جديدة تقوى موقفه وتدعم مجهوداته .

---

(١) Marmontel, Eléments de littérature, t. II.p.a5.

(٢) هذه ترجمة لكلمة pathétique — وهى مشتقة من كلمة يونانية [باثيتيخوس Pathitichos] ومعناها المثير للعواطف والإحساسات . المترجم .

(٣) هذا الكتاب لم يعرف مؤلفه بالضبط . وقد كتب بأسلوب قوى وباللغة اللاتينيه ، ويرجح أن مؤلفه هو الراهب توماس . المترجم.

مصدر التأثير

إن هذا التأثير ينبعث أصالة من تأثير المتكلم نفسه . وكان الشاعر اللاتيني ـ هوراس ـ ينصح بقوله:اذا أردت مني البكاء فعليك أولا أن تبكي(١)»؛وهذه النصيحة تنطبق تماما على المسرح كما تنطبق بصفة خاصة على الخطابة . والخطيب الذي يشرح أفكاره عن موضوع في هدوء يشبه هدوء المهندس يلوح عليه عدم المبالاة وقلة الاهتمام ، وحينئذ يناله سوء الطالع فيترك مستمعيه في نفس الموقف من عدم المبالاه ؛ فالتـــأثير ، على عكس ما يظن النـاس ، أشبه شيء بالأمراض المعدية والخطيب الساخط حين يتبرم بالألم يجد صدى سخطه عند مستمعيه ، وحينما يشيد بوسويه ، وهو في أشد حالات الانفعال مما يملأ نفسه من التقدير والاعجاب ، بالحمية الدينية للقديس بولس ، ثم يجعلنا نتسلل إلى هذا القلب الملتهب من أجل الاحسان الأخوى » ، نقول إنه حينما يصنع ذلك يجعلنا بدورنا نتحرق شوقا للاقتداء به في هذا الصنيع المثالي ، وكثيرا ما تحدث الناقد الفرنسي ـ برونتيير(٣) ـ Brunetiére في دروسه وفي محاضراته الأدبية عن شاعرية بوسويه ، وهـذه كلمة صدق ، أعني شاعرية بوسويه، وهي لاتنطبق فقط على بوسويه ، وانما تنطبق على كل أمرىء يكون خطيبا بمعنى الكلمة ولا بد للخطيب الجدير بهذه التسمية من أن تجتمع فيه شخصيتـان متكاملتـان ، هما شخصية المنطقي وشخصية الشاعر ، غير أن تأثير هذه الأخيرة ينبغي ألا يبدو إلا لماما . وفي استطاعته بعد ذلك أن يحول كل ما يدور في خلده من أفكار إلى احساسات شخصية دون أن يتصنع ذلك أو يتكلفه . وعلينا الآن أن نختبر هذه الاحساسات في مظاهرها .

التعبير التأثيرى

يمكن الحصول على هذا التأثير بواسطة أمرين ، الأول الاسلوب الخطـابي ، والثاني الحركة الخطابية أو العمل الخطابي .

---

١ - Art poét ., 102, 103

أولا - الأسلوب الخطابي

الصور التي هي وليدة الانفعالات العاطفية [قد شرح نفس المؤلف هذه الصور كما شرح الصور التي هي وليدة الخيال في كتابه «Théorie de la Composition Littéraire, p. 274 - 279.

لا يمكن للفكرة القوية أن تبقى كامنة في زوايا الذكاء ، بل لا بد لها من أن تتحرك ويتردد صداها في الملكات الأخرى عند الإنسان ، وأول هذه الاصداء هو الذي ينعكس على ملكة الإحساس فيحركها ويثيرها ، ومن هنا تتولد الحركات الخطابية . وعندئذ تفقد الجملة في الكلام سيرها الهادىء الرتيب لكي تتخذ لها طريقة جديدة من السير فيها حيويه وفيها قوة . وعندئذ أيضا تكتسى الأفكار بعبارات فيها النبرات القوية المرتفعة ، وفيها الاستفهام، وفيها الالتفات(١).وطريقة الخطيب

---

١ — ولقد حاول - فينيلون - في كتابه Dialogues sur l'Eloquence أن يبرز الفرق بين التعبير الخطابي والتعبير العادى فنقل تعبيرا خطابياً حماسيا إلى تعبير معتـــاد يستعمله الناس في أحاديثهم الجارية ؟ واليك ما قاله في ذلك — فينيلون — : « يقول سيسرون إن أعداء جراكوس أنفسهم لم يستطيعوا أن يمتنعوا عن البكاء حينما نطق بهذه العبـارات : ماأتعسني أين أذهب ؟ وأى ملجأ بقى لى ؟ ألجأ إلى الكابيتول ؟ إنه ملطخ بدم أخى . ألجأ إلى بيتى ؟ سأرى هناك أما بائسة تذوب من كثرة ماتذرفه من الدمع وتعانى الموت من شدة الألم. هذه هى العبارات الخطابية، ولو قيل هذا في هدوء لفقد ما فيه من قوة ... وتعالو بنا نرى ذلك : فى هذه التعاسة لست أدرى اين أذهب ، فلم يبق لى أى ملجأ ؛ اذ أن الكابيتول لم يصبح بالنسبة لى الا مكانا ممتلئا من دم أخى ؛ وكذلك البيت لم يصبح بدوره سوى مكان سأرى فيه والدتى تبكى من الألم ؛ فالأمر كما وصفت فى البيت وفى الكابيتول نفس الشىء . ماذا صارت اليه هذه الحيوية فى العبارات الخطابية ؟ اين تلك التعبيرات الموجزة المفصلة التى تعين تماما طبيعة الانفعالات الصادرة من الألم؟ ان طريقة التعبير عن الشىء تكشف تماما عن طريقة الاحساس بهذا الشىء وذلك هو الذى يصل الى قلب المستمع ويهزه أكثر من أى شىء آخر . (الحوار الثانى 2me. Dialogue) ويضيف - فينيلون - بعد ذلك : « ولكى نصور العاطفة تصويرا جيدا يجب أن نحس بها ؛ وفن القول مهما سمت بلاغته لايمكن أن يصل فى التعبير الى ما تصل اليه العاطفه الحقيقيه »

فى تعبيره وفى برهنته تختلف تماما عن طريقة الفيلسوف ، فالأخير يضع براهينه فى ترتيب أو فى نظام عقلى وهندسى ؛ أما منطق الخطيب فهو منطق الشعور والإحساس ومن أجل ذلك فهو يلجأ إلى القياس المضمر بدل القياس الكامل ؛ إذ أن الأول أشد حيوية وأكثر سرعة ، فتراه يضع النتيجة فى أول جملته لكى تكون بمثابة صرخة مدوية من صرخات الاعتراض وعدم الرضا وعلى العكس من ذلك تجد الرجل المنطقى يضع النتيجة فى آخر تعبيره . وهكذا يجيب الحمل على سؤال الذئب ببرهان مركز مستقيم لكى يبرر موقفه بدل أن يطيل ويلتوى كما يصنع الخصم فى المعتاد .

وكيف أستطيع أن أصنع ذلك اذا لم أكن قد ولدت بعد ؟

وهنا نجد البرهان موجزا مركزا فى سؤال تهكمى ، والنتيجة تأتى من بعده . كما نجد فى موطن آخر البرهان ينحل الى نوع من الشكايات

يا الهى ! ومرة أخرى ، ما هو مصيرنا ؟ اذا القيت نظرى الى الامام ، فأى أبعادلا تنتهى حيث لا أجد نفسى فى مهامها شيئا مذكورا ! ولو عدت بنظرى الى الخلف فأى أحداث مفزعة لا حياة لى فيها ! ثم ما أشغله من وقت يعتبر ضئيلا جدا فى هذه الهوة السحيقة من الزمن (١) !

ب - الصور التى هى وليدة الخيال

وبعد أن يتأثر الاحساس ينطلق بدوره ليؤثر فى المخيلة ومن شأن هذا التأثير أن يستدعى الصور ، ومثال ذلك أن يتحدث المرء على لسان الحيوانات ، وأن يصور الشيء الذى هو موضوع الحديث بالألوان المتقنة حتى ليبدو للسامع كأنه يراه ماثلا أمامه . (وهاتان الطريقتان تعتبران من المحسنات البيانية ؛ الاولى منها تعرف باسم - بروزوبوبيه - prosopopée - ، والثانية باسم - هيبوتيبوز - hypotypose) ومن أمثلة ذلك ما نجده فى قصة الحمامتين ، حيث تتمثل تلك التى تبقى فى العش كل الهموم والاخطار التى تتعرض لها صديقتها فى الخارج فتقول :

---

١ - Bossuet, Sremon sur la mort, 1er point édit. Rebelliau, p 294

لن أفكر فى شىء سوى لقاء مشؤم ، ووقوع فى مخالب صقر أو فى شبكة صائد
و أسفاه ! هل لى أن أقول أيضا أن السماء تهطل مطراً ؟ واذن فهل لأختى كل
ما ترغب فيه من حساء طيب ، ومأوى وثير ، وكل ما لها فيه غناء (١) ؟ .

ان أحد البراهين التى لجأ إليها بوسويه ليبين بواسطته قصر الحياة هو التغير
المستمر الذى يطرأ على المادة ، أى أن أجسامنا تستخدم لخلق اجسام أخرى .
غير أن هذه الفكرة ، التى ليست سوى ملاحظة تجريدية تتناسب مع أحد الفلاسفة
تصبح لدى بوسويه إحساسا مركبا منتظا فى منظر ذى وجهين ، وانظر إليه حيث
يقول :

« إن الطبيعة ، وكأنما تحسدنا على هذه النعمة التى منحتنا اياها ، تعلمنا فى أغلب
الاحيان وتحاول أن تفهمنا بأنها لا تستطيع أن تترك لنا طويلا هذا القليل من المادة
التى اعطتناها كعارية ، والتى لا ينبغى أن تبقى فى أيدينا الى الابد ، بل يجب أن
أن تنتقل باستمرار من يد الى يد أخرى ، ذلك لأنها فى حاجة اليها من أجل
أجسام أخرى ، فهى تطلبها من أجل مخلوقات آخرين وهذه الدورة المستمرة بالنسبة
للانسان ، وأعنى بذلك أن الأطفال بعد الولادة لا يلبغون طويلا حتى يكبروا
ويتقدم بهم العمر ، وحينئذ يبدون لنا وكأنهم يدفعوننا من أكتافنا وهم يقولون
لنا : كفاكم ، انسحبوا الآن ، فهذا دورنا (٢) »

وبمثل هذه اللوحات الحية يستطيع الخطيب أن يوقظ المخيلة ويهزها هزا عنيفا
انه لا يكتفى بالتحليل ولا بالمناقشة ، ولكنه يصور بالألوان ويرى بكل وسائل
البيان . ينبغى ألا تكون براهينه فى سيرها صعبة جافة ، كما ينبغى ألا تمتلىء بهذه العبارات :
وعلى هذا ، وإذن ، اذ أن هذه الطريقة المدرسية لن تكون سهلة الاحتمال ، ولن

---

(١) La Fontaine, Fables, 1 IX, f. 11

(٢) Seremon Sur la mort 1er point p. 293

تتلاءم أبدا مع حالة التأثير والانفعال . انهيكل البرهان وما فيه منأجزاء مفصلة يتلاشى أمام حيوية الاسلوب ومايكتسى به منالوان . وعندئذ نرى الحياة تدب فى هيكل ذلك البرهان ثم يأخذ وضع الجسم المتناسق الأجزاء .

وفن القول هذا ، الذى يستطيع أن ينقلنا الى جو الاحداث ، وأن يمنحنا الاحساس بالواقع ، يستخدم أيضا فى القصة . وسنرى حينما نعالج موضوع القصص الخطابى ، مبلغ ما فى قصص بوسويه من حيويه ، اذ أن القصة لديه تصبح بمثابة تمثيلية . ومن أجل ذلك فمن الواجب ألا ننسى ، حين نتحدث عن الغنائية أو الشاعرية لدى الخطيب العظيم ، ما له من عبقرية دراماتيكية . ولقدكان فينيلون ـ مصيبا حين أكد أن « الشعر ، أى تصوير الأشياء بألوان حية ، ليس شيئا آخر سوى روح الخطابه » (١)

ثانيا ــ الحركة الخطابية أو العمل الخطابى ، وهو عبارة عن فن التعبير عن الإحساسات بواسطة الصوت ، والملامح ، والاشارة .

ا ـ الصوت

ليس بخاف أن جميع التأثيرات من أبسطها إلى أشدها تجد فى صوت الانسان أداة طيعة متغيره . فطورا يكون الصوت متوسلا، وطورا يكونساخطا ،وطورا يكون مبتهجا وطورا يكون شاكيا ، وهو فى كل تلك الأطوار إنما يتحدث عن الروح لا بواسطة الكلمات أو الجمل ، بل بواسطة ما يتشكل به من تغير وتبدل.

ب ـ الملامح

ويقصد بذلك تعبير الوجه وبصفة خاصة تعبير النظرات ، وفى هذا التعبير

---

(١) وبهذه المناسبة يضيف ـ فينلون هذه العبارة ذات الادراك المرهف : كثير من الناس يصنعون الشعر بدون شاعريه ، كما أن كثيراً منهم أيضا تملؤهم الشاعريه ، ولكنهم لا ينظمون الشعر » أنظر : op. cit 2e dialogue

خطابة حقيقيه ، إذ أن ملامح المرء تارة تشعر بالخطورة أو البساطة ، وتارة تشعر بالسعادة أو الشقاء ، وذلك حسبما يكون نوع الإحساس الذى يستولى على المرء .

م - الإشاره

ونعنى بذلك ما يصدر عن الجسم من حركات لها معانيها ، وعلى الخصوص حركات الأيدى والأذرع ، فمرة ينهض الجسم فى مظهر يعلن عن التحدى ، ومرة أخرى ينثنى فى مظهر يستدعى الحنان والشفقة . وطورا ينطلق الذراع إلى الامام فى مظهر يعلن عن التهديد ، وطورا آخر تتشابك الأيدى فى مظهر يعلن عن التوسل والرجاء .

ولقد كانت هذه الحركات الخطابية فى أثينا بسيطة محدودة . ولو أخذنا فى اعتبارنا ما قاله - بلوتارك (١) - فإن أول من اهتز واضطرب من « اليونانيين » على منبر الخطابة (٢) السياسية إنما هو - كليون (٣) .

وأما فى روما فكان الخطباء يضربون بأقدامهم ثم يذهبون على المنصة طولا وعرضا (٤) . وهذه الحركات التمثيلية تبدو لنا الآن مضحكة ، ولكنها بالنسبة للقدماء كانت تبدو ضرورية ، إذ أن الخطباء كانوا فى حاجة إلى ايقاظ الانتباه بواسطة هذه الحركات الكثيرة المفرطة ، كما كانوا فى نفس الوقت أيضا فى حاجة إلى أن يترجموا إلى أنظار المستمعين ما يلفظونه من كلام قد أضعفه طول المسافة بين الخطيب وبينهم . ومن الملاحظ بصفة عامة أن شعوب البحر الأبيض المتوسط يميلون بطبيعتهم إلى الحركات أثناء الكلام (٥) .

---

(١) بلوتارك (تقدم الكلام عليه فى ص ٥٦ من هذا المجلد)

(٢) كان هذا المنبر عند اليونانيين مربعا طول احد أضلاعه أربعة أمتار (المؤلف)

(٣) كليون : زعيم شعبى أثينى ؛ كان طموحا وجريئا ولكنه كان كثير الوعود قليل التنفيذ وقد مات سنة ٤٢٢ قبل الميلاد المترجم

(٤) أنظر : Cicéron Orator, ch. x,

(٥) وهذا تعبير صادق الى حد بعيد ، فأنت قلما تجد انسانا من هذه الشعوب يتحدث دون أن يستعمل الاشارات برأسه أو بعينيه أو بيديه أو بجميع ذلك . (المترجم)

أهمية هذه الحركات الخطابية أو العمل الخطابي

لقد اتفق الخطباء وعلماء البيان في كل العصور على الاهمية الكبرى لهذه المظاهر الخارجية للخطابة التي نسميها الحركة الخطابية أو العمل الخطابي. ونحن نعرف جميعا جواب - ديموستين - على ذلك الشخص الذي طلب إليه في أحد الايام : ما هو أهم جزء في الخطبه ؟ فقال « إنه الحركة الخطابية . فقال له : وما هو الجزء الذي يليه في الأهمية ؟ فقال : انه الحركة الخطابية . ثم قال له : وما هو الجزء الذي يقع في المرتبة الثالثة ؟ فقال : إنه الحركة الخطابية (١) ».

وتجمع الروايات كلها على أن الحركة الخطابية عند ديموستين كانت مُلْهِبَة . ومن المعتقد أن يكون هناك بعض المبالغة في ذلك الجواب الذي ينسبونه إليه، ذلك لان البراهين في الخطبة تعتبر بمثابة الاساس . ودليل ذلك صنيع الخطيب اليوناني نفسه . ومع ذلك فان الحركة الخطابية أو العمل الخطابي لا يزال أحدى الوسائل القوية للتأثير على جمهور المستمعين ، وخصوصا إذا كان المستمعون من عامة الشعب، إذ أن هذا التأثير بعد أن يمتزج بالالفاظ يكون صورة من صور الشعور والإحساس. وعندئذ يستطيع في سهولة أن يتسلل إلى نفوس الطبقة العامة التي لم يهذبها التثقيف بل إن الأمر أكثر من ذلك فإن ما يُرَى، وما يُسمع من تعبير بالملامح ، ومن إشارات مبعثها الألم واليأس ، ومن صرخات مختلفة ، كل ذلك يقرع إحساس الناس جميعا بدون تمييز ، ومن شأن هذا الاحساس أن يهز الاعصاب فيهتز له الإنسان بكلياته .

اللهجة أو النبرة الرحيمة

ليس من شأن التأثير العاطفي أن يكون دائما تأثيرا عنيفا يمكن الوصول اليه

---

(١) يذكر سيسرون هذه القصة في الفصل العاشر من كتابه Orator ولم يكن في التراجيدى اليونانيه سوى أشخاص ثلاثة قد وكلت اليهم مهمة الكلام ، هم الشخص الأول ، والشخص الثاني والشخص الثالث ، واهمية كل واحد من الثلاثة تتفق مع درجته في الترتيب . ويشير السؤال الموجه الى ديموستين الى هذا التقسيم (المؤلف)

بواسطة الاسلوب القوى والحركات المركزه . فهناك نوع من التأثير العاطفى يمتاز باللطف والرقة والتسلل إلى مسالك المشاعر دون تكلف . ويعرف هذا النوع من التأثير لدى البيانيين من رجال الدين باللهجة أو النبرة الحزينة . وينبعث هذا التأثير من الإحساس بالرحمة لا من الذكاء المتوقد،ومن صفاته أن يتسلل إلى حنايا النفس ولا يعمل على استدراجها ، ومن صفاته كذلك أن يبعد أو يتجنب العقبات بدل أن يحاول إزالتها أو تدميرها بالقوة والعنف؛ومن صفاته أيضا أن يلجأ إلى التعبير بصوت أخوى يملؤه الحنان لا بصوت متسيطرقاهر ؛ ومن صفاته أخيرا أن تكون الأشارة بالنسبة له أشارة تلطف وحنان لا إشارة سخط وعنف .

قوانين التأثير العاطفى

هناك قانونان يتحكمان فى استعمال التأثير العاطفى . إذ أن التأثير لدى الخطيب يجب أن يتفق أولا مع الموضوع ومايشتمل عليه من أفكار، ثانيا مع طبيعة الخطيب نفسه .

أولا : هناك بعض الموضوعات التى لا تحتمل الخطابة فى صورها الرفيعة الرائعة ؛ فالمحامى الذى يدافع فى قضية تافهة ، كقضية تتصل بحائط بين شريكين ، والقس الذى يؤنب الناس على أخطاء لا خطورة لها قد يبدو كل منهما مضحكا حينما يتحمس وينطلق فى حركاته الواسعة وإشاراته العريضة ، كما لو كان الوطن فى خطر أو كما لو أن جريمة من أفظع الجرائم قد ارتكبت . وحتى فى أشد الأمور خطرا يمكن الالتجاء إلى الأفكار البسيطه والآراء اليسيره التى لا تتطلب إلا الأسلوب السهل ، ولا تحتاج من ذلك إلى أن تدعم بأشارة الأيدى ونبرات الصوت. وليس أثقل على النفس من صنيع أولئك الواعظين الذين لا ينقطعون عن ابداء التبرم وتكرار الشكوى (١) .

---

(١) ولقد سخر فينيلون من الواعظين الذين يلتزمون حالة واحدة من التبرم فى اشاراتهم =

ثانيا : تختلف درجة الاحساس باختلاف الناس ، كما أن الأفكار نفسها لا تؤثر فينا جميعا بطريقة واحده . وإذن فمن المهم أن يكون مظهر التعبير وطريقة إلقائه متفقين تماما مع درجة التأثر الذى نحس به . ومن أجل ذلك يجب ألا نبالغ فى جانب الإفراط ولا فى جانب التفريط فنغير ملامح الخطبة الطبيعية بملامح المحسنات الصناعية أو البيانية التى لم تعد تخفى على إنسان . وهنا ينبغى أن نتمثل بهذا القول :

كل أمرىء يزداد فى زيه حسنا .

إذا لم يكن إحساسنا قويا فلنتكلم كما نشعر، وإذا أعوزنا التأثير العاطفى فلنكتف باللهجة الرقيقة والنبرة الرحيمة .

٣ ـ الوسائل المساعدة بالنسبة لحالة الاقناع

العادات الخطابية والأدب الجم :

تعتبر البرهنة والتأثير العاطفى من العوامل الهامة الاقناع، غير أن هذين العاملين لا يوصلان إلى تلك النتيجة إلا إذا اكتمل فى الخطيب بعض الشروط التى أقرها سلفا علماء البيان ، وهذه الشروط هى : العادات الخطابية ، والأدب الجم .

العادات الخطابية

ونعنى بذلك الصفات الحميدة التى تحبب المستمعين فى الخطيب وتعدهم للوقوف بجانبه . وهذه الصفات إنما هى بمثابة مقدمة للاقناع، ثم أنها بعد ذلك تهيء الطريق

= وفى نبرات أصواتهم ، اذ قال :

« ومنذ زمن أخذنى النعاس وأنا اسمع الواعظ ، وأنتم تعلمون أن النعاس يفاجىء المستمعين فى عظات بعد الظهيره . ومن أجل ذلك فأن القدماء كانوا يعظون الناس فى الصباح أثناء الصلاة أو بعد تلاوة الانجيل . واستيقظت بعد برهة فسمعت الواعظ يضرب بقدميه ويهتز بكل جسمه ؛ وحينئذ ظننت أنه فى أخطر جزء من أجـــزاء خطبته ولـكن ما أشد دهشتى حينما علمت أنه يعلن الحاضرين بما سيتحدث عنه من أمور التوبة فى يوم الاحد المقبل . ولقد كانت المفاجأة شديدة على نفسى مما رأيته من حماس بالغ فى طريقة الاعلان ، ولولا قداسة المكان واحترام الخطبة لغلبنى الضحك . » (op. cit, 2e dialogue)

لهذا الاقناع ، ولا تحيد عن السلوك فيه . إن سوء السمعة لبعض المحامين قد يضيع أهم القضايا وأولاها بالحكم فى صالحها . وعلى العكس من ذلك قد يسير بعض القضايا فى سبيل الكسب قبل أن يتفوه المحامى بكلمة واحدة .لالشيء سوى ما يتمتع به ذلك المحامى من سمعة شريفة طيبه .

وهذه الصفات التى تستميل المستمعين إلى الخطيب منها ما هو عقلى ، ومنها ما هو خلقى . ففى ميدان الصفات العقلية يطلب إلى الخطيب أن يكون ملما بموضوعه إلماما كاملا ؛ إذ أنه مما يستدعى السخرية دائما أن يحاول الجاهل بموضوع ما أن يفهم من هم أعرف منه بهذا الموضوع . قد يجد كل من الصيدلى ، الذى يتحدث فى خطبته عن مسائل الاقتصاد ، والطبيب ، الذى يتحدث عن أمور الجيش ، نقول قد يجد كل منهما أهل الدراية من بين مستمعيه منصرفين عنه وفى شك مما يقول . وأما فى ميدان الصفات الخلقية فيطلب إلى الخطيب أيضا أن يكون ذا شرف. ومن واجبه أيضا ، كما يقول ـ كاتون القديم[1] ـ Caton l'Ancien : « أن يكون من أهل الخير ، متخصصا فى فن القول » وكما قالوا عن القسيس ـ دى رافينيـــان ـ Pére de Ravignan ـ «إنه يمثل الفضيلة التى ترشد الى الحقيقة ». وأسمى العظات فى الواقع هى تلك التى تكون مضرب الأمثال . فمن العيب أن يتحدث عن العدالة من ينتهك حرمتها ، وعن القانون من لا يحترم القانون . وعن المنفعة العامة من لا يفكر الا فى منفعته الخاصة . وعلى العكس من ذلك حينما نرى إنسانا يعتلى منصة الخطابة ، وقد عرف بالصدق والخير ؛ فإن المستمعين يصلون الى نصف درجة الاقناع لمجرد رؤيتهم له ، اذ أن مكانته الخلقيـة السامية تعتبر شهادة قيمة بالنسبة

---

(١) كاتون القديم Caton La Ancien ؛ هو أحد الشخصيات اللاتينيه البارزه، اشتهر بالوطنية والاخلاص والتمسك بالاخلاق الصلبه حتى لقد كان يضرب به المثل فى . ذلك تولى منصب الرقيب وهو من اخطر مناصب الدولة وكان يعارض كل مظهر من مظاهر التحضر فى روما زاعما أن ذلك يفسد الخلق. ولد سنة ٢٣٢ ق.م. ومات سنه ١٤٧ قبل الميلاد. المترجم

الموضوع الذى يتحدث عنه . ومن هنا كان سر إنتشار الأنجيل بسرعة شديدة على يد الحواريين . » هذا ولما كان أوائل الأساقفة يتوكؤن على العصى ويسيرون بأقدامهم الحافية فأنهم استطاعوا أن يصلوا الى أماكن نائية(١) » .

الادب الجم

من واجب الخطيب أن يراعى قواعد الأدب، ومعنى ذلك أن يكون لديه إحساس بما يليق ويناسب . ومن أجل ذلك فهو يستطيع أن يتجنب كل ما يجرح شعور المستمعين ، كما يستطيع أن يتخذهم أعوانا له لا أعداء لأفكاره وآرائه. إن الأحساس بما يناسب ويليق ليس شيئا آخر سوى نوع من الحكمة والإصابة فى الرأى يضاف الى فن القول . ويقول سيسرون عن موهبة الحكمة والإصابة فى الرأى : « انها أساس الخطابة، كما أنها أساس لكل شيء آخر(٢) » . ويضيف سيسرون الى ذلك قوله: « ففى الحياة . كما فى الخطبة : لاشيء أصعب من ادراك ما يناسب ويليق(٣) » . وعلى الخطيب اذن أن يأخذ فى اعتباره ويذكر فى كل لحظة هذه الأمور الآتية :

أولا ما يمتاز به هو من طبائع خاصه ، فليس من المحتمل أن يتحدث قسيس أو واعظ دينى عن موضوعات ينبغى أن تصدر عن لسان طبيب أو عن لسان رجل اجتماعى . وكل ما يستطيع أن يصنعه القسيس أو الواعظ فى مثل هذه الموضوعات هو أن يكشف فقط عن بعض نواحيها مستعملا فى ذلك مجرد الإشارات البسيطة .

ثانيا : ما يمتاز به المستمعون كذلك من طبائع خاصة؛ ان الحديث مع الأطفال أو مع القرويين ليس كالحديث مع أصحاب الأفكار العميقة أو العقول المثقفة . ومن جهة أخرى فإن العظة الدينية التى توجه الى أناس ذوى عقول ناضجة تكون فضيحة شنيعة اذا قيلت أمام جمع من الآنسات . ومن الواجب بصفة خاصه تجنب

---

(١) Madame Severine

(٢) Orator, ch. x11.

(٣) Orator, ch. x111

اللهجة التى تشعر بالكبرياء ، والمظهر الذى يحس منه الترفع والادعاء ، والتقريع الذى يفتح باب الشتائم والسباب . يجب أن نعرف كيف نوفق بين التواضع والسيطرة على الموقف ، وبين اللطف والحزم ؛ كما يجب ألا يغيب عن بالنا أبدا ما يعرف فى علوم البيان بالحيطة الخطابية، ومراعاة اللغة الدارجة ما أمكن ذلك

ثالثا : موضوع الخطبة ، وذلك أمر هام بدوره ؛ فالمحامى الذى يترافع فى موضوع سداد دين ، لا يستطيع أن يلجأ الى الأساليب الخطابية من قول وحركة واشارة التى يستعملها حينما يكون أمام محكمه عسكريه وفى قضية موضوعها الخيانة .

رابعا : الظروف الزمنية والمكانية ، حينما يصاب الوطن بنكبة أو أسرة من الأسر بفجيعة فإن الموقف لا يحتمل الأساليب البيانية المزدهرة ، ولا المحسنات البديعية ، ولا العبارات الملتوية التى تلعب بالعقول ، ولكنه يحتاج الى الخطابة المركزة الرزينة . وكذلك لا ينبغى أن نتحدث فى الكنيسة كما نتحدث فى صالة المحاضرات .

المقالة الرابعه

الأجزاء التى تتألف منها الخطبة

يمكن أن تشتمل الخطبة على سبعة أجزاء هى : المقدمه، عرض الموضوع وتقسيمه، والجزء القصصى منه ، أدلة الاثبات ، التفنيد ، والخاتمه . ولا توجد دائما هذه الاجزاء مجتمعة والأجزاء الأساسية منها هى : المقدمه ؛ عرض الموضوع ، والاستدلال ، والخاتمه .

ولكى يتضح لنا مبلغ طبيعة هذا الاختصار نذكر هنا ملاحظة دقيقة رواها عن والده جيروزيز - Géruzez ، وهو أحد مؤرخى الأدب الفرنسى فقال :

حينما يحتاج طفل الى شىء من والديه فأنه يقترب منهما فى مظهر خضوع ولطف، ويوجه اليهما كلمات فيها رقة ومداهنة ، ثم يسأل عن صحتهما . وبعد هذه المقدمة يستأذنهما فى الانصراف أو فى عمل نزهه ، أو فى اعفائه من العمل (١) ؛ ولو بدا

عليهما قليل من التردد فأنه يعدهما بمضاعفة نشاطه ،وهذاهو الاستدلال. وأخيرا لو بدا عليهما شيء من عدم التصميم فإنه يجمع حججه وبراهينه فى الخاتمة . وبهذا يقوى عزمهما بما يظهره لهم من ملاطفة ومداهنة وبكاء . ان الطفل فى هذا يسير سير الخطيب اذ أن هذا هو السير الطبيعى . إن بناء الخطبة يشبه الى حد كبير بناء الأثر الفنى ، فهو فى كل منهما يكون وحدة كاملة . ولقد قارن ارسطو فيما مضى مقدمة الخطبة بالجزء الاستهلالى فى الشعر ، وبالافتتاحية فى الموسيقى(٢). والمقدمة فى المسرح كذلك تبين لنا فى الواقع طبائع الأشخاص الرئيسيين وحالة الحوادث فى نفس اللحظة التى يرفع فيها الستار ؛ ومن خلال ذلك نلمح موضوع المسرحية التى نشرع فى الاهتمام بها . وكذلك تبين لنا مقدمة الخطبة استعداد الخطيب والمستمعين معا ، كما تبين لنا حالة الموضوع الذى سيعالج والذى يمكننا من هذهالمقدمهأن ندرك مدى أهميته . والسير المتقدمفىسبيل الاستدلال يشبهالعمل أو الحادث الدراماتيكى. وأما الاعتراضات التى تجيء فتوقف سير الخطبة بعض الوقت ، ثم تأخذ فى سيرها من جديد بعد التفنيد ، فهى شبيهة إلى حد كبير بالأحداث المفاجئة التى تعترض سير المسرحية . وأما الخاتمة فى الخطبه فهى تشبه تماما الحل فى المسرحية وذلك لانقطاع التردد واستمالة الارادة . وخلاصة القول أننا فى كل أثر فنى نجد نفس القوانين الأساسيه والعامة بالنسبة للتأليف ولكنها بأسماء مختلفة .

المقدمة

ويقصد من ذلك الجزء الذى يذكر فى أول الخطبة ليعرض فيه الخطيب موضوعه ويشرح أهميته ، ثم يحاول أن يسترعى انتباه السامعين ويستحوذ على رضاهم .

---

(١) وهذا هو عرض الموضوع الذى سيدور الحديث بشأنه (المؤلف)

(٢) Rhetorique, 1. 111, ch. xlv.

والناس لم تألف الحديث عن موضوع بدون مقدمـــة . واذن فمن الضرورى أن نقدم بعض الايضاحات الأولية بالنسبة للاسباب التى دعتنا الى الحديث فى هذا الموضوع ; فمن الأسباب التى يلجأ اليها المحامى الضرورة الملحة للدفاع عن مظلوم وضمان انتصار العدالة ، ومن الأسباب التى يلجأ اليها الواعظ الرغبة الشديدة فى العمل على تطهير نفوسنا . ومن شأن هذه الايضاحات أن تهىء نفوسنا لنشد أزر أمرىء يهتم اهتماما كبيرا بالمصلحة العامة أو الخاصة . ثم انها فى نفس الوقت تجعلنا نصغى باهتمام زائد الى الخطبة بعد أن عرفنا بعض الشىء عن موضوعها وخطورتها والأمور التى تتصف بها المقدمة هى الايجاز والوضوح والبساطة ، والتواضع . ولقد أصبحت القاعدة التى قررها ـ بوالو (١) ـ بالنسبة لهذه المقدمة أمرا معترفا به من الناس جميعا ، وها هى ذى قاعدة ـ بوالو ـ :فلتكن المقدمة بسيطة غير مشتملة على ما يشتم منه رائحة التكلف .

قد تكون المقدمة فى بعض الأحيان عنيفة قوية ؛ وقد تنطلق فى اثنائها صرخـــة قويه تعبر عن تأثير عميق . مثـال ذلك ما نراه فى الخطبة التى يرثى فيها بوسويه هنرييت ، أميرة انجلترا ، حيث يبدأها هكذا : لقد قدر لى اذن أن أقوم بهـذا الواجب المروع بالنسبة لهذه الاميرة ذات السمو النادر والقوة العظيمة ؛ تلك هى هنرييت ـ آن، أميرة انجلترى ودوقة أورليان.

وقد يحدث أيضا أن يكون التـأثير عميقا عند الخطيب منذ البدايه بحكم ما يحيط به من ظروف جليلة فيترجم هذا التأثير باسلوب رفيع وفقرات رائعة

---

(١) بوالو ، شاعر وناقد ممتاز ؛ خلف عـدة دواوين ولعل أهمهـا هو ديوان الهجاء تحت عنوان ساتير ، الذى ينقد فيه المجتمع وانظمته ، وقد أخذ عليه أنه لم يعترف بأوائل الشعراء الفرنسيين ولا بشعرهم وقد جرعليه ذلك كثيراً من النقد وأهم مايمتاز به شعره الدقة والصراحة. ولد سنة ١٦٣٦ ، ومات سنة ١٧١١ م. المترجم

وذلك كما حدث فى الخطبة التى رثى بها بوسويه هنرييت أميرة فرنسا .

وتشمل المقدمة فى المعتاد على عرض الموضوع وتقسيم الخطبة .

عرض الموضوع

ويقصد من ذلك بيان الموضوع ، وفى هذا يقول فينيلون :

« انه عبارة عن موجز للخطبة (١) » ومن أمثلة ذلك ما صنعه - بوسويه - حينما تحدث فأثنى على القديس بولس ، اذ قال فى أول حديثه : اريد أن أريكم مظاهر العجز عن هذا القس الكبير . . . . كما أريد أن أريكم أيضا كيف كانت هذه المظاهر مصدر قوة لاتحد عنده ، اذ بفضل ذلك استطاع أن يؤسس الكنيسه المسيحية »

التقسيم

انه من المستحسن بعد تحديد الموضوع أن تذكر وجهات النظر المختلفة التى سيتحدث عنها ، وهذا هو الغرض من التقسيم . ومن أجل ذلك فان بوسويه يعتبر رسالة القديس بولس منحصرة فى : « الدعوة الحقيقية ، والجهاد ، والحكومة الدينية » وتلك كانت النقط الثلاث الرئيسية » التى تناولها فى خطبته .

ومن شأن الأقسام فى الخطبة أن تكون طبيعية ، وأن تحدد الافكار الاساسية وأن ترسم الخطوط الهامة للخطبة . ويطلب الينا افلاطون فى كتابه - Phédre أن يكون صنيعنا فى الخطبة مثل صنيع الطباخ الماهر الذى لا يقطع أجزاء الذبيحة كيفما اتفق . بل يجزئها تجزئيا طبيعيا وفق ما فيها من فواصل ومفاصل . واليك ما يقوله فينيلون أيضا فى ذلك : « حينما نقسم الخطبة يجب أن يكون تقسيمنا بسيطا طبيعيا ، بمعنى أن يكون التقسيم غير متكلف بالنسبة للموضوع نفسه ، أى

---

(١) Lettre Sor L'occupation de L'Academie Française ch. 1v.

أن يكون التقسيم واضحا بحيث يضع كل جزء من الخطبة فى محله المخصص له ، وبحيث يكون كل قسم منها متماسكا على حدة ومعاونا على التماسك العام بين الأقسام الاخرى (١) ، ومن واجب هذه الاقسام أن تكون متميزة بحيث لا يدخل بعضها فى البعض الآخر . واذن فلن يكون هناك محل للتعارض بين الافكار الثانوية والافكار الاساسية التى تشتمل عليها . ولنوضح ذلك بالمثال ، فلو أردنا أن نعالج فى الخطبة هذا الموضوع : واجبنا نحو الاقارب ؛ فاننا لا نستطيع أن نقسم الخطبه الى العناصر الثلاثة الآتية : العدالة ، والطيبة ، والاحسان ، ذلك لأن الطيبة ماهى الاوجه من وجوه الاحسان . واذن فالتقسيم المعقول فى مثل هذه الخطبة هو الآتى : العدالة والإحسان ، وحولها يدور الحديث .

ولقد انتقد كل من فينيلون ، ولابرويير - La Bruyére ، وفولتير نظام التقسيم أو مبدأ التقسيم فى الخطبة وينظر فينيلون الى هذا التقسيم نظرة خاصة ، فيرى « أنه من عمل المحدثين » وأنه ميراث « من التعاليم المدرسية (٢) . وهنا يجب عدم الاعتراف بتلك التقسيمات المصطنعة ، كما يجب أن نوجه اللوم الى اولئك الخطباء الدينيين الذين يتحدث عنهم فينيلون (٣) ، والذين يتصورون أنه من الضرورى أن تنقسم خطبهم الى ثلاثة أقسام. يجب كذلك ألا نقر هذه المبالغة فى التقسيم ، وذلك كصنيع القسيس ، بوردالو Bourdaloue (٤) - الذى لا يكتفى بالتقسيم الرئيسى فقط ؛ بل بتقسيم ثانوى لهذه الاقسام ، ويلح الحاحا ثقيلا فى تقرير هذ المنهج بالنسبة لخطبته . وهذا المنهج الثقيل المضايق يشبه الى حد كبير الدعائم

---

(١) Fénolon Dialogue sur l'Elequence ,1er dialogue

(٢) نفس المرجع السابق 2me. dialogue

(٣) نفس المرجع السابق 1er dialogue

(٤) بوردالو Bourdaloue ؛ أحد رجال الدين البارزين من طائفة الجزويت ؛ ترك مجموعة من الخطب الدينية العظيمة تحت عنوان ـ سيرمون Sermon - ؛ وتمتاز خطبه بكثرة العناية والحرص على جمال التأليف ، عاش ما بين سنتى ١٦٣٢ و١٧٠٤م. المترجم

الحديدية التى تعرقل سير الخطابة وتزيل منها المرونة والخفة ثم تكسبها صورة من صور الابحاث الفلسفيه .

ومع ذلك فمن الانصاف أن نقول ان مبدأ التقسيم فى الخطبه لا يزال أمراً مشروعا ومفيداً بالنسبة للايضاح : وليس كما يرى فينيلون أنه « من عمل المحدثين » ولم يخش ديموستين من ناحية أخرى أن يحدد بوضوح فى الفرصة المناسبة المنهج الذى يتبعه فى خطبته . فهو بعد أن يذكر باختصار فى الجزء الاول من أولى خطبه ضد فيليب (١) الأسباب التى من أجلها يجب على الاثينيين « ألا يفقدوا شجاعتهم » وأن ينهضوا بأداء واجبهم ؛ نقول انه بعد أن يذكر ذلك يعلن عن الجزء الثانى من خطبته بطريقة لاغموض فيها ؛ اذ يقول :

وهذا كما أرى هو نوع الاستعدادات التى يجب أن تنقذكم من هذه المحن ، عددهم ووسيلة حصولكم على المال ، أمثل الطرق وأسرعها بالنسبة لما ينبغى أن تصنعوه فيما عدا ذلك .

ذلك هو ما سأحاول أن أحدثكم عنه بعد قليل .

وكذلك سيسيرون فى كثير من خطبه القضائية يلجأ إلى التقسيم الذى يشبه تماما التقسيم فى الخطب الدينية المعاصرة .

ومن جهة أخرى فان الخطباء القدماء كانوا يتجهون فى خطبهم إلى عامة الشعب والذى يصلح مع العامة ، كما يقول فولتير ؛ إنما هو الضرب بقوة لاالضرب كما تقتضيه العدالة ؛ ومن ذلك فان حرصهم على انتظام البراهين واتساقها اتساقا محكما كان أقل بكثير من حرصهم على التأثير العاطفى . وفوق ذلك فقد كان اليونانيون فنانين بطبعهم ؛ إذ كانوا يرغبون فى أن يتوفر فى الخطبة التكامل المرن الخفيف ؛ شأن التكامل الموجود بين أعضاء أجزاء الكائن الحى . وعلى عكس ذلك قد يكون من

(١) 1er. philippique

المفيد جداً أن نحدد الطريق الذى نسلكه فى الخطبة التى يجب أن تكون مؤثرة ؛ وكذلك الحال بالنسبة للخطبة التى يجب أن تكون مثقفة ؛ وذلك حينما نتعرض لأهم ولأعقد المسائل المتصلة بالفلسفة الدينية والأخلاقية ؛ ولو أننا لم نحدد ذلك الطريق لعرضنا المستمع إلى الانصراف عن متابعة الخطيب فى كل لحظة ؛ ولعرضناه كذلك إلى التهاون فى ربط فكرة بماسبقها من أفكار أو بمجموع ماتحتوى عليه الخطبة من أفكار . ونضيف إلى ذلك ملاحظة خاصة بالفرنسيين ، ذلك أن الفرنسى بطبعه يعشق المنطق والوضوح ؛ فتأكيد الترتيب والنظام لايفسد أى شىء عنده .

الجزء القصصى فى الخطبة

ويقصد من هذا ذكر الموضوع ، الذى تعتمد عليه الخطبة أو تدور حوله ، فى شكل قصة . وقد سلك ديموستين هذا المسلك حينما تقدم إلى المحاكم فى أثينا يشكو — ميدياس — الذى اعتدى عليه بالضرب ؛ فى هذه المحاكم وجد ديموستين نفسه مضطراً إلى توضيح المبادىء التى يدين بها القضاة ، وإلى أن يقص عليهم كيف حدثت هذه الأشياء التى هى موضع الخصومة

تختلف القصة الخطابية عن القصة التاريخية . فالأولى قصة عاطفية هدفها مدح أو ثناء ، لأنها تتجه أو تهدف الى البرهنة والتأثير العاطفى . وأما الثانية فهى قصة غير شخصية وليس لها أية صلة بمعنى التحيز ، وهدفها الوحيد معرفة الواقع معرفة أكيدة ؛ الأولى لاتكشف الا عن جانب واحد من جوانب الحقيقة ، وأما الثانية فتكشف عن كل جوانب هذه الحقيقة . أسلوب الأولى فى أغلب الأحيان أسلوب منمق ممتلىء حيوية وعنفا ؛ أماأسلوب الثانية فهوأسلوب هادىء منظم . ولو قارنا قصة المعركة التى وقعت فى مدينة — روكروا — (١) Rocory فى الخطبة التى

---

(١) روكروا Rocroy ، مدينة فرنسية تقع بالقرب من نهر الموز وهى أهم مدينة فى منطقة أردن وقد اشتهرت فى التاريخ بسبب المعركة التى أباد فيها القائد كونديه الجيش الاسبانى . المترجم

رثى فيها بوسويه أمير كونديه ، بنفس القصة التى ذكرها فولتير فى كتابه التاريخى «عصر لويس الرابع عشر» نقول لو قارنا هذه القصة عند (هذين الكاتبين) لاستطعنا أن نلمس بأيدينا الفرق الواضح بين قصة يتناولها الخطيب وقصة يتناولها المؤرخ .

ولكى ندرك تماما مبلغ التأثير العاطفى فى القصة الخطابية يجب أن نقرأ الخطبة الدينية التى قالها بوسويه تحت هذا العنوان (Sermon de la Passion) ونقرأ منها بصفة خاصة هذا الموجز المروع والذى استطاع الخطيب أن يصور فيه منظراً حياً لتلك القسوة الوحشية فى التمثيل بالمسيح منذ ألفى سنة فى أحد المعسكرات :

تعالوا ، تعالوا أيها الأصدقاء ؛ بهذا كان ينادى ذلك الجندى الوقح ؛ ها هو ذا المجنون فى المعسكر؛ ذلك الذى يتخيل أنه قد أصبح ملكا لليهود ؛ ألا فلتضعو فوقه تاجا من الشوك ! — وهنا يتسلم المسيح ذلك التاج — إنه ليس متماسكا تماما على رأسه ، ألبسوه اياه بضربات من العصى . أوسعوه ضربا ، ها هى ذى رأسه لقد ألبسه هيرود (٢) (Hérode) لباسا أبيض كما يُصْنَع بالمجانين ،ألا أحضر هذا المعطف القرمزى المهلهل لنغير بذلك لونه ! ألبسوه ، ها هى ذى أذرعه ، أعطنى يدك ياملك اليهود ، أمسك هذا الغصن فى يدك بدلا من صولجان الملك !ها هو ذا، اصنع به ماتريد .. آه . . والآن لم يعد الأمر مزاحا ، فقد قضى عليك بالموت ، قدم يدك مرة أخرى لكى تُسَمر ! امسك ها هى ذى مرة أخرى . وفى خطبة دينية أخرى لنفس الخطيب نرى كيف تتغير الأفكار عند اليهود ، وكيف يترددون فى حوارهم بالنسبة لشخص المسيح .

فمرة يهرعون أمام السيد المسيح لتحيته بهتافات تعلن عن سرورهم ، ومرة أخرى يهرولون خلفه ليشيعوه باللعنات . «ليحى ابن داود» «ليمت ! ليمت ليصلب»!

---

(١) هيرود Herode ، هو أحد ملوك اليهود الذى حاكم المسيح وتسبب فى قتل القديس جان بايتست وقد حكم من سنة ٤ قبل الميلاد الى سنة ٣٩ بعد الميلاد. المترجم

«لِيُبارَكْ ملك اسرائيل !» ليس لنا ملك الا قيصر. « قدموا جريد النخل، وأعدوا الأغصان الخضراء ، وابحثوا عن الزهور فى كل مكان لكى تُنْثَرعلى الطريق الذى يمر فيه ! » قدموا الشوك ليغرس فى رأسه ، وقطعة من الخشب النجس لكى يصلب عليها ! كل ذلك يجرى فى أقل من ثمانية أيام (١) .

أن تأثير مثل هذه اللوحة الحية لتلك الجماهير الصاخبة المتغيرة على الروح اشد من تأثير البراهين الجافة ؛ ثم انها تمهد لناسبيل الاقتناع بتلك الحقيقة المشروحة لنا فى هذه الخاتمة :

ابعد ذلك ايها الأخوة ، يحق لنا ان نصغى ايضا الى المسيحيين الذين يقرعون سمعنا ، دون انقطاع ، بهذه الحجة المبهرجة . . ماذا يقول الناس ؟ وكيف تصبح سمعتى فيما بينهم ؟ .

ومع ذلك فهناك بعض الحالات التى ينبغى أن نسدل فيها ستاراً على القصة ؛ ذلك حينما تكون حوادث الموضوع مسلما بها ، غير مستساغ فيها الإنكار ، وهى فى نفس الوقت فى غير صالح المحامى او الخطيب ، وحينئذ يتجه كل مجهود المحامى الى التعليل لكى ينتقل بذهن القضاة الى ميدان آخر ، مثل التحدث عن الماضى النقى الشريف للمتهم او عن تضحياته من اجل الوطن .

فائدة القصص الخطابى .

ليست القصة فى ثنايا الخطبة سوى برهان مقنع حينما ينتبه الخطيب الى ان يختار فى مهارة التفصيلات التى تدعم موضوعه ، والى ان يضعها فى ابرز الأماكن من خطبته . وفى هذه الحالة غالبا مايكون الانطباع او التأثير قويا ، لأن الخطيب يبدو للستمعين وكانه ترك الحوادث وحدها تتحدث اليهم .

---

(١) Sermon sur l'honneur du monde 3me point

ولقد رأينا منذ قليل مبلغ التأثير الرائع الذى أحدثه بوسويه من وراء قصته . وها هو ذا الإنجيل يحوى عددا غير يسير من المنـاظر البليغة فى تأثيرها ؛ وذلك كقصة الطفل المبذر ، وقصة السامرى المحسن ، وقصة الثرى الشرير ؛ هذه القصص بمالها من أسلوب جميل وتعليق ورع لا تزال تهز أوتار قلوبنا حتى الآن ، وستظل تؤثر فى نفوسنا دائما .

وقد تكون فى بعض الأحيان القصة المشرقة المدعمة ببعض الاعتبارات الأخرى كفيلة بأن تلعب فى الخطبة دور التأكيد والإثبات . ومن أجل ذلك كان من الضرورى أن تلتزم خطب القديسين فى الثناء وفى الرثاء جانب القصص. ولهذا يقول - لا برويير - « والثناء الحقيق إنما هو فى الأعمال وفى طريقة رواياتها» ؛ وإلى مثل هذا أيضا يذهب بوسويه وفينيلون ؛ أما فينيلون فيقول : « إن أفضل وسيلة للثناء على القديس إنما هى فى ذكر أفعاله الجيدة ؛ وذلك هو الذى يجسم الثناء ويعطيه كثيرا من القوة ؛ وذلك أيضا هو الذى يعرف الناس بمقدار الفضل ؛ وذلك أيضا هو الذى يهز أوتار النفوس . كثيرا ما ينصرف المستمعون من الخطبة دون علم بأى شىء عن حياة القديس بعد أن أصغوا إلى الخطيب ساعة كاملة (١). » وكذلك يعدد بوسويه أعمال أحد الحواريين أو يقص المناقب الفاضلة المثالية لحياة أولئك الأبرار المشهورين . فهو طورا يتنازل إلى ذكر أبسط التفـاصيل ، فيرينا أميرة بلاتينية ذاهبة « تحنو بقلبها على العجائز من السيدات اللاتى يطعمن من خيرها » ومنتشلة فى سرعة هذه « العجائز البائسات » من أقذر الأماكن حيث كن يقمن لكى تضعهن على تلك « الاسرة الصغيرة الوثيرة (٢) » . وطورا آخر ، لكى يجعلنا نقدر قيمة « سمو الروح » عند - كونديه - وندرك مبلغ شجاعته ، و « أفكاره المستنيرة »

Fénelon , Dialogue sur l'Eloquence , 3me dialogue (١)

Oraison funébre d'Anne de Gonzague , édit, Jacquinet. (٢) p. 315

وكرمه ؛ نقول ، لكى يجعلنا ندرك ذلك كله يضع قيثارة الملاحم فى فمه ويتبع بطله فى ميدان المعركة ليقدم لنا إلياذة مسيحية تمتزج فيها جرأة الصور الإنجيليه بدقة هومير العجيبه ، وليس ذلك بغريب عليه ؛ فهو يحفظ عن ظهر قلب فصولا كاملة من شعر هومير .

التأكيد أو التقوية أو الاثبات

ونعنى بذلك التدليل والاقناع بالنسبة للحقيقة التى هى موضوع البحث أو الخطبة والتى ذكرت مقدما فى عرض الموضوع . وهذا يعتبر الجزء الاساسى ، أى جوهر الخطبة وكيانها . وكل ما ذكرناه سلفا عن البرهنة والتأثير العاطفى يجد صداه وتطبيقه فى هذا الجزء من الخطبه .

التفنيد

فى هذا الجزء من الخطبة يحاول الخطيب أن يهدم كل ما يوجه إليه من اعتراضات سواء أكانت هذه الاعتراضات فى صورة براهين أم فى صورة أعمال وحوادث . فنراه تارة يجيب على خصم فيبطل حججه ؛ ونراه تاره أخرى ينظر بثاقب نظره ما يمكن أن يرد عليه من اعتراضات فيبطلها مقدما. وفى كل موضوع من الموضوعات يوجد المؤيد والمعارض . وإذن فمن الضرورى القضاء على الحجج التى من شأنها أن تؤخر أو توقف الإقناع عن طريق اليقين بالنسبة للمستمعين .

وليس للتفنيد مكان ثابت فى الخطبه ؛ فحينما يكون لادلة الخصم تأثير عميق فى نفس المستمعين ، يجب القضاء عليها وهدمها فى أول الامر ، ولو نجح فى ذلك فإنه يوفر على نفسه أكثر من نصف المجهود لكى يكسب المستمعين فى صفه . وحينئذ يكون مكان التفنيد قبل مكان التأكيد والتقوية . ومهمتها فى مثل هذا الوضع هى تنقية الطريق وتهيئة المكان النظيف. وعلى العكس من ذلك حينما تكون الاعتراضات واهيه فإنه يجدر بالخطيب أو المحامى أن يحتفظ بالجواب على هذه الاعتراضات فى آخر الجزء الخاص بالتأكيد والتقوية . وقد يحدث فى بعض الأحيان أيضا أن يجيب

المتكلم على ما يثيره الدليل من اعتراضات ؛ سواء أكان هذا الجواب قبل ذكر الدليل أم بعده .

أمران أساسيان للتفنيد

أولا : من المهم دائما وفى كل ميادين القول أن يختبر المتكلم أو الخطيب مبلغ صحة المبادىء التى أثارها الخصم . وأغلب ما يستخدم التأكيد الجرىء لاثبات أمر أو مبدأ إنما هو فى اخفاء الجانب الهدام . ولقد حاول ـ روسو(١) ـ Rousseau أن يبرهن على فساد أخلاق ـ ميزانتروب ـ Misanthrope ـ بالطريقة الآتية :

ولما كان غرض المؤلف هو تهيئة فرصة اللذة لذوى النفوس الفاسدة فيجب أن نتفق على واحد من أمرين : إما أن يكون المؤلف نفسه نزاعا الى الخلق الفاسد؛ وإما أن يكون هـــذا الخير المزيف ، الذى يدعو اليه ، أشد خطورة من الشر نفسه (٢) .

ان هذه العباره ـ « غرض المؤلف تهيئة فرصة اللذة لذوى النفوس الفاسدة » ـ التى يؤسس ـ روسو ـ عليها أدلته وبراهينه كما لو كانت أمرا حقيقيا ، هى نفسها التى لن يوافق عليها ـ موليير ـ وستكون بالضرورة محل شرح وبيان من جانبه . ونتيجة ذلك أن تتزعزع براهين ـ روسو ـ ثم تنهار من أساسها .

ثانيا : الملائمة بين نتيجة البرهنة والأمور التى هى محل البرهنة ، ففى بعض الأحيان تكون الاعمال أو الاحداث حقيقية والمبادىء ثابتة لا تحتمل الجدل ، ولكن النتيجة مبالغ فيها ومزيفة لانها تذهب الى أبعد مما تحتمله تلك الاعمال وهذه المبادىء ؛ وذلك مثل طريقة البرهنة الخاطئة ؛ التى لجأ اليها ـ باسكال(٣) Pascal

---

(١) روشو تقدم الكلام عليه فى ص ٧٨ من المجلد الأول وفى ص ٢٢ من هذا المجلد

(٢) Lettre à M. d'Alembert

(٣) باسكال تقدم الكلام عليه فى ص ٩٨ من المجلد الأول

فى كتابه - پروفانسيال - Provinciales - فأكثر من استعمالها إكثارا مرذولا ؛ وهذه الطريقة هى طريقة التعميم على غير اساس ؛ أى استنتاج الحكم من أعمال البعض ثم تطبيق هذا الحكم على الجميع ؛ إذ ليس من الصواب أن نحمل المجتمع كله مسئولية أخطاء البعض . فلو أن بعض الجزويت أبدوا شيئا من الانحلال الخلق فليس من الصواب أن يؤخذ ذلك سبيلا لتهمة الجزويت جميعا بهذا الانحلال ؛ ولو أننا وجدنا فى قفص من التفاح بعضا من هذا التفاح فاسدا فليس معنى ذلك أن جميع التفاح فى القفص لا يساوى شيئا .

الخـــاتمة

ونعنى بذلك الجزء الاخير فى الخطبة الذى يشتمل على النتيجة . وهى فى الواقع نقطة الوصول الذى ينتهى اليها مجهود الخطيب . فأنت تراه طورا يختصر براهينه المتقدمه ويحصر مجهوده فى ناحية خاصة وفى دائرة ضيقة لكى يتركز فيها الضوء فتبدو أقوى إشعاعا وأشد حيوية . وتراه طورا آخر يبذل جهدا جبارا لكى يمس قلوب السامعين ويهز أوتارها بواسطة ما يلجأ اليه من التأثير العاطفى . وغالبا ما يلجأ الخطيب الى استعمال الطريقتين فى نفس الوقت . وكان بوسويه بارعا فى اختصار براهينه وتصويرها أخيرا بصورة كائن حى يتكلم فيسمع ويؤثر . فهو على طريق المثال قد أوقف شبح الموت أمامنا لكى يوجه الينا آخر إنذار وينهى مجهود الخطيب المقدس فى ميدان البرهنة عن طريق الإقناع العقلى . وهو كذلك فى آخر خطبته الرثائية ، التى قالها من أجل - آن دى كونزاج (١) Anne de Conzague يفتح بابا من السماء أمام نظراتنا الزائغة المروّعة لكى نرى الاميرة البلاتينية وهى تهبط من السماء « فى اليوم الآخر » مع القديسين ، وفى صحبة المسيح ؛ وذلك ليجمع

(١) آن دى كونزاج - Anne de Conzague - هو اسم اعطى الى الاميرة بالاتين التى سبقت الاشارة إليها مرات قبل ذلك . المترجم

بين الإصرار على المعصية ، والتوبة المزيفة فى حكم واحد بالنسبة للمذنب ذى القلب الجحود . ونراه أيضا فى خطبته الرثائيه « التى قالها من أجل - كونديه - يصور الخاتمة فى صورة نداء حزين يتوجه إلى الشعوب وإلى الامراء ، والى السادةالعظماء والى أصحاب « النفوس المحاربة الجريئة » ، والى القسيسين ، والى أصدقاء الامير ؛ يتوجه هذا النداء الى أولئك جميعا وهم « يرزحون تحت الالم وكأنه سحابة ثقيلة من فوقهم » ؛ ثم يسيرون فى صحبة بوسويه نفسه أمام النعش حيث ينطلق صوت الميت معلنا للجميع : « يجب عليكم أن تكونوا خدما لملك السماء كما أنتم خدم لملك الارض » :

الفصل الثالث

الروايه

المقـــالة الأولى

التعريف

فى العصور الوسطى كانت كلمة روايه [Roman] ترادف كلمة قصه فى لغه شعبية أو رومانيه (١) ؛ وكان ذلك فى مقابلة لغة العلماء أو اللغةاللاتينية.وكانت الرواية تطلق على كل قصة خيالية كانت أم حقيقية ؛ شعرا كانت أم نثرا. فمجموعة الروايات المعروفه باسم ـ Les Romans bretons ـ التى كانت نثرا ؛ وكذلك رواية ـ Roman de Renart– و – Le Roman de la Rose ـ اللتان كانتا شعرا ؛ نقول ان هذه الروايات جميعا ليست الا من نسج الخيال .

ومن جهة أخرى فإن الكاتب ـ جوانفيل ـ(٢) Joinville ـ يخبرنا بصراحة بأنه سجل « فى رواية » أى فى مُؤلَّف تاريخى جانبا كبيرا من خياله ؛ وهذه الرواية أو هذا الكتاب هو ما كتبه عن حياة (سان لويس) .

وفى خلال القرن السابع عشر أخذت كلمة ـ الرواية ـ معنى أدبيا خاصا هو : القصة النثرية لحادث خيالى ؛ ثم إن هذه القصة تستخدم كإطار لرسم أخلاق وعادات مجتمع من الناس .

جوهر الرواية إذن أمر خيالى؛ ولكن أحيانا يستعير المؤلف حوادثه وشخصياته

---

(١) يقصد باللغة الرومانية أى لغة مشتقة من اللغة اللاتينيه . وأهم هذه اللغات الرومانية هى : الفرنسية ، والايطالية والاسبانية ؛ والبرتغالية . « المؤلف »

(٢) جو انفيل – Joinville– مؤرخ فرنسى ، وكان مستشارا للملك سان لويس، والذى كتبه فى التاريخ عبارة عن مذكرات تعالج تاريخ سان لويس كما تعالج الحروب الصليبية. عاش من سنة ١٢٢٤ م إلى سنة ١٣١٧ م . المترجم

أو أبطاله من التاريخ أو من الواقع المعاصر ؛ غير أن المؤلف ينسج دائما حول هذا الواقع أمورا وتفاصيل من وحى خياله وذوقه .

وبهذا الاعتبار ليست الرواية سوى لوحة تصور العادات والأخلاق. ونستطيع أن نرى فى هذه اللوحة إحساسات الانسان ونزواته ممثلة تمثيلا واضحا ؛ كما نستطيع أن نرى فيها أيضا زاوية من زوايا الحياة الاجتماعية واضحة التمثيل.

وكما هو الشأن فى كل أثر قصصى يوجد فى الرواية هذه الأقسام: العرض، الحادث الرئيسى ، الأحداث الثانوية أو المفاجآت المتداخله ، العقدة ، الحل .

المقـــالة الثانية

تطور الروايه

بالنسبة لتطور الرواية يجب التفرقة بين عصرين مختلفين : أحدهما العصر البدائى، والثانى العصر الحديث .

العصر البدائى . عصر الخيال

كانت الروايه فى أول أمرها عبارة عن قصة تتناول أحداثا خارقة للمألوف ولا صلة لها بالواقع (١) . وكانت كل الروايات عند القدماء تدور حول موضوع واحد ، هو الحب . وهـــذا ما يظهر لنا فى الأدب اليونانى حتى القرن الأول قبل الميلاد (٢) .

---

(١) وهكذا فى القرن الأول الميلادى أعطى الـكاتب - إنطونيوس ديوجين Diogéne Antonios - لروايته هذا العنوان الواضح الدلالة : « الأمور التى لا تصدق فيما وراء توليه - Thulé » · (المؤلف) [وتوليه عبارة عن جزيرة خيالية كان القدماء يتصورونها فى القطب الشمالى . المترجم]

(٢) يذكر فى العادة كروايات فى ذلك العصر الكلاسيكى ما يأتى : روايه - Cyropédie - لمؤلفها - كسينوفون ، وهى تشبه رواية تيليماك من حيث أنها تشتمل على منهج فى التربية . وهذه الرواية فى الحقيقه تصور فكرة خيالية ، ولكنها لا تنطبق على تعريف الروايه إلا من جانب محدود . المؤلف

وبالرغم من أن الروايات فى ذلك العصر كانت تدور حول الحب إلا أنها كانت تأخذ أشكالا مختلفة : فكان منها ما يصور اختطاف قراصنة البحر للأفراد ، ومنها ما يصور الاعتراف بالجميل ؛ ومنها ما يصور الأسفار إلى بلاد خيالية ؛ تلك كانت مدارات هذه الروايات . ولا يزال الناس يتحدثون عن هذه الروايات التى كتبت فى ذلك العصر : ثياجين وشاريكليه للمؤلف ـ هليودور (١) ، ودافنيس وكلويه، وهى وصف لحياة الرعاة للمؤلف ـ لونجوس (٢) ـ ومن حسن الحظ نجد أن المؤلف ـ لونجوس ـ يتبع فى تأليفه طريقة سهلة بسيطة .

وفى سنة ١٦١٠ م تفتتح رواية ـ أستريه ـ Asfrée لمؤلفها ـ أونوريه دورفيه(٣) Honoré d'Urfé . عهدا جديدا بالنسبه للرواية فى فرنسا ، ثم أنها فوق ذلك تضع القواعد التى تتبع فى التأليف الروائى لزمن طويل . ويلاحظ هنا أيضا أن حوادث الرواية تعتبر خارقة للمؤلف ، وموضوعاها كذلك لا يتجاوز ميدان الحب، ولكنه حب من النوع العذرى الروحى . وشخصيات هذه الروايات إنما الفتيان والفتيات من رعاة الأغنام والأبقار الذين يقضون الوقت فى الحب وفى وصف عواطفهم وتسجيل أشعارهم الغرامية على شواطىء نهر ـ ليڤيون ـ Lignon أما محور الرواية فلم يكن واحدا ، بل كان يعد بالعشرات تتقابل تارة وتتشابك تارة أخرى . إن

---

(١) هيلبودور – Héliodore – ، أحد الكتاب الروائيين اليونانيين، عاش فى القرن الثالث الميلادى وقد ألف هذه الرواية ثياجين وشاريكليه Théagéne et Chariclée – المترجم

(٢) لونجوس – Longus ـ كاتب روائى يونانى من كتاب القرن الرابع الميلادى على حسب بعض الروايات والحق أنه من الصعب تحديد هذا التاريخ بالضبط . أما دافنيس وكلويه فهو عنوان روايته المشهورة التى تصور حياة الرعاة فى اليونان تصويرا جميلا كما تصور كيف تتولد عواطف الحب بين هذه الطبقة من المجتمع ثم كيف تتطور . (المترجم)

(٣) أونوريه دورفيه – Honoré d'Urfé ، أديب روائى فرنسى ولد فى مرسيليا سنة ١٥٦٨ م وعاش حتى سنة ١٦٢٦ م . وهو صاحب رواية – استريه – Astrée التى تصور فى دقة حياة الطبقة المتحذلقة وما فيها من رياء وتكلف وصنعة . المترجم

ما كتبه ـ جومبولد (١) ـ Gombauld ـ و ـ جومبيرفيل (٢) Gomberipille و ـ لا كالبرنيد (٣) La Calprened ـ وكذلك ما كتبته الآنسة دى سوديرى (٤) Medemoiselle de Scudéry ـ من روايات جمعت فى عشرة مجلدات ، نقول إن ما كتبه هؤلاء جميعا من روايات يعتبر تقليدا لرواية ـ أستريه ـ واستمرارا لأسسها وقواعدها .

ولما كانت أحداث الرواية بهذا المعنى عند القدماء لا تتصل بالواقع ؛ وما يدور فيها من احساسات لا ظل له من الحقيقة ، نقول لما كان مفهوم الرواية قديما هو هذا فقد نتج عن كلمة ـ رواية ـ Roman ـ كلمة أخرى هى ـ rom anesque ـ بمعنى الأمر الخيالى الذى لا صلة له بالواقع ولا بالحقيقة .

ولا تزال هذه الكلمة ـ romanesque ـ تثير فى أذهان كثير من الناس حتى اليوم ما كانت تثيره فى أذهان عامة الشعب من معنى أثناء القرن السابع عشر ، بل انها بقيت بمثابة القلم على كل ما يؤلف من كتب فى هذا النوع الأدبى . ولقد أوضحنا فى كتابنا ـ نظرية التأليف الأدبى (٥) ـ الفرق بين مفهوم كلمة ـ romanesque ـ أى الأمر الخيالى ، ومفهوم كلمة ـ idéal ـ أى الأمر المثالى ؛ ولكن من المستحسن أن نوضح هنا بتفصيل أكثر الفرق بين هذين الأمرين من حيث هما وسيلتان من وسائل إدراك الفن والحياة .

---

(١) جومبول ـ Gombauld ـ؛ شاعر فرنسى وكاتب أديب ، ولكنه لا يتبع مبدأ معينا ولا يرمى الى هدف محدد . ولد سنة ١٥٧٠ م ومات سنة ١٦٦٦ م ، المترجم

(٢) جومبير فيل ـ Gomberville ـ ، كاتب فرنسى . كان مولده فى باريس سنة ١٦٠٠م ، ومات سنة ١٦٧٤م ؛ ألف عددا من الروايات ، لعل أهمها رواية ـ بوليكساندر ـ Polixandre المترجم

(٣) لا كالبر ينيد ـ La Calprenéde ؛ كاتب روائى فرنسى عاش من سنة ١٦١٦ الى سنة ١٦٦٣م وله عدد من الروايات الطويلة ، لعل أهمها كاساندر وكليوباتره المترجم

(٤) الآنسة دى سكوديرى = Madmoiselle de Scudéry ـ واسمها مادلين دى سكوديرى . وهى من الكاتبات الروائيات ، وكان لها أخ أديب شاعر وروائى فى نفس الوقت ، ويعرف لهذه الكاتبة روايتان هما Clélie و Grand Syrus . وقد عاشت ما بين سنتى ١٦٠٧ و ١٧٠١م . المترجم

(٥) Théor. de la comp. litt., pp. 28 - 29

إن نقطة البدء بالنسبة للمثالية هى عبارة عن الملاحظة بالنسبة لما يدور فى خلدنا وبالنسبة لما يدور من حولنا . ومن شأن هذه المثالية أنها لاتفقد أبدا نظرتها الى الواقع ، وتحاول ما أمكنها أن تعتنق ذلك الواقع جميعه بما فيه من حسن وقبح وائتلاف واختلاف . ومن شأنها كذلك ألا تتجاوز حدود التعبير والترجمة عن ذلك الواقع دون تزييف فيه ولا مسخ . وإذا كان — راسين — قد استطاع أن يصور الحب فى سموه وفى طهارته ، فإنه قد استطاع أيضا أن يصوره فى عذابه وشقائه ، وثوراته وجرائمه ؛ ونحن نرى ذلك واضحا فى شخصياته أو أبطاله ، فالتقابل أو التعارض واضح بين (هيرميون[١] Hermione) و(روكسان [٢] Poxane) و (فيدر [٣] Phédre) من ناحية وبين (بيرينيس [٤] Bérénice) و(ايفيجينى[٥] Iphigénie) و(مونيم[٦] Monime) من ناحية أخرى . وعمل المثالية أخير أعمل جاد تثقيفى ، منطقى ؛ إذ أنه لايحتوى إلا على ماهو حقيقى وطبعى .

أما الخيالية فهى على عكس ذلك فتتناسى الواقع ومافيه من قوانين ثم لاتعترف

---

(١) هيرميون ، أحدى أبطال التراجيدية التى ألفها راسين تحت عنوان — أندروماك — ، وهى تنطبق على بنت مينيلاس وهيلين التى تزوجت من بيرهوس ثم من اوريست . المترجم

(٢) روكسان ، أحدى أبطال التراجيدية التى الفهـا راسين تحت عنوان — باجازيه — Bajazet المترجم

(٣) فيدر ، اسم لامرأة من عالم الأساطير عند الأغريق واللاتينيين ؛ وقصة حبها لابن زوجها تشبه الى حد بعيد قصة حب امرأة العزيز ليوسف . وقد اتخـذها راسين موضوعا لتراجيديته المعروفة بـ— فيدر — . المترجم

(٤) بيرينيس ، أميرة يهودية من نسل أسرة هيرود المالكة وقد أخذها تيتوس الى روما ليتزوج منها هناك . ولما خشى اثارة الرأى العام عليه فى روما أعادها الى مملكة جودا . وهى فى نفس الوقت موضوع مسرحية من مسرحيات راسين . المترجم

(٥) ايفيجينى — Iphigénie — ، هى حسب الروايات الشبيهة بالأساطير تعتبر بنت أغا ممنون وتصورها الاساطير تصويرا عجيبا ، ولكنها هنا موضوع مسرحية من مسرحيات راسين المترجم

(٦) مونيم — Monime — ، احدى أبطال مسرحية راسين المعروفة بعنوان — ميتريدات المترجم

بما هو موجود فيه. ففي القصة (١) التي ألفها (لافونتين) عن بائعة اللبن والقدر نراه لا يكتفي بأن يصور لنا منظر هذه القصة فقط ؛ بل نراه أيضا يحلل لنا حوادثها تحليلا جميلا بليغا بالنسبة لما يحتوى عليه من مكر ودهاء ؛ إذ يقول :

من من الناس لا يحلم أحلاما عريضه ؟ ومن منهم لا يبني لنفسه قصوراً في تلك الأحلام ؟ وقد بني منهم - بيكروشول - و بيرهوس - وبائعة اللبن وأخيراً كل الناس لافرق في ذلك بين عاقل ومجنون . لاشيء ألذ ولا أمتع من أن يحلم المرء وهو في اليقظة ما ألذ هذا الحلم الخادع الذي يملأ نفوسنا بأن ثروة الدنيا أصبحت ملكا لنا . حينما أكون وحدي أتحدى أشجع الناس . ولو أمعنت في ذلك خيل الى أن في مقدوري انتزاع التاج من رأس ملك الفرس فيختارونى ملكا ، ويحبني شعبي وتتساقط الجواهر على رأسي كما يتساقط المطر . وحينما يرجعني الى صوابي أمر من الأمور أو حادث من الأحداث أجدني على حقيقتي كما كنت قبلا (٢)

وتتمثل الخيالية هنا بما نراه في هذا النص من ذلك الذي يحلم أحلاما عريضه . ومن ذلك الخيال الذي يبني قصوراً شامخة، ومن ذلك التفاؤل الساذج الذي يعيد تأسيس الحياة على نهج جديد دون أن يشغل بما اذا كانت هذه الأشياء كلها منطبقة على الواقع أم لا . الخيالية اذن عبارة عن أوهام تلائم الخيال ولكنها مزيفة ؛ عبارة عن مشروعات زائفة وأحلام بدلا من النظرة القوية الواضحة

---

(١) موضوع هذه القصة كما يرويها - لافونتين هو أن قروية ذهبت الى السوق ومعها قدر من اللبن لتبيعه . وبينما هي سائرة في الطريق شرد خيالها فأخذ يصور لها المستقبل السعيد الذي تملؤه الآمال العريضة . تصورت أنها ستبيع اللبن وتشترى بثمنه بيضا ليفرخ عندها وتحصل من ذلك على عدد من الدجاج ؛ وبثمن هذا الدجاج ستشترى بعض الحيوانات ثم لا تلبث أن تتسع ثروتها فتصبح مالكة لبيت قروى بما فيه من طيور وحيوانات . وعندئذ يملأ السرور قلبها وتأخذها نشوة الفرح فتنسى قدر اللبن على رأسها وتشرع في الرقص على أنغام ذلك الأمل فيقع قدر اللبن . وحينئذ يعود إليها رشدها فتتدارك هول مصيبتها وينقلب سرورها عويلا وحسرة وندما المترجم

(٢) Fables T V111. f , X

المتصلة بالطبيعة والواقع ؛ ومنشأ هذه الخيالية انماهو العجز عن التدبر والعمل ؛ وهى بهذا المعنى تعتبر شعر الأطفال . وفى الحق أن أذواق السنين الأولى من العمر لا يمكن أن تختفى تماما فى سن الرجولة . ففى الوجود دائما أمثال بائعة اللبن مع قدرها اللاتى يشيدن قصوراً من الوهم ثم لا تلبث هذه القصور أن تتلاشى عند أوهى صدمة. وكثير من الناس لا يترددون فى أن يتحدثوا الى أنفسهم خفية بنفس الحديث الذى يقوله لافونتين :

ولو أنهم يقصون لى قصة(١) جلد الحمار لوجدت فيها لذة لا تساويها لذة أخرى. يقولون إن العالم قديم ؛ وهذه عقيدتى ؛ ومع ذلك يجب أن ندلله أيضا كما ندلل الأطفال (٢) .

ولا يزال هدف الرواية أن يهيء لنا متعة تشبه المتعة التى كانت تحدثها رواية — جلد الحمار — بين المستمعين فى خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ؛ وقد أنصف الكاتب (هويت(٣) Huet) حينما عرف الرواية فقال : « ان الرواية بمعناها الصحيح ليست الا تاريخا خياليا للمغامرات فى الحب قد كتبت كتابة نثرية فنية للهو القراء ولذتهم (٤) . وفى رواية - كليوباتره - التى كتبتها (مدام دى سيفينيه Mme de Sévigné) فى اثنى عشر مجلدا لا تكاد المؤلفة تبحث عن شيء آخر سوى المتعة واللذة . بالرغم مما تراه فى أسلوبها من ضعف يدعو الى السخط واللعنة ؛ غير أنها كانت شغوفة بالكتابة فيها لدرجة أنها لا تفارقها لحظة « حتى لكأنها شدت اليها بأحبال (٥) » .

(١) هذه إشارة إلى قصة مشهورة للقصاص الفرنسى — بيرو — Perrault — ، وقد كتبها فى سنة ١٧١٥ م (المترجم)

(٢) L. V11. 1f 1V, le pouvoir des Fables

(٣) هويت Huet ، عالم وأديب فرنسى عاش ما بين القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادى المترجم

(٤) De l'origine des Romans

(٥) « أعود الآن الى القراءة ، وبدون اهمال أو تغاض عن — كليوباتره — أفكر =

العصر الحديث عصر الحقيقة والواقع

إن الرواية البدائية ؛ التي كانت مليئة بالمغامرات وبالحب ؛ والتي كانت ذات شهرة واسعة خلال القرن السابع عشر ، قد أخذت شكلا جديداً في القرن الثامن عشر . وبقيت الرواية في شكلها الجديد حتى القرن التاسع عشر . واستمرت في سيرها الطبيعي حتى أصبحت أثراً فنياً أكثر عمقا واكثر اتساعا واكثر واقعية من ذي قبل ؛ وبالرغم من ان الرواية الحديثة لم تنجح تماما في القضاء الى الأبد على الناحية الخيالية التي تبدو كأنها جزء ملازم للتأليف الروائي ؛ نقول ، بالرغم من ان الرواية الحديثة لم تنجح في ذلك تماما الا انها استطاعت ان تضيق دائرة الخيال تضييقا كبيرا وان تقطع شوطا عظيما لكي تقترب من الحقيقة والواقع . ومن اجل ذلك فإن الرواية في هـــذا العصر لاتشبه في شيء رواية (آستريه Astrée) ولا ما اعقب - استريه - من روايات اخرى . ولقد احدث القرن التاسع عشر في ميدان التأليف الروائي ايضا تغييراً هاماً ، كما غير كذلك في ميدان التاريخ . اذ اننا راينا ان المؤلف الروائي بدأ يزعم أنه منافس للشاعر المسرحي في التحليل الدقيق العميق للاحساسات والعواطف والأخـــلاق والعادات . اما أبطال تلك الروايات الذين صيغوا من دخان، وشخصياتها التي الفها الخيال فقد تركوا المكان في الرواية الحديثة لكائنات مجسدة حية لها مالنا من شعور واحساسات ؛ وبدلا من ذلك النسيج المعقد العجيب من الأحداث ، الذي يتألف وفق الهوى أو المصادفة ، قد أصبح محور الرواية شبيها بما نراه في المسرح، بمعنى أنه أصبح مجموعة من الأحداث المتتابعة

= أحيانا في مصدر ذلك الهوس الذي يتملكني من أجل هذه التوافه ، وفي الحق لا أكاد أفهمه ... ان أسلوب هذه الرواية يستحق اللعنة في الفموطن واذن فاني أبغضه ، ومع ذلك فأني أجدني شغوفة بها كأنها التصقت بي ... » وأما فيما يختص بشخصيات الرواية فتضيف الى ذلك قولها : « ان جمال احساساتهم ؛ وقوة عواطفهم ، وجلال أحداثهم ؛ والنجاح الخارق الذي أحرزته رماحهم كل ذلك كان يجذبني كما تجتذب الفتاة الصغيرة . »

(**Lettre à Mme de Grignan, 1er Juillet 1671**)

المنطقية التى ينشأ بعضها من البعض الآخر ؛ على أن أصلها جميعا يرجع إلى أخلاق الأشخاص وطبائعهم .

وفوق ذلك فقد أراد المؤلف المسرحى ان يوسع دائرة عمله وأن يتجاوز حدود المسرحية الدرامية كما تجاوزها من قبله الشاعر القصصى ، فحاول أن يرسم لنا لوحة تصور الطبيعةوالحياة الاجتماعية ؛ وكان ذلك بناء علىزعمه أن من واجب المؤلف الروائى أن يصور المناظر والمواقع التى جرت فيها الأحداث . وقد سار على هذه الطريقة — روسو — حين صور جبال الألب فى روايته (نوفيل (هيلو يز Nouvelle Heloïse) ؛ وكما صنع (بيرناردان دىسان بيير [١] . Bernardin de Saint - Pierre) حين وصف البلاد الحارة فى روايته (بول وفيرجينىPaul et Virginie)؛ وكماصنع(شاتوبريان[٢] Chateau briand)حين وصف المراعى الشاسعة والغابات المترامية الأمريكيه فى روايته (أتالاAtala)؛ ولا نزال نذكر كلمة (بيرناردان دى سان بيير) المشهورة التى أصبحت بمثابة المعنى الشعرى للتأليف الروائى ؛ وتلك الكلمة هى قوله : « إن المنظر الطبيعى يعتبر الأساسالذى ترسمعليه لوحة الحياة الأنسانية » [٣] .لقدبحثوا وشرحوا الانسجام العجيب بين الطبيعة والانسان ؛ثم وضحوا كذلك التأثير الخفى للبيئة التى يعيش فيها

---

(١) بيرناردان دى سان بيير – Bernardin de Saint Pirre – : كاتب أديب فرنسى . لقد ساهم بحظ كبير فى الثروة الادبية عند الفرنسيين وخصوصا ان مؤلفاته أدخلت على الذوق الفرنسى حب الطبيعة .ولد سنة ١٧٣٧ ومات سنة ١٨١٤ . المترجم

(٢) شاتو بريان – – Chateau briand - هو ذلكالكاتب الفرنسى المشهور الذى خدم الادب الفرنسى خدمات جليلة وقدم له ثروة عظيمة حتى لقد أصبحت شهرته عاليه وآثاره الأدبية قسما مشاعا بين الشعوب واللغات . ومنآثاره الادبيه Alata . – Lc génie du Christianisme ، Les Martyrs، و Memoirers d'outr - tombe' و Réné ؛ وله غير ذلك كثير . ولد سنه ١٧٦٨م ومات سنه ١٨٤٨م المترجم.

(٣) Voyage à l'Ile de France, préface de la Prémiére édition

الانسان ؛ ولقد تخصص بعض هؤلاء الكتاب مثل بيير لوتى (١) Pierre Loti فى تصوير المناظر الطبيعية فاستعاروا ريشة التصوير التى كان يرسم بها كورو Corot (٢) و - ترويون (٣) Troyon و وتيودور روسو Théodore Rousseau (٤)

هذا وقد عملوا أيضا على أن يصوروا أبطالهم فى وسط البيئة الاجتماعية التى طبعتهم بطابع خاص وأن يصفوا إلى جانب ذلك ما كان فى ذلك العصر من أخلاق وعادات ؛ ومعلوم أن هذا العصر كان عصر الكتاب الروائيين أنفسهم واذن فثقافة ذلك العصر كلها توجد ممثلة فى هذه الروايات ؛ ولو أخذنا على سبيل المثال الروايات التى ألفها لوساج Le Sage (٥) لرأينا فيها صورة حية بالنسبة لعصر الوصاية فى فرنسا أى حوالى سنة ١٧٠٧م. من هذه الروايات رواية - العفريت الأعرج - Le Diable boiteu - ورواية جيل بلاس Cil Blas . سنرى فى هذه الروايات عالما من رجال المال العفنين ، ومن الشعراء الجائعين ، ومن الأطباء الجهلة المشعوذين

---

(١) بيير لوتى - Pierre Loti - ؛ ضابط فى البحرية الفرنسية مولع بالقراءة والكتابة وحب الاستطلاع ، وهو يعتبر من طبقة الكتاب الانطباعيين وتغلب عليه الاحساسات الحزينة استطاع أن يرسم فيما كتبه الكثير من المظاهر الاجنبية المتصلة بالمجتمع أو بالطبيعة ، ومن أهم آثاره الادبية Pécheur d'Islande ، Madame Crysanthéme . وُلد سنة ١٨٥٠م ومات سنة ١٩٢٣ م. المترجم

(٢) كورو - Corot - ؛ أحد الرسامين الفرنسيين الذين عرفوا بمهارتهم فى تصوير المناظر الطبيعية ولد سنة ١٧٩٦ ومات سنة ١٨٧٥ م المترجم

(٣) ترويون - Troyon - ؛ هو أحد الرسامين الفرنسيين الذين برعوا فى تصوير المناظر الطبيعيه ومن أهم ما يميزه عن غيره هو أنه كان يكسب تصويره ألوانا حية جميلة . ولد سنة ١٨١٣ م ومات سنة ١٨٦٥ م المترجم

(٤) تيودور روسو - Théodore Roussou - ؛ هو أحد رسامى المناظر الطبيعيه من الفرنسيين ؛ له مهارة عجيبة فى اختيار الالوان والتأليف بينها . ولد سنة ١٨١٢ ومات سنه ١٨٦٧ م . المترجم

(٥) لوساج Le sage كاتب روائى فرنسى استطاع أن يصور فى رواياته أخلاق المجتمع وعاداته تصويرا واقعيا ، ومما كتبه فى ذلك رواية Gil Blas ورواية Le Diable boiteu وقد ألف بجانب الروايات أيضا عدة مسرحيات؛ ولد سنة ١٦٦٨م . ومات سنة ١٧٤٧م. المترجم

ومن الأتباع الوقحين ، ومن النبلاء المقامرين . وكذلك نرى فيما كتبه - بالزاك Balzac (١) كل المجتمع الفرنسى ، ما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٥٠م ، يتحرك ويسير أمامنا. ولقد انصف - بالزاك - حينما جمع كل رواياته ووضع لها هذا العنوان البليغ فى مدلوله : كوميديا الانسانية - إذ أننا نرى فى هذه الروايات طبقة الشعب، والطبقة البورجوازية ، وطبقة العمال ، وطبقة التجار المتجولين ، وطبقة الممثلين فى المسارح وطبقة الصحفيين ، وطبقة القضاء ، وطبقة أصحاب رؤس الأموال ، التى كانت أغنى الطبقات جميعا .

والرواية بهذا المعنى ليست سوى « صورة هامة من صور التاريخ ؛ فهى تؤرخ للأخلاق والعادات» (٢) وكذلك عرفها فيلمان Villemain (٣) فقال: « ليست الرواية سوى الشعر القصصى أو الملحمى للشعوب الحديثة (٤) » . ولو صرفنا النظر عن البطولة بالنسبة لأشخاص الرواية ، وعن الصيغة الشعرية فيها فإننا نستطيع أن نسميها « بالملحمة الديموقراطية » وهى الملحمة الوحيدة التى تتلاءم مع الحضارة فى العصور الحديثة . وفى نفس الوقت لو أخذنا فى اعتبارنا الجانب الواقعى من الرواية والتصوير الأمين للحياة فإننا ندرك فى سهولة أنها قد غدت نوعا من التأليف

---

(١) بلزاك Balzac هو أحد الكتاب الروائيين الفرنسيين الذين ملؤا الأدب الفرنسى بآثارهم كما ملؤا الدنيا بشهرتهم ؛ واستطاع بحق أن يضع لكل ما كتبه هذا العنوان الكوميديا الانسانية - وإن من يقرأ مؤلفات بالزاك يدرك فى سهولة دقة هذه التسمية . ومن أهم ما كتبه Splendeurs et Misères des Courtisanes, La Recherche de l'absolu ولد سنة ١٧٩٩م ومات سنة ١٨٥٠ . المترجم

(٢) J. Lemître, Les contemoprains, 3e Serie p. 38

(٣) فيلمان Villemain ناقد فرنسى وكان أستاذا فى السوربون. وتولى فى ذلك الوقت وزارة التربية والتعليم . ألف كتابا أسماه «دروس فى الأدب الفرنسى - Cours de litterature Française . ولد سنة ١٧٩٠ م ومات سنة ١٨٧٠م . المترجم

(٤) Cours de littérature française, t. 111 : tableau du xvIII siécle , 11e partie, 2e leçon, p. 4

الأدبي الرزين ذى القيمة العظيمة ؛ فى حين أن الرواية البدائية الخيالية لم تكن تتلاءم إلا مع طفولة الشعوب .

المقالة الثالثه

الأسباب الأصيلة لتطور الرواية فى العصور الحديثة

كانت الرواية نادرة جداً ، بل شاذة فى الأدب اليونانى والأدب اللاتينى (١) ويمكن التساؤل لماذا كانت الرواية مهملة بالنسبة للقدماء فى حين أنها نمت وأصبحت لها مكانة رفيعة عند المحدثين ؟ يمكن أن يجاب على ذلك بما يأتى :

أولا : إن حاجة القدماء للأمور العجيبة والمغامرات الخارقة للمألوف ، التى تعتبر أساسا لنشأة الرواية البدائية ، قد وجدت لها منفذا فى الملحمه . وإن مانراه فى الأوديسا من أسفار - أوليس - خلال البحار يذكرنا فى كثير من المواطن بمغامرات - روبينسون كروزو . لقد بدأت الملحمة تأخذ صورة الرواية فى ملحمة - أرجونوتيك- les Argonautiques - للشاعر اليونانى أبو للونيوس الروديسى - (٢) حيث يهتم القارىء اهتماما خاصا بتصوير حب ميديه (٣) - Médée - من أجل - جازون (٤) - Jason - . وهنا نستطيع القول بأن الجزء الخاص بميديه فى هذه الملحمه يعتبر أول رواية فى الأدب اليونانى . ومن الحق أن نقرر أن قصص البطولة ، والعجائب النادره التى ذكرها الشاعر هومير لم تعد تشبع رغبة المجتمع السكندرى ؛ ذلك المجتمع الذى عرف بالانحلال ؛ ولكنه انحلال فيه رقة ورشاقه ؛

---

(١) فى الأدب اللاتينى نجد رواية — ساتيركون — للكاتب بيترون « المؤلف »

(٢) أبو للونيوس الروديسى ؛ نحوى وشاعر يونانى ؛ كان فى مدينة الاسكندرية وبرز فى هذين الميدانين من بين أقرانه ، وقد اعتبره مؤرخو الآداب عالما عبقريا وخطيبا بارعا . وقد ظهرت هذه المواهب فى ملحمته - ارجونوتيك — عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد . المترجم

(٣، ٤) ميديه وجازون ليسا سوى بطلين من أبطال الملحمة — أرجونوتيك — المشار اليهما آنفا . المترجم

ذلك المجتمع الذى فقد التعطش للحروب ، ففقدبذلك المزايا الحربيه . وإذن فنواة الرواية الأولى كانت فىالملحمة .ولولا حظنا تحور الملحمة إلى رواية فى شعب من الشعوب لوجدناأن « ذلك يدل على أن حاجة هذا الشعب إلى القصص لم تتغير ، ولكن الشعب نفسه هو الذى تغير فأصبح عامياوفيه جانب من معانى الطفوله(١)» .

ثانيا : إن الملاحظة الواقعية كانت دائماعند القدماء ، وأكثر من ذلك عند من قلدهم من الكلاسيكيين ؛ نقول إن هذهالملاحظة كانت عند هؤلاء وأولئك ناقصة ، وتكاد تشبه الأمور المتفق عليها . كانوا يجابهون هذا الواقع من وجهة نظر خاصه ، كما كانوا يبحثون فيه عن المرء من ناحية إحساساته العامه . أما الفرد من حيث هو ، والحادث من حيث هو ، والتفصيل المادى من حيث هو كذلك فلم يكن لذلك كله فى نظرهم أى اعتبـــار . والنظرة الواقعية الكاملة المتصلة بالطبيعة التى نشأت عنها الرواية الحديثه تعتبر نظرة حديثة جدا. وعهد الناس بهذه النظرة يكاد يكون عهدهم بمبادىء التاريخ العلمى والاجتماعى، الذى نشأ فى خلال القرن التاسع عشر . وإليك ما يقوله فى ذلك الكاتب الناقد ـ برونتيير(٢) ـ Brunetiére : « إن هؤلاء المؤلفين ـ لوساج (٣) ـ Le Sage ـ و ـ ماريفو (٤) ـ Merivaux ـ و ـ بريفو (٥) ـ

---

(١) E. Faguet, Revue de deux - mondes 1er Janvier 1902, p.163 المؤلف

(٢ ؛ ٣) تقدم الكلام عليهما .

(٤) ماريفو Marivaux كاتب مسرحى فرنسى كتب مجموعة من المسرحيات التى تحلل النفس الانسانيه تحليلا دقيقا واقعيا ، ومن أهم مسرحياته Le Jeu de L'amour et du hasard و La Surprise de l'amour وله بعد ذلك روايتان مشهورتان هما - La Vie de Marianne و Le Paysan parvenu. ولد سنة ١٦٨٨ ومات ١٧٦٣ . المترجم

(٥) بريفو Prévost ، أحد رجال الدين الذين كان لهم ولع بالأدب فى فرنسا ، ويعتبر من الكتاب الفرنسيين . فقد كتب روايات عدة أهمها - رواية مانون ليسكو - Manon Lescaut التى سيشير اليها المؤلف بعد قليل . ولد سنة ١٦٩٧م ومات سنة١٧٦٣م . المترجم

Prévost ـ و ـ كريبيون (١) ـ Crébillon ، وكأنهم أحسوا سلفا بأننا سنعرف الانسان من حيث هو إنسان معرفة تكاد تكون كامله ؛ نقول إن هؤلاء المؤلفين ، وكأنهم أحسوا بذلك ، قد أمعنوا بالنسبة لهذه الروايات ـ جيل بلاس (٢) ـ و ـ مانون ليسكو (٣) ـ Manon Lescaut ـ و ـ ماريان(٤) ـ Marianne ـ في ملاحظة الخصائص والأحداث ؛ ذلك الذى يميز شخصا عن شخص آخر من ناحية الملامح الذاتيه والخلقية ؛ وبمعنى آخر ، كما يعبر أحد هؤلاء المؤلفين ، ما يميز بائعة الاقمشة عن غيرها من النساء ، وما يميز سائق العربة عن غيره من الرجال . ولكن لنلاحظ أن ما أخفق فيه هؤلاء المؤلفون كاد ينجح فيه مؤلف هذه الروايات (٥) : نوفيل هيلوييز ـ Nouvelle Heloïse ، إميل(٦) ـ Emile ، الاعترافات (٧) ـ Confessions ، ويرى « أن الواقع يساوى بالضبط ما تساويه العين التى نظرته ، والروح التى أدركته واليد التى سطرته(٨) » . ومنذ عهد روسو استمر تطور الرواية فى سيره ؛ فلقد صور المؤلفون الروائيون من الفرنسيين كل مشاهد الطبيعة تصويرا صادقا ، لا فرق فى ذلك بين أهم تلك المشاهد وأبسطها ؛ فبينما نراهم يصورون أحقر الحوانيت ، كحوانيت المقامرة الوضيعة ، نراهم كذلك يصورون أفخم القصور والصالونات . لقد صوروا كل الطبقات الاجتماعيه من أرفعها إلى أوضعها بدون استثناء ؛ كما صوروا كذلك كل الأخلاق حتى أخلاق الفلاح البدائى فى حذائه الخشبى أو العامل البسيط فى ملابسه الوضيعه .

---

(١) كريبيو Crébillon شاعر فرنسى من شعراء المسرح ، كتب عددا من المسرحيات ولد سنة ١٦٧٤ م ومات سنة ١٧٦٢ م. المترجم

(٢ ، ٣ ، ٤) تقدم الكلام على هذه الروايات .

(٥) يريد بذلك جان جاك روسو (المترجم)

(٦ ، ٧) هما مؤلفان من مؤلفات جان جاك روسو وقد تقدم الكلام على هذا المؤلف .

(٨) m. Brunetiére , Revue des deux - mondes, 15 Janvier 1888

ثالثا : هذاوالذى يشرح ، بصفةخاصة ، إقبال الناس على الرواية إقبالا شديدا فى عصر قد تلاشت فيه الفوارق بين الأنواع الأدبيه إنما هو إطارها السهل المرن الذى يتمشى مع كل الموضوعات ، ومع كل الأنواع من التأليف ، ومع كل الأساليب. إنه لا يمكن تحديد مادة الرواية : ويشمل موضوعها الفرد والمجتمع والطبيعه ، كما يشمل كل الاحساسات منذ أبسطها إلى أدقها ، وسواء فى ذلك الاحساسات الأشد سخريه أم الأكثر نبلا . طورا يكون التأليف مركزا ، بسيطا كما فى التأليف التراجيدى عند راسين أو التأليف الكوميدى عند موليير ؛ وطورا يكون مفصلا ، متراميا على طريقة التأليف فى الملاحم ، مفعما بالكثير من الشخصيات المختلفة ، ممتلئا بضوضاء الشعب ودوى المعارك : وطورا آخر نجده يكتنف الكثير من الموضوعات الغزلية بين الرعاة كما صنعت جورج سان- george sand؛ وأخيرا يمكن أن يقال إن أسلوب الرواية لم يحدد تحديدا تاما ؛ أو بالاحرى لا يوجد أسلوب خاص يمكن أن نسميه أسلوب الرواية كما نجد فى الانواع الادبية الاخرى؛ إذ أن هناك أسلوب الملحمة ، والاسلوب الغنائى ، والاسلوب الخطابى ، وأسلوب التاريخ . إن كل خصائص الاساليب المختلفة ممكنة هنا تبعا للموضوع والمؤلفين ؛ ففيها النثر المنمق الذى يستعمل فى الخطابات ، وفيها اللغة المبسطة العادية التى تستعمل فى الحديث ،وفيها اللغة القارصة الحاسمة التى تستعمل فى الهجاء ؛ كما يوجد فيها ، على عكس ما تقدم ، الصور الجريئة ، والالوان الحاره الثائرة والفقرات الواسعة المتناسقه التى تستعمل فى الشعر .

ومن الحق أن نقول : ان الرواية فى هذا العصر ترمى الى أن تكون الشعر الذى لانظم له ولا وزن فيه ، ذلك الذى قاله عنها بوالو : « الشعر المنثور » وباستثناء جانب النظم أو الوزن من الشعر ، ذلك الجانب الذى كان بالنسبة للقدماء الأداة الأساسية للتعبير عما ينتجه الخيال ، نقول أنه باستثناء جانب النظم أوالوزن فان كتاب الرواية المعاصرين قد حرموا الشعر من شكله الطبيعى الكامل . غير أن

الخسارة قد استعاض عنها الشعر بفائدة مزدوجة . نلاحظ أولا أن القدرة على النظم تعتبر ملكة خاصة لا يقدر عليها إلا الموهوبون ، ولنا على ذلك مانجده لدى كثير من الكتاب الموهوبين ، ذوى المقدرة العظيمة بالنسبة لدقة الحس وسعة الخيال مثل (شاتو برياند) الذى بلغ القمة فى التأليف بالشعر المنثور ؛ هؤلاء الكتاب لم تكن لديهم المقدرة على النظم الجيد ونتيجة ذلك أنهم وجدوا فى الرواية متنفسا لمواهبهم ومنفذا يستطيعون بواسطته على الأقل الوصول إلى درجة راقية من الشعر ان لم يستطيعوا الوصول إلى قمته ومنتهاه ، فكثير من الكتاب لم يهيأ لهم الوصول إلى تملك زمام فن النظم ، ومع ذلك فإن أفكارهم تهتز كما تهتز أفكار الشعراء وإحساساتهم تترنح كما تترنح الأنغام على قيثارة الشعر . ونلاحظ بعد ذلك أن النظم أو الشعر المنظوم لو تركت ممارسته لنخبة مختارة فقط لما اتجه أيضا إلا إلى نخبة مختارة فقط . ولكى يمكن تذوق هذه الموسيقى داخل المقاطع ، وذلك الانسجام الدقيق المرهف ، وذلك الجمال الرائع المقنع ، نقول لكى يمكن تذوق ذلك كله فى الشعر يجب أن تتوفر الطبيعة الفنية ، واللطف والدقة فى الإدراك ، والتربية فى الذوق على نمط ما كان موجوداً قديماً وبدرجة عالية عند اليونانيين ؛ غير أن ذلك لا يتوفر الآن إلا لدى قليل جداً من الناس ؛ وفى مقابل ذلك نجد لغة النثر ؛ وهى الأكثر ارتيادا والأقل رقة ، تستطيع أن تصل إلى كل الأسماع ، وأن تتذوقها كل العقول . وإذن فالرواية الحديثة قد هيأت لأكبر عدد من الناس الفرصة لأدراك وتذوق ما ينتجه الخيال ؛ بل ولما يرمى اليه الكتاب من مثالية فى بعض الأحيان .

المقـــالة الرابعة

مغزى الرواية

لقد انتقد بشدة كل من بوسويه وفينيلون وبوالو التأثير الذى كانت تحدثه قراءة الروايات فى القرن السابع عشر ؛ فأنت ترى بوسويه يثنى على هنرييت أميرة

انجلترى من أجل انها « تتعلق بقراءة التاريخ » وفى قراءتها للتاريخ تفقد ، دون شعور منها، ذوق قراءة الروايات ومعرفة مافيها من ابطال جهلة حمقى ؛ ولا هتمامها بمعرفة ماهو حق كانت تحتقر هـــذه الأوهام التافهة الخطيرة (١) » وكذلك فى كتابه Maximes et reflexions sur la comédie. تجده يعد الروايات ضمن « الكتب التى تدعو إلى إفساد وانحلال الحياة الانسانية » ولم يكن بوالو أقل من بوسويه قسوة فى النقد بالنسبة لهذه الناحية فى تلك الروايات فيصفها « بأنها فاسدة وبأن قراءتها تعتبر من أخطر الأشياء بالنسبة للشباب » (٢) .

ولو نظرنا إلى الرواية من حيث هى فإننا لانستطيع أن نحكم عليها بالخير ولا بالشر ؛ ولكن المسألة هى مسألة الانطباع ؛ الذى تتركه قراءة الرواية فى أنفسنا ؛ فهو الذى يوصف بالخير أو الشر وفقا لما تحتوى عليه الرواية ولما يتوفر فى القارىء من استعدادات . وبالرغم من ذلك فان كل الروايات التى جاءت بعد رواية (أستريه Astrée) وكانت متأثرة بها تنطوى على شر مضاعف وتستحق تماما نقد بوسويه ، وبوالو . فبينما نرى ان الجانب المثالى الشعرى فى الرواية ، وهو حقيقة ثابتة دائماً ، يهذبنا ويثقفنا ويقوى من عزائمنا ، كما يصنعه فينا الشراب المقوى حتى ولو كان فى بعض الأحيان مراً ،نقول بينما نرى هذا الجانب من الرواية يحدث ذلك الأثر إذا بنا نرى الجانب الخيالى فيها حينما لايكون فى مواجهته إحساس طيب وإدراك قوى ليعارضا ذلك الأثر ، يملأ مخيلتنا بالأوهام ويقدم للحياة أكثر المبادىء خطأ وأشدها خدعة وغروراً . وذلك بالنسبة للقارىء بمثابة النشوة التى

---

(١) Oraisón funébre d'Henriette d'Angleterre , édition Jacquinet pp. 113 - 114

(٢) Lettre à perrault - . ويقف - لافونتين - أيضا نفس الموقف فى نقد الروايات ؛ فيقول فى آخر حياته وفى خطبته التى قالها شعرا فى يوم استقباله فى الاكاديمية الفرنسية (١٦٨٤) : ان قراءة الروايات ولعب الميسر ليسا سوى مرض يفتك بالدول ؛ لقد انحرفت بواسطتها العقول الأشد استقامة المؤلف

يحدثها تدخين الحشيش ؛ فهى بعد ان تذهب عنه تتركه غنيمة للضيق والملل وتأنيب الضمير . اننا حينما نعتاد السفر فى بلد الأحلام الجميلة الزرقاء سيكون من الصعب علينا العودة إلى بلد الحقيقة والواقع ؛ كما سيكون من الصعب علينا أيضا ان نستسلم للواجبات القاسية ، ولما فى الوجود من حركات رتيبة مملة .

ثم يأتى بعد ذلك الجانب المخصص للحب وخصوصاً ما كان منه سلبياً ؛ وهذا الجانب لايقل خطراً عن الجانب الخيالى . وهؤلاء المتطرفون من بطلات الحب وأبطاله الذين لايشغلون الا به ، ولا يهدفون الا اليه ، والذين يستلهمون من الحب كل اعمالهم ، والذين يقضون وقتهم فى التنهدات وفى الجرى وراء المغامرات ؛ هؤلاء فى الواقع ليسوا سوى امثلة تعيسة مسكينة من امثلة الانسانية . ان المرء لم يخلق ولم يوجد فى هــذه الدنيا للحب ؛ ولكنه خلق ليعمل ، وليؤدى مهمة شاقة يفرضها عليه الوجود فى كل يوم . هناك شىء أعظم بكثير من الحب وأنبل منه بكثير ؛ ذلك هو الواجب . وغالبا مايكون الواجب عدواً للحب ؛ أن هذه الصور المريضة والأوصاف السقيمة للعواطف التى نجدها فى الرواية ، ليست شيئا آخر سوى مصدر من مصادر الانحلال ، اذ أنها تزعج الروح وتحطم الإرادة فى حين أن كلا من الإرادة والروح فى حاجة الى القوة والتصميم . أننا فى بحث مستمر عن قصة أنفسنا الخاصة وعن رواية حياتنا الخاصة ؛ ولقد لاحظنا تماما أننا ننتهى من هذا البحث الى أن نعثر على ذلك فى قصص الآخرين ورواياتهم (١) .

لقد أصبحت الرواية فى العصور الحديثة أكثر اتزانا ، وأكثر واقعية ، وأقل تحديدا وانعزالا مما كانت عليه فى القرن السابع عشر . ومع ذلك فإنها لم تنجح فى أن تتخلص تماما من الجانب الخيالى الذى لا نزال نجد الكثير من آثاره

---

(١) اليك ما قالته - جورج ساند - الى واحدة من المعجبات بها « لا تفكرى فى اللعب=

لدى - جورج ساند - و- بالزاك - و أوكتاف (١) فوييه - Octave Feuillet
إنها استطاعت أن توسع دائرتها فتشمل كل الاحساسات الانسانية كالبخل والطمع والنفاق من ناحية وكالشجاعة والبذل ونبل الأخلاق أو سمو الروح من ناحية أخرى : غير أن الحب فى كل صوره لا يزال أيضا هو الموضوع المحبب الى المؤلفين والى الجمهور . والفرق الوحيد بين الحب كما كان يصوره السابقون وكما تصوره الرواية فى هذا العصر هو أن الحب فى هذه الأيام لم يكن مصدرا للتأوه ولا للتنهد إلا فى النادر القليل ؛ لقد أصبح قاتلا . والآن لا نتحدث هنا عن الروايات « التقليدية » التى ألفها - زولا (٢) -Zola - ولا عن الروايات التى ألفها الأخوان - جو نكور (٣) - Goncourt - ؛ فهذه وتلك ليست الا عرضا للفضائح التى ما كانت تنبغى أن تعد ضمن الآثار الأدبية ؛ وذلك لأننا نعيذ منها شرف الإنسانية وشرف المؤلفين الروائيين .

ولكى نوجز ذلك نقول ان الروايات لا تخلو من خطر بالنسبة للشباب ؛ ذلك الشباب الذى يندفع بحكم احساسه الملتهب وخياله المتجول فى المهامه الى ازعاج التعقل والتدبر وتخطئة القيادة الحكيمة فى الحياة ؛ وكل ذلك انما هو على حساب العقل الناشىء الوليد . ومن الممكن أن تكون الرواية نوعا من التسلية لا غذاء

= يا ليليا ، كونى أمرأة طيبة وفى بساطة تامة » إن الوسيلة لأن تكون امرأة طيبه وفى بساطة تامة ليست فى نظر جورج ساند الا شيئا واحدا ، هو عدم تقليد واحدة من بطلات الروايات فى مسلكها بعد أن أحدث هذا المسلك فى نفس القارئة اضطرابا وسحرا (المؤلف)

(١) أوكتاف فوييه Octave Feuillet كاتب روائى فرنسى أمتاز بجودة أسلوبه ورقة تعبيره ، وبجانب ما كتبه من روايات قد ألف عددا من المسرحيات ومن أهم ما كتبه «رواية شاب فقير» ولد سنة ١٨٢١ م ومات سنة ١٨٩٠ م . المترجم

(٢) زولا Zola كاتب روائى مشهور ؛ ويعتبر رئيس المدرسة الأدبية ذات المذهب الطبيعى ؛ مبادئه العلمية كانت دائما محلا للنقاش ؛ أما أسلوبه فهو محل تقدير وإعجاب . وله عدد غير يسير من الروايات . ولد سنة ١٨٤٠ م ومات سنة ١٩٠٢ م المترجم

(٣) جونكور Goncourt اسم لأخوين أديبين عرفا فى ميدان الكتابة الأدبية أحدهما ادمودى جونكور والثانى جول دى جونكور . قد كتبا روايات رائعة ولعل أهم ما كتباه : « الفن فى القرن الثامن عشر » المترجم

لمن تقدم بهم السن أو للأدباء الذين لا يبحثون فيها عن اشباع رغبة صبيانية أو مريضه : بل عن صور فنيه وعن استزادة فى معرفة القلب الإنسانى . وهذان الأمران وحدهما كفيلان بالتخفيف من حدة سموم القراءة فى الروايات (١) .

المقالة الخامسة

الأنواع المختلفة من الرواية

لما كانت الرواية غير محددة الإطار ولا ثابتة القواعد فقد وجد منها أنواع عديدة مختلفة . ونود هنا أن نتناول أهم هذه الأنواع .

أولا : رواية المغامرات وهى عبارة عن نسيج من الأعمال المنطوية على المفاجآت أو المباغتات ، والاحداث التى تشتمل على الاعاجيب . وهذا النوع من الروايات يهدف الى اشباع ما فينا من ذوق لما يخالف ما اعتدناه ؛ كما يهدف أيضا الى ايقاظ المخيلة والتأثير فيها . لقد بدأ المؤلف القصصى - لوساج - بروايته - Aventures de M. Robert Chevalier, Capitaine de Flibustier dans la Nouvelle - France (1732) - واحـــدة من أوائل القصص ذى الاعاجيب الغريبة فى فرنسا ؛ وكان أقبال الناس على هذه الروايات عظيما فى خارج فرنسا ؛ بواسطة ما كتبه (٢) - Fenimore cooper - و - Mayne - Reid - (٣) - كما كان أقبال الفرنسيين عظيما أيضا بواسطة ما كتبه - Gustave Aimard (٤) -

---

(١) اننا لا نشارك أحدى الامهات الرأى فيما كتبته لابنتها فى Journal d'une femme - لصاحبه - Octave Feuillet - « فلتعلمى أن الروأية والهوى قد يفيدان أحيانا بعون الله ، فهما يسموان بالقلب ، ويعرفانه أسمى الواجبات وأعظم أنواع البذل وأرفع أنواع السرور فى الحياة » (المؤلف)

(٢) لم أهتد إليه و (٣) كاتب امريكى عاش فى القرن التاسع عشر المترجم

(٤) جوستاف ايمار Gustave Aimard : كاتب روائى فرنسى : كتب عددا من الروايات ذوات المغامرات . ولد سنة ١٨١٨ م ومات سنة ١٨٨٣ م المترجم

و - Jules Verne (١) - قد نحس أحيانا بأن قصص العفاريت أو المرده؛ وقصص الاطياف والاشباح أو السحره تنقلنا الى عالم آخر هو من صنع الخيال والاوهام .

ثانيا : الرواية العاطفية ؛ ويتناول هذا النوع قصة تاريخ مؤثر أو مغامرة من مغامرات القلب . أو حكاية مما يجرى عادة فى البيوت ؛ ولقد أخذ هذا النوع مكانه فى الوجود والشهره بواسطة المؤلف الانجليزى - Richardson (٢) - الذى كتب - Pamela - كما كتب - Clarisse Harlowe وبواسطة - روسو - الذى ألف Nouvelle Héloïse

ثالثا : الرواية المتصلة بالتحليل النفسى أو بالتحليل الخلقى ؛ وهى تحلل بصفة خاصة العواطف والاهواء ؛ثم تدور فى أغلب الاحيان حول أمر يتصل بالضمير . وأول مثال لذلك ،بل أكمل مثال له انما هو رواية - La Princesse de Cléves التى ألفتها - Madame de la Fayette (٣) ولقد بقيت هذه الرواية فريدة أو شاذة فى خلال القرن السابع عشر . وكان - M. Paul Bourget (٤) - هو الذى عرف بها وأذاع شهرتها فى عصرنا هذا .

رابعا : الرواية ذات الهدف أو الرسالة ؛ وهذا النوع لا يستهدف لذة القارىء

---

(١) جول فيرن Jules Verne : كاتب روائى فرنسى يمتاز بسمة الخيال : كتب روايات عدة حتى انه ليعتبر من المكثرين ، ولد سنة ١٨٢٨ م ومات سنة ١٩٠٥ المترجم

(٢) ريشارد سون Richardson : كاتب روائى انجليزى عاش ما بين سنتى ١٦٨٩ م و١٧٦١م وله هاتان الروايتان اللتان ذكرهما المؤلف . المترجم

(٣) ما دام دى لافاييت madame de La Fayettc : أديبة كاتبه فرنسية رقيقة الاسلوب موجزة العبارة . لهـا هذه الروايه التى ذكرها المؤلف : ولها كذلك كتاب اسمه - Memoires - ولدت سنة ١٦٣٤م وماتت سنة ١٦٩٣ م المترجم

(١١) بول بورجيه - Paul Bourget : أحد أعضاء الاكاديميه الفرنسيه . كتب عددا من الروايات : منها : Le Disciple - ، و Le Demon de midi - وله كذلك الرواية التى سيشير اليها المؤلف بعد قليل وهى Terre Promise أو الارض الموعودة ولد سنة ١٨٥٢ م و مات سنة ١٩٣٥ م المترجم

ولا التأثير فيه ؛ وانما يهدف الى درس خلق ويدعونا الى التدبر والتفكير . وهنا كما فى المسرح يخاطر المؤلف بتغيير الحقيقة والواقع لكى يوفق بين هذا الواقع وبين فكرة كوّنها من قبل فى نفسه . ومن الواجب أن تبرز رسالة المؤلف من الاعمال أو الحوادث التى يتناولها ؛ كما يجب ألا تكون هذه الرسالة شيئا آخر سوى درس من تجاربه الشخصية . ويوجد من هذه الروايات ما هو جدير بالتقدير حقا ؛ ذلك لاننا نلمح فيها براعة المؤلف حين يدس فى ثنايا المغامرات البسيطة فى مظهرها أحد المبادىء الفلسفية الهـامة الخطيرة ؛ من أمثال هذه الروايات ماكتبه - Bourget ، m - ؛ ونخص من ذلك على طريق المثال رواية - الارض الموعودة - Terre Promise (١) - .

خامسا : الرواية الخاصة بالعادات والاخلاق ؛ وهى تصور الانسان فى ظروفه الاجتماعية المختلفة ؛ تصور العامل والفلاح والبورجوازى والنبيل والطبيب والقاضى وصاحب المال . ومن أجل ذلك يمكن تسمية هذا النوع من الروايات الرواية الاجتماعية . وأهم من يمثل المؤلفين لهذا النوع هم — لوساج وماريفو فى القرن الثامن عشر ؛ وبالزاك فى القرن التاسع عشر .

سادسا : الرواية الوصفية ؛ وهى تخصص مكانا واسعا للمناظر والمشاهد والطبيعة الجميلة ؛ بل ان هذا المكان قد يطغى فى بعض الاحيان على الاماكن الاخرى . ولقد تولد من هذا النوع فرعان آخران من الروايات : هما الرواية الخاصة بشئون الرعاه ؛ والروايات الخاصة بشؤن بلد أجنبى .

أما رواية الرعاة الحديثة فهى لاتشبه فى شىء رواية - استريه - حيث تجرى حوادثها فى ريف من صنع الخيـال وبين رعاة متحضرين من الفتيان والفتيات . ولو أننا استثنينا من رواية - Le Nouvelle Heloïse - بعض المنـاظر الريفيـة

---

(١) الارض الموعودة : هى رواية مشهورة للكاتب السابق بول بورجيه (المترجم)

الحقيقية ، كالفصل الذى كُتِب عن جمع العنب فى كلاران (١) Clarens - ، ومن رواية - Galatée et Estelle - للمؤلف - Florian - (٢) ماجاء فيها من أوصاف للمناظر الطبعية فى مقاطعة - سيفين - Cévénnes (٣)، نقول لو استثنينا هذا وذاك من تلك الروايات لحق لنا أن نقول ان الكاتبة - جورج ساند - هى التى نمت هذا النوع ووصلت به الى درجة الكمال ؛ وذلك بواسطة ما جمعته فيه من المثالية والواقعية وما تصورته من لوحات ريفية مدهشة .

وأما الرواية الخاصة بما يوجد وما يجرى فى البلاد الأجنبية فانها تنقلنا بدورها الى تلك البلاد لنرى ما فيها من مشاهد وندرك ما لأهلها من طباع وخصال تختلف تماما عما تقع عليه أعيننا فى بلادنا . وهكذا صنع كل من - Gomberville - والقسيس - Prevost - ، اذ ان الأول منهم أرانا أبطال روايته تتنزه فى مراعى أمريكا الجنوبية ، وأرانا الثانى ابطاله تتنزه فى سهول أورليان الجديدة بالولايات المتحدة ؛ غير أن وصف كل منهما كان وصفا لطبيعة خيالية . والمبتكر الحقيقى لهذا النوع من الروايات انما هو Bernardin de Saint - Pierre فقد استطاع فى روايته - Paul et Virginie - أن يصور البلاد الحارة التى زارها، تصويرا ممتعا بقدر ما كان دقيقا ، ثم أصبح فيما بعد - وان كنا لا نعرف ذلك معرفة كاملة - المثال الذى احتذاه شاتو بريانd . ومن الحق أن نقرر أن التلميذ قد سبق استاذه فى هذا المضمار . ثم جاء بعد ذلك - بيير لوتى - فصور تصويرا دقيقا

---

(١) كلارانس Clarens - احدى القرى السويسرية تقع على بحيرة ليمان - Léman وقد اشتهرت هذه القريه بسبب المدة التى أقامها فيها جان جاك روسو المترجم

(٢) فلوريان - Florian ؛ أحد الكتاب الفرنسيين الذين تنوعت كتابتهم بين عدد من الموضوعات المختلفة ؛ فقد كتب مسرحيات كما كتب حكايات على السنة الحيوانات مثل صنيع لافونتين . ولد سنة ١٧٥٦ م . ومات سنة ١٧٩٤ وكتب روايات منها هذه الرواية التى أشار إليها المؤلف المترجم .

(٣) سيفين - Cévénnes : مجموعه من الجبال فى أواسط فرنسا. المترجم

البلاد النائية التى زارها ، والتى أوصله اليها عمله فى البحرية كضابط ، والتى كانت له فيها مغامرات .

سابعا : الرواية التاريخية ؛ وهى تعمل على احياء بعض الشخصيات الكبيرة ، كما تعمل على احياء الحضارات التى اختفت معالمها . ولكن هنا أيضا نجد اختلافا بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر، إذ أن رواية Cléopâtre (١) - ورواية Le Grand Cyrus (٢) . ورواية - La Clélie (٣) - ليس لها من القديم إلا الاسماء ؛ أما أبطالها الحقيقيون فهم السادة الذين يعملون فى قصر لويس الرابع عشر . والقارىء لا يجد عناء فى أن يعرف أن المقصود من - Cyrus - هو - Condé - وأن المقصود من - Mandane (٤) - هو - Madame de Longueville . وفى هذه الروايات فضلا عن ذلك لا نجد أى لون خاص من ألوان البيئات القديمة ؛ فما نراه فى هذه الروايات من خصال وعادات إنما هو نفس ما نراه فى المجتمع الفرنسى وما نراه كذلك من تفاصيل مادية لا يشبه فى شىء ما هو موجود عند الفرس أو اليونانيين أو الروم .

أما رواية Les Martyrs التى ألفها شاتوبرياند، ورواية Quentin - Durward ثم رواية - Ivanhoé - اللتان من تأليف الكاتب الانجليزى walter Scott (٥) -

---

(١) كليوباترا ؛ احدى الروايات المعروفة التى كتبها - لا كالربنيد . وقد تقدم الكلام عليه

(٢ و٣) روايتان معروفتان قد كتبتها الآنسة مادلين دى سكوديرى التى تقدم الكلام عليها

(٤) ماندن Mandane ؛ هو اسم لأمرأة - سيروس - Cyrus - كما تقص الأساطير القديمة وقد أرادت صاحبة الرواية كما يذهب المؤلف بهذا الاسم - مادام دى لونجفيل وهى الدوقه آن جنيفيف أخت الأمير كونديه . المترجم

(٥) وولتر سكوت - Walter Scott - : كاتب روائى انجليزى مشهور : وتتميز رواياته بالحيوية والدقة وصلتها بالماضى وقد ألف روايات عدة : منها Quentin Durward و - Ivanhoé ؛ و - waverley - و Les Puritains - L'Antiquaire ولد سنة ١٧٧١م ومات سنة ١٨٣٢ م . المترجم

هذه الروايات التي كانت عظيمة التقدير في نظر الكتاب الروائيين استطاعت أن أن تقدم المثل الجيد لتصوير الماضي تصويرا صادقا دقيقا حيا . وبعد ذلك ألفت روايات تفيض بالتفاصيل التاريخية فضلا عن التفاصيل الأثرية ؛ من هذه الروايات رواية Cinq-Mars - لـ - Alfred de Vigny (١) ورواية - Notre - Dame de Paris لفكتور هوجو ورواية - Les Chouans - لبالزاك ورواية Salammbo لـ Flaubert - (٢) غير أن - ديدرو - Diderot(٣) - قد انتقد بشدة هذه الروايات وأمثالها . اذ قال : « إنكم تخدعون الجهال وتبعثون الاشمئزاز في نفوس المثقفين . انكم تفسدون التاريخ بهذه الخيالات والأوهام كما أنكم تفسدون هذه الخيالات بالتاريخ (٤) »

والواقع أن الرواية التاريخية ليست أكثر تزييفا من المسرحيات التاريخية التي ألفها كورني وراسين ، كما أنها ليست بأكثر تزييفا أيضا من الروايات التي تعتمد على النظرة الفاحصة والملاحظة الدقيقة . حيث يجيء الخيال فيغير الواقع ويجعله مثاليا . وحيث يختلط فيها الوهم بالحقيقة . ان الرواية التاريخيه تستعيض بالتاريخ عن الملاحظة المباشرة للناس والأحداث . ومن أجل ذلك فقد عرفوها بأنها رواية

---

(١) الفريد دى فيني Alfred de Vigny : شاعر وروائي فرنسي . له من المؤلفات عدد غير يسير ؛ من ذلك Poémés antiques et modèrnes و - de Destineés - و - de Servitude et Grandeur militaires - و - de Chatterton - و Cinq - Mars - وقد عاش من سنة ١٧٩٧ م الى سنة ١٨٦٣ م المترجم

(٢) فلوبير Flaubert ؛ كاتب أديب روائي فرنسي ؛ ومن أهم ما ألفه - Salammbo - و madame Bovary - ; كان قوى الملاحظة كما كانت كتاباته واقعيه ؛ ويمتاز أسلوبه بالعناية الزائدة . ولد سنة ١٨٢١م ومات سنة ١٨٨٠م المترجم

(٣) ديديرو - Diderot ؛ فيلسوف فرنسي حاول جهده أن ينشر الأفكار الفلسفيه التي نشرت في القرن الثامن عشر . وهو فوق ذلك ناقد فنان ومن أهم المفكرين في عصره ؛ هو الذى بدأ بتأليف دائرة المعارف . وله عدد كبير من الروايات ولد سنه ١٧١٣ ومات سنة ١٧٨٤ - المترجم

(٤) Claude et Néron 1. 11, 101 .

الخصال والعادات السالفة » (١) وفى هذه الرواية لا يبحث القارىء عن دروس يتلقاها عن أحد العلماء وإنما يبحث عن الآمال الوهمية فى الحياة . تلك الأوهام التى هى من خصائص الروايات الجيدة فى التأليف » (٢)

وبعد فاننا لو نظرنا الى هذه الروايات جميعا ، لا من حيث ما تحتوى عليه ، بل من حيث مناهجها الفنية والأدبية . لوجدنا أنه من الممكن أن تقسم الى أنواع ثلاثة :

روايات طبيعية . روايات واقعية . روايات مثالية

كل هذه التقسيمات بطبيعة الحال ، كما لاحظنا ذلك فيما مضى وفى مناسبات عدة ، ليست مبنية على حدود قاطعة . بل على اعتبارات وأوصاف غالبة . اذ لا توجد روايه من روايات المغامرات ألا ويوجد فيها تفاصيل عن الخصال والعادات أو عن التحليل النفسى . كما لا توجد رواية واقعية إلا ويوجد فيها قليل من المثالية بالنسبة للأحداث والاحساسات .

المقالة السادسه

الروايات القصيرة : الحكايات — الأخبار

أما الحكايات فيقصد منها قصة قصيرة تشغل بضع صفحات . ووجه الشبه بينها وبين الرواية من حيث الطول والقصر كوجه الشبه بين قصة من قصص — لافونتين — ومسرحيه من مسرحيات موليير أو راسين . أو كوجه الشبه بين قلم ولوحة عريضة . وأما الخبر فهو عبارة عن قصة قصيرة أيضا ولكنها « تدور

---

(١) E. Faguet, Revue des Deux - Mondes, 1er Mars 1900
La Renaissance du Roman Historique

(٢) نفس المرجع السابق ; E. Faguet

(٣) انظر فى كتابنا: Les Principales écoles artistiques et litteraires, pp. 30 - 31 - : Théor. de comp. liltt.

حول موضوع حديث أو قريب العهد بالعصر الحديث أو مشتمل على تفصيلات مجهولة حتى الآن » (١)

وأهم ما يميز هذه الملح إنما هو السرعة والخفه الامر الذى يجعل ريشة الكاتب تنزلق وتجرى دون أن تمعن ولا تتعثر . واليك ما يقوله لافونتين :

يجب ألا نمعن فى الموضوع ولا نتعمق فيه . كما يجب ألا نمسه إلا كما تمس الزهر (٢) لقد ألف لافونتين نظما بعض الحكايات المشتملة على كثير من الاباحية والتحلل مقلدا فيها الايطاليين . وارتفعت مكانة النثر فى خلال القرن الثامن عشر ، غير أن الكتاب قد غالوا فى مسألة الاباحية والتحلل أكثر مما كان عليه لافونتين . وأحسن ما ألف من هذا النوع. أى نوع الحكايات ، إنما هو كتاب - ألفونس دوديه - الذى كتبه تحت هذا العنوان : Lettres de Mon Moulin - وذلك بواسطة ما فيه من دقة فى التأليف ، ولطف وخفة فى التعبير وشعر حى فى المعانى ولكنه يتوارى خلف الصيغة النثرية ، فحكاية - L'Installation au Moulin - وحكاية - La chévre de M. Seguin - ، من مجموعة الحكايات المتقدمة ، تذكرنا تماما بما جاء فى مجموعة لافونتين من الحكايات المعروفة باسم Les Fables - ، وذلك لما فيها من الكمال فى التعبير والخفة والوضوح بالنسبة لريشة التصوير.

وكل أنواع الروايات يمكن وجودها فى الحكايات ، فهناك نجد فيها التفاصيل الواقعية والقصص الغرامية ؛ والمغامرات المدهشة وتواريخ الجن أو السحر أو الأمور الخيالية . التى كان يسميها آباؤنا « الحكايات الزرقاء (٣)

---

(١) أنظر كلمة - Conte - فى قاموس - Littré,

(٢) La Fontaine, Fables 1 v1, Epilogue

(١) كانت تسمى كذلك لانها كانت تغلف بورق أزرق (المؤلف)

أما الأخبـــار فقد دخلت إلى فرنسا من أسبانيا على يد ـ سكارون[١] ـ Scarron ـ فى خلال القرن السابع عشر . وكان غرض ـ سكارون ـ من ذلك هو معارضة الروايات الطويلة، التى تعالج موضوعات البطوله ، والتى يعسر هضمها أو فهمها . وتعتبر شخصية ـ Montufar ـ من مجموعة شخصياته ـ Hypocrites ـ المحاولة الاولى التى اعتمد عليها موليير ليؤلف مسرحية ـ تارتوف ـ . وفى خلال القرن التاسع عشر اشتد ساعد هذا النوع من التأليف ورجع إليه شبابه على يد ـ Prosper Mèrimèe ؛ وذلك بواسطة مجموعة من التواريخ أو الحكايات القصيره التى بقيت مشهورة ؛ ويجب أن نذكر من ذلك ـ La Prise de la Redoute [٧] ـ و ـ Les Ames Du Purgatoire ـ [٢]

---

(١) سكاروا - Scarron ؛ شاعر وكاتب فرنسى ومن طائفة الكتاب المضحكين ، الف عددا من الروايات والمسرحيات أهمها Virgile Travesti – و Roman Comique – ومن الحق أن تقول ان تأليفه من اجل المسرح هو الذى مهد السبيل امام موليير ليبرز فى هذا الميدان. ولد سنة ١٦١٠ ومات سنه ١٦٦٠ م ومما كتبه أيضا المسرحية التى يشير اليها المؤلف هنا بعنوان Hypocrites المترجم

(٢) بروسبير ميريميه Prosper Merimée - ، روائى فرنسى ، له من المؤلفات فيما عدا ما ذكره مؤلفنا هنا Chronique De Charles 1x – ، – Colomba – ، ولد سنه ١٨٠٣ ومات سنة ١٨٧٠ م المترجم

الفصل الرابع

النثر التعليمى

المقالة الأولى

التعريف

يعرض النثر التعليمى فى صيغة أدبيه المكتشفات والنماذج العلميه أو النظريات الفنيه . فهو يعالج إذن نفس الموضوعات التى يعالجها الشعر التعليمى . ولكن بينما يقوم الشعر بصفة خاصة على الانفعالات والصور ولا يمكنه مواجهة العرض الصارم الذى نراه فى أحد النماذج العلميه ، دون أن يؤول أمره إلى حالة من الجفاف والجمود وأن يتنكر لنفسه ؛ نقول ، بينما يقوم الشعر على ذلك ، اذبنا نجد النثر على العكس من ذلك يفضل أن يتجه الى العقل ويعمل على اثارة المتعة بواسطة ما يحتوى عليه من دقة أو عمق فى النظرات ومن ضبط فى الحوادث ، ومن قسوة وتركيز فى التأليف ومن بيان وتحديد فى الاسلوب . ومن المؤكد أن العلماء والمفكرين والنقاد لا يعوزهم الاحساس ولا الخيال ، كما أنه من المؤكد أيضا أن هاتين الموهبتين تمنحان الاثر الفنى قيمته الأدبية . غير أن ما هو معروف عنهم من سيطرة على الاحساس أو الانفعال ومن اقتصاد فى الزخرفة والتزيين يجعلنا دائما نلمح فيما يكتبون التركيز فى الافكار والقوة والاستقامة فى البرهنة والاستدلال

ومو ضوع النثر التعليمى هو نفس موضوع الشعر التعليمى ، أى أنه يعالج الحقيقة والخير والجمال أو بعبارة أخرى يعالج العلوم الطبعية ؛ والعلوم الاخلاقية والفنون .

المقـــالة الثانيه

العلوم الطبيعية

سوف لا نتحدث هنا عن العلوم المضبوطة أو عن الرياضيات ؛ إذ أن هذه العلوم ، فيما عدا علم الفلك ، ليست على استعداد لقبول الصيغ والتعبيرات الأدبية . فالمسألة الحسابية والنظرية الجبرية ، والقضية الهندسية ، كل من ذلك لا يوقظ فى أنفسنا أدنى تأثير ولا يبعث فى خيالنـا أية صورة . وكل ما تهيئه تلك العمليات من لذة لايهم إلا العقل الخالص . إن هذه النظريات وتلك العمليات لا تصنع معنا أكثر من أن تنقلنا إلى عالم جامد من الأرقام والصيغ المجردة ، حيث لا تصل إليـه أشعة الحياة ولا حرارتها .

أما العـلوم الطبيعية فهى على عكس ذلك ؛ وميدان هذه العلوم ، كما يفهم من اللفظ ، هو الطبيعة ، أى العالم الذى تقع عليه أعيننا من أرض ونبات وحيوان . وهذه العلوم ، التى يثير منظرها أقل النقاد انتباها ، مهمتها أن تصف من هذا العالم ما فيه من آيات ، وأن تحاول أن تنفذ إلى مافيه من أسرار ، كما تحاول أيضا أن تشرح أسرار حياة العالم . من هو ذلك الانسان الذى لا ينزعج خياله ولا تتأثر حساسيته حينما يدرك مبلغ ضآلته فى وسط هذه القائمة الهائلة من الكائنات ، تلك القائمة التى يهبط فيها حتى يصل إلى أصغر الكائنات ، ثم يصعد كذلك حتى يحس بضآلته بين أعظم الكائنات ، فيذهب من الذرة إلى الكواكب المتناهية فى الكبر ؟ ومن هو ذلك العالم ، الذى لا تتملكه الدهشة حين يدرس تركيب الجسم فى الحيوانات وطبائعها ونظام العمل لديها أو حين يدرس تكوين النباتات وما فى ذلك من دقة متناهية وتنوع لا يحصى ، أو حين يدرس مظهر القوى الطبيعية الهائلة وما كان من تفاعل فيما بينها مما أدى إلى نشأة الأرض التى نعيش عليها ؟ هذه الانطباعات ، التى تعتبر وليدة الدهشة والتقدير ، لابد وأن تترك أثرها فى أسلوب هذه المؤلفات العلمية ؛ وذلك مثل ما نراه فى كتاب ـ بوفون[1] Buffon ـ

---

(١) بوفون ـ Buffon ؛ هو أحد الكتاب الفرنسيين الذين اتخذوا من الطبيعة موضوعاً =

الذى يعرف باسم les Epoques de la Nature ؛ وفى كتابه الآخر الذى يعرف باسم Histoire Naturelle .

المقالة الثالثة

العلوم الأخلاقية

إن موضوع هذه العلوم هو عالم الأخلاق ، أى حياة الروح . وفى إمكاننا أن نقسمها إلى علوم دينية ؛ وهى التى تبحث فى الله وفى الشعائر الدينية التى يجب على الأنسان أن يمارسها بالنسبه لخالقه ؛ وإلى علوم فلسفية ؛ وهى التى تدرس الحياة العقلية والأخلاقية للأنسان ؛ وإلى علوم اجتماعية ؛ وهى التى تعنى بتحليل وظيفة المجتمع وما يشتمل عليه من قوانين .

العقيدة أو الدين

لقد ألهمت العقيدة المسيحيه كثيراً من الكتاب فألفوا عدداً كبيراً متنوعاً فى هذا الميدان . مثال ذلك الكتاب المسمى -Imitation de Jésus[1] - Christ- ، وهو أجمل كتاب كتبه إنسان ولا يفوقه سوى الأنجيل ؛ والانجيل قد نزل من عند الله . ومن ذلك أيضاً ما كتبه — بوسويه تحت هذا العنوان : - Elévation sur les Mystéres والحق أن المسيحية خلقت كثيراً من الكتاب العباقرة ؛ فبعضهم ، أمثال بوسويه ، قد أخذ على عاتقه بيان الحقيقة ؛ والبعض الآخر، أمثال - شاتوبرياند - ؛ قد أخذ على عاتقه بيان الجمال ؛ من ذلك ما نراه فى كتاب شاتوبريان - Génie du Christianisme

الفلسفة

استطاع افلاطون فيما مضى أن يوفق بين أرق النظريات الميتافيزيقية وأدق

= أساسياً لكتاباتهم.من تأليفه Histoire naturelle - الذى أمضى فى كتابته نحو أربعين سنة . ولد سنة ١٧٠٧ م ومات سنة ١٧٨٨ م . المترجم

(١) Imitation de Jesus - christ ؛ هذا عنوان لكتاب لم يعرف مؤلفه ولكنه كتب باللغة اللاتينية الواضحة . المترجم .

الأبحاث المنطقية وبين أغنى الأساليب وأسمى أنواع الخيال . وسلك نفس الطريق فى خلال القرن السابع عشر بوسويه وفنيلون ، و- مالبرنش - Malebranche(١)-: كما كان Maine de Biran (٢) - و- Cousin (٣) - و - Jouffroy(٤) - و - Taine (٥) - من أكبر الفلاسفة وأعظم الكتاب فى خلال القرن التاسع عشر ؛ ثم سار على منهج فنيلون ومالبرانش كثير من القسس مثل Gratry - و d'Hulst - و - de Proglie - و C. Piat - - . وسيبقى هؤلاء أهم وأرقى من يمثل رجال الكهنوت المعاصرين فى تاريخ الأدب والفكر . وسنرى فى المثال الآتى كيف يمكن للموضوعات الفلسفية أن تعالج بلغة حية فى متناول الجميع ، وأن تجمع بين الدقة العلمية وجمال الصيغة البديع . وإليك صفحة جديرة بأن تنسب إلى باسكال قد كتبها القس - de Broglie - حيث يشرح لنا فيها عدم موضوعية الألوان والنغم ؛ أى أنها لا وجود لها مستقلا ، وإنما وجودها فى أنفسنا :

« انظروا إلى هذا العالم نظرة موضوعية بعد أن تجرد من الصورة البراقة التى كسته بها احساساتنا. تمشى الذرات وفقاً لطريقها المعتاد ؛ فتارة تتلاقى ، وتارة تتصادم ، وتارة تهتز ولكن ذلك كله فى سكون . فالهواء يمر فوق الشجر ولكن الشجر يرتجف دون أن يحدث أى نغم .والبحر يضرب بقوة شاطئه ثم يدفع إليه بأمواجه المضطربة

(١) مالبرانش - Malebranche - ؛ أحد رجال الدين الفرنسيين الذين اشتغلوا بالأدب وانتجوا فيه . وكانت له نظرات فلسفية عميقة تتعلق بصلة الروح مع الجسم ؛ ومن أهم مبادئه الدعوة الى الخالق الفاضل والتزام جانب التفاؤل ، كتب - Recherche de la Verité ولد سنة ١٦٣٨ ومات سنة ١٧١٥ المترجم

(٢) مين دى بيران Maine de Biran - ؛ فيلسوف فرنسى ولد سنة ١٧٦٦ م ومات سنة ١٨٢٤ م المترجم

(٣) كوزان Cousin - ؛ فيلسوف فرنسى وأحد رجال السياسة المعروفين . الف الكتاب المعروف باسم Du vrai, de beau et de bien ولد سنة ١٧٩٢م و مات سنة ١٨٦٧م المترجم

(٤) جوفروا - Jouffroy ؛ فيلسوف فرنسى ؛ وبواسطته عرفت الفلسفة الانجليزية (الايكوسية) فى فرنسا . ولد سنة ١٧٩٦م ومات سنة ١٨٤٢ م المترجم

(٥) تين Taine - ؛ « تقدم الكلام عليه ص٢٣ من هذا المجلد »

ولكن هذه الأمواج لا تحدث أى زئير . ليست هناك آذان لتسمعها وبدون آذان ينعدم الإحساس بالنغم انعداماً تاماً ، أو بالأحرى لا يوجد صوت آخر سوى حركة الهواء نفسها . لا تفتأ الشمس ترسل أشعتها إلى الأرض كالسهام ، أى أنها توجه إليها تموجات من الأثير بسرعة مختلفة وبأطوال متباينة ،ولكن هذه الألوان المتنوعه التى يكسو الضوء بها الأرض ، لا تلبث أن تختفى ؛ فلا تظهر لأية عين : إنها لا وجود لها ؛ إنها ليست سوى اهتزازات . ولو قلنا إن العالم بأكمله فى ظلام حالك لما كان ذلك صحيحاً ؛ فالظلام نفسه ليس شيئاً آخر سوى إحساس ، وفوق ذلك فهو فى ظاهره يتنافى مع معرفة الأشياء معرفة واضحة . ولكن بالنسبة للشخص الذى لا عين له ، والذى لا يرى إلا من خلال ما أودع فيه من ذكاء فالعالم لا يتميز بأى نوع من الألوان ، ولو كان من اللازم أن نفترض لونا ما لحاجة خيالنا إليه ، فإن ذلك اللون لن يكون شيئاً آخر سوى اللون الرمادى ، الذى يكون على نسق واحد؛ ذلك اللون ، الذى يبدو وكأنه اللون الوسط بالنسبة لإحساساتنا الخاصة بالضوء ، والذى نعيره بالضرورة إلى كل المبادىء التجريدية للمساحات أو للهندسة . وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن هذا العالم المادى المركب من ذرات متحركة ، هذا العالم الممل ذا الحركة الرتيبة ، هذا العالم الميت لا يستضيء ، ولا يتغير ، ولا يبدو فى بريقه المعتاد إلا فى اللحظة التى يحدث فيها اتصال بين هذا العالم وبين كائن حساس . انه عندما يحدث هذا الاتصال بالشبكة العينية تُرَى الذرات الأثيرية فى سيرها المتنوع وفى ألوانها المتغيرة . وحتى تلك اللحظة لم يكن ذلك كله سوى حركات ؛ كما أنه حتى تلك اللحظة أيضاً لم تختلف الأصوات والألوان إلا بواسطة الأبعاد ، والحركة بالنسبة للأجسام المتحركة ؛ وبين هذه وتلك لا يوجد فارق إلا الفارق الذى نراه بين حركة رصاصة تنطلق من بندقية ، وحركة قذيفة تنطلق من مدفع (١) »

(١) La Positivisme et la Science expérimentale, t,I, p, 512, cité par M. l'abbé Piat dans Réligion et Critique, préface, p. LVIII.

العلوم الاجتماعية

لقد شغلت المسائل الاجتماعية ، كمسالة نظام الحكم والملكيّة والأسرة ، أذهان الناس فى كل وقت من الأوقات ؛ فقد حاول أفلاطون أن يرسم منهج جمهورية مثالية ؛ ووصف أرسطو من بعده نظام الحكم عند الاثينيين ؛ وفى خلال القرن السابع عشر ألف بوسويه كتابه : - Critique tirée de l'Ecriture Sainte - ؛ كما شرح فينيلون فى كتابه - Télémaque - نظام الحكم فى - Salente - ؛ وهذا البلد فى خيال المؤلف عبارة عن فرنسا كما كان يتصورها ويحلم بها ؛ ثم ظهر فى القرن الثامن عشر كتاب - مونتيسكيو (١) تحت هذا العنوان : L'Esperit des lois وهو كتاب ملىء بالنظرات العميقة الأصيلة ؛ كما ظهر كتاب روسو بهذا العنوان : - Contrat Social - وهذا الكتاب الهدام الذى يشبه كتب السوفسطائيين ، والذى يفيض بالعبارات الرنانة ، والأساليب الخطابية ، والتراكيب الحماسية ، كان بمثابة انجيل الثورة الفرنسية . وبالاضافة إلى ذلك نشأ فى القرن الثامن عشر علم الاقتصاد السياسى ، الذى يدرس ثروة البلد وما يرفل فيه الشعب من رخاء مادى . ولقد برز فى هذا الميدان أيضاً كتاب عباقرة ؛ منهم Jean - Baptiste - Say (٢) و - Le Play (٣)

المؤلفون فى الأخلاق

وبهذه المناسبة يجب ألا ننسى هؤلاء الذين كتبوا فى الأخلاق . وظيفة هؤلاء الكتاب، كما قالت - Mme de Sévigné - أثناء الحديث عن واحد منهم اسمه - نيقول -

---

(١) مونتيسكيو - Montesquieu ؛ أديب فرنسى مشهور ؛ أهم ما ألفه هو - Lettre persanes - و - De la grandeur et de la décadence - و L'Esprit des lois . ولد سنة ١٦٨٩ ومات سنة ١٧٥٥ المترجم

(٢) جان باتيست سى Jean-Baptiste Say احد رجال الاقتصاد المعروفين فى فرنسا ؛ وله فى ذلك نظرية خاصه . ولد سنه ١٧٦٧ ومات سنه ١٨٣٢ م المترجم

(٣) لوبلى Le Play ؛ أحد رجال الاقتصاد فى فرنسا ؛ وله فى هذا الميدان بعض المؤلفات منها : la Reforme sociale en France . ولد سنة ١٨٠٦ ومات سنه ١٨٨٢ م المترجم

هى « البحث بمصباح فى زوايا القلب(١) . » . ومهمة هؤلاء الكتاب تنحصر فقط فى الكتابة عن الأخلاق ، والعادات، والطبائع ، والتربية ، والعواطف والأفكار .

عصور هؤلاء الكتاب

« بقدر ما ينتظم أمر الشعب وما يحرزه عقل المجتمع من تقدم تمتلىء الكتب بالمبادىء التى تنطبق بوجه عام على الانسان أكثر من انطباقها على أى شىء آخر . غير أن التفكير فى إعطاء هذه المبادىء كل خصائص الفن وجماله ، وذلك بأن نضيف إليها صوراً للترغيب أو الترهيب ، هذا التفكير لا يمكن أن يصدر إلا عن عقل مستنير وبين شعب عظيم وفى عصر بلغت الحياة الانسانية فيه آخر مراحلها من النضج . إنها حاجة ماسة لدى المجتمعات التى وصلت إلى اكتمالها أن تسجل قواعد الحياة . وتصيغ ما عرفته من تجاربها فى مبادىء وأن ترشد الأجيال المقبلة بواسطة المثل الطيبة فى الماضى . هذه المجتمعات تشبه فى ذلك الأفراد الذين وصلوا إلى آخر مرحلة فى مهنهم أو وظائفهم ثم أدوا ما عليهم من واجبات ؛ إنهم بعد ذلك يعملون على الدعوة إلى الأخلاق (٢) » . ومن أجل ذلك كان القرن السابع عشر عصر هؤلاء الكتاب فى الميدان الأخلاقى : وقد برز منهم عدد غير يسير مثل — لاروشفوكو -La Rochefoucauld و Pascal- لابروبير- La Bruyére. ومن قبلهم قد شق هذا الطريق أمامهم - مونتينى - Montaigne ، الذى ألف كتابه تحت هذا العنوان : Fssais [محاولات]

نوع التأليف الخاص بهؤلاء الكتاب

ليس من شأن هؤلاء الكتاب فى الواقع أن يكونوا فلاسفة يؤسسون القواعد

---

(١) Lettre a Madame de Grignan, 30 sep, I671

(٢) Nisard, Histoire de la littérature française t. 111.p. 167

(٣) لاروشفوكو La Rochefoucauld - ; أديب فرنسى من أسرة نبيلة ؟ وله كتاب مشهور ضمنه آراءه وأفكاره تحت عنوان - maximes - ولدسنة ١٦١٣م ومات سنه ١٦٨٠م المترجم

والنظريات ، ويؤلفون الأبحاث الخاصة بنقطة من النقط الأخلاقية ؛ ولكنهم ينشرون هنا وهناك فى ثنايا كتبهم بعض المبادىء القصيرة الواضحة ، وبعض التحليلات الدقيقة ، وبعض الصور والأوصاف الناطقة . ومع ذلك فإننا نجد لديهم فكرة رئيسية ، وفلسفة داخلية تسيّران بوجه عام كل ما لديهم من أفكار ؛ ذلك لأن الأنسان الأخلاقى الحق هو الذى لا يكتفى بتصوير الحياة فقط ، بل بالحكم عليها أيضاً . لقد كانت المسيحية بمثابة الدواء للشك عند — مونتينى — ولحب الذات عند — لاروشـــفوكو — وللتشاؤم عند باسكال ؛ هذه هى الروح التى تسيطر على كل أفكارهم وتأملاتهم ، ثم تعطى للتأليف عندهم نوعا من الوحدة والانسجام .

المقالة الرابعه

الفنون

نظرة عامة الى الفن

كان من هم نظريات الفن أن تشغل بالقديم . لقد عالج أفلاطون مسألة الجمال فى كتابه — وليمة — Banquet — ؛ كما تحدث سيسرون حديثاً شائقاً عن المثالية فى كتابه Orator — ؛ غير أن الاهتمام العظيم بمسائل الجمال لم يوجد إلا فى العصور الحديثة ؛ حيث كان ذلك بواسطه — ديدرو - Diderot — فى كتابه Salons وبواسطة - تين - فى كتابة Philosophie de l'Art — وبواسطة Fromentin فى كتابه - Maîtres d'autrefois . لقد شرح هؤلاء الثلاثة ، ناقدان موهوبان ورسام ممتاز ، وجهة نظرهم بالنسبة للفن بوجه عام وبالنسبة للرسم بوجه خاص

---

(١) فرومانتان — Fromentin ؛ رسام وكاتب فرنسى ، وقد تخصص فى رسم العالم الشرقى والكتابه عنه ؛وله غيرالكتاب الذى ذكره المؤلف كتاب تحت عنوان — Dominiqu ويعتبر هذا الكتاب رواية هامة من الناحيه النفسيه حيث يجد القارىء فيه تحليلا للنفس الانسانيه قلما يجد نظيره عند كاتب آخر . ولد سنة ١٨٢٠م ومات سنة ١٨٧٦ م. المترجم

ومع كل ذلك فإن الأدب هو الذى كان موضع بحث ودراسة ؛ ويمكن وضع تلك الابحاث وهذه الدراسات تحت عنوان — النقد الأدبى — .

النقد الأدبى

يطلق النقد الأدبى فى أيامنا هـــذه على الكتب العديدة فى تاريخ الآداب الكلاسيكيه ، فرنسية كانت أم لاتينية أم يونانية ، وفى تاريخ الآداب الأجنبية ، إيطالية كانت أم اسبانية ، أم انجليزية ، أم المانية ، أم روسية ، إلى غير ذلك من تاريخ الآداب الأجنبية ؛ كما يطلق كذلك على الكتب التى كتبت عن عصر من العصور الأدبية ، أو عن مؤلف من المؤلفين الأدباء ، أو عن نوع من الأنواع الأدبية . من ذلك ما كتبه Saint - Marc - Girardin تحت عنوان — Cours - de littérature dramatique ومن مجموع المقالات التى نشرت فى الصحف للناقد — سانت — بوف — Sainte-Beuve (٢) خرج هذا الكتاب — أحاديث الأثنين Caurs du Lundi الذى يشتمل على كثير من الدقة والجرأة .

نشأة النقد الأدبى (٣)

ينشأ النقد الأدبى فى العصور التى تمتاز بالتأمل والتفكير بحيث توجد الرغبة فى

---

(١) سان مارك جيراردان Saint-Marc – Girardin ناقد فرنسى مشهور ، وفى هذا الكتاب الذى ذكره له المؤلف توجد آراء فى النقد عميقة وملاحظات قويه . ولد سنه ١٨٠١ ومات سنه ١٨٧٣م المترجم

(٢) سانت بوف – Saint-Beuve ؛ أديب ناقد فرنسى مشهور ، وقد بدأ حياته الا ديبه بنظم الشعر حيث نجد له فى هذا الميدان أكثر من ديوان ؛ ثم الف روايه مشهوره تحت هـذا العـنوان : – Volupté - ؛ وله بعد ذلك كتب عديده فى الادب أهمها Causeries du-Lundi و Nouvaeu Lundi ولد سنه ١٨٠٤م ومات سنه ١٨٦٩م. المترجم

(٣) لقد تناول موضوع النقد كثير من الكتاب ؛ فبعضهم نظر اليه نظرة عامه شاملة فتحدث عنه من حيث هو ؛ وبعضهم تناوله من زاويه خاصه فتحدث عن النقد فى الادب أو فى غيره من فروع المعرفه المختلفه

وحديث مؤلفنا هنا عن النقد الادبى يعتبر لمحه بسيطه عن نشأة هذا العلم ونموه فى القرن =

تحليل الآثار الفنية ، وفى تفهم أسرار وقواعد التأليف الفنى ، وفى إدراك اللذة التى يمكن تذوقها فى هذه الآثار . بقى لنا من آثار أرسطو فى هذا النحو من التأليف

= التاسع عشر . وليس لنا أن نطالبه بأكثر من ذلك فى هذا الكتاب . ولكننا رأينا أن هذا الموضوع ينبغى أن يكون نصيبه من العنايه والاهتمام أكثر من نصيب غيره من الموضوعات التى يشملها حديث المؤلف ؛ اذ أن النقد الادبى قد أصبح فى درسه ضرورة من الضروريات لا يفهم الادب فهما صحيحا بدونه ولا يعترف بثقافه التلميذ أو الطالب إلا اذا كان ملما بحدوده ونظرياته .

ومن أجل ذلك كله قد ابحنا لانفسنا أن نلقى على النقد الادبى نظرة خاصة تنير بعض جوانبه وتزيح الستار عن بعض زواياه الغامضه

فما هو النقد بالنسبة لاستعمال اللغوى ثم بالنسبة لاصطلاح الادباء ؟

النقد فى اللغة هو التمييز بين شيئين أو أشياء مختلفة ؛ فيقال نقد الدراهم ، أى ميز جيدها من زيفها ؛ ولذلك قيل أن الصراف ناقد لأنه يستطيع أن يميز الصحيح من الفاسد بالنسبة للنقود . وفى أصطلاح النقاد هو درس النتاج الفكرى وشرحه ثم إصدار الحكم عليه ، وقد عرفه الكاتب الفرنسى ، لا برويير ، بأنه «الفن الذى يستلزم من الصحة أكثر من العقل ومن العمل أكثر من المقدرة ومن التعود أكثر من العبقرية» . ومن هذا نرى أن هذا العلم وأن كان يبحث فى الآثار الفكرية إلا أنه يعتمد على القوى الحسية أكثر من اعتماده على المواهب العقلية .

والنقد بهذا الاعتبار وعلى هذا الأساس يبحث فى أنواع عديدة مختلفة من المعارف ولذلك فقد قسموه إلى الأقسام الآتية :—

أولا النقد الفلسفى : وهو البحث الذى يتجه إلى وضع حدود للمعرفة فى حد ذاتها فيجمع العناصر بعد بحثها فى هيكل واحد ، وهو بهذا الوضع يتناول كل أنواع العلوم إذ غرضه الأول هو المعرفة العامة .

ثانياً النقد الدينى : وموضوعه درس الكتب المقدسة والآثار الدينية وقد مارس هذا النوع من الدرس المسلمون والمسيحيون على السواء ، غير أن المسلمين قد تناولوه فى شكل ضيق وفى دائرة محدودة ولذا فنحن حين نسمى هذا الدرس نقداً نكون متجوزين إلى حد ما وعلى هذا الأساس فالنقد فى هذا الميدان قد ظهر فى كتب التفسير التى تناولت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية . قد شرح هؤلاء المفسرون التراكيب فى النصوص واهتموا بصفة خاصة ببيان وجه البلاغة والأعجاز فى القرآن ولذا فقد أمكن أعتبارهم نقاداً . ولا يخفى أن هؤلاء قد تصدوا لهذه المهمة وهم معتقدون أن النصوص القرآنية نزلت من عند الله لفظاً ومعنى ؛ فهو إذن كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما المسيحيون فمنهم الكاثوليك الذين بنوا نقدهم على أساس أن الله قد ألهم نصوص كتابه إلى المؤلفين وحثهم على كتابته وعصمهم من الخطأ بل وأعانهم فى التأليف نفسه . فهم آذن يشرحون نصوصه من حيث العقيدة والأخلاق متناولين أيضاً نسبة النصوص إلى مؤلفيها ثم توضيحها بما يصنعون من مقارنات بين هذه النصوص وغيرها . ومما يجدر ذكره أن عقيدتهم فى إلهام الله لهذه النصوص لم تهدم شخصية الكاتب ولم تتناس طابعه الخاص الذى تعطيه ثقافته أو زمنه أو خلقه أو أسلوبه وهذا فارق جوهرى بين عقيدة المسيحيين فى كتابهم المقدس وبين عقيدة المسلمين فى القرآن الكريم .

أما البروتستانت فنظرتهم تختلف عن سابقيهم فهى عندهم كتب إنسانية أى أنها من وضع البشر ولكنهم مع ذلك يعترفون بما لها من أصل إلهى . وهم فى نقدهم لهذه الكتب بهذا الإعتبار يطبقون الطريقة التاريخية .

ثالثـا النقد التاريخى وهو الدرس التفصيلى للمراجع التاريخية الذى يرمى إلى أستخلاص الحقيقة مما علق بها من شوائب على مر الزمن ، ويستلزم هذا بلا شك مراجع المشافهةوالكتابة والآثار ، ونظرة عاجلة فى كتب التاريخ عندنا معشر الشرقيين نجد أن هذا النوع من النقد لا يكاد يظهر له أثر .

رابعـاً النقد اللغوى أو نقد النصوص ومدار بحثه هو تصحيح هذه النصوص ثم التأكد من نسبتها إلى قائليها وهذا النوع من النقد قد نشأ فى الشرق عند المسلمين بل أنه نضج ووصل إلى درجة من الدقة لا تكاد تجارى ولولا ضيق الدائرة التى تناولهـا لكان لدينا من نتائجه ما يغنينا عن أبحاث متشعبة ؛ ومن آثار هذا النقد علم الرواية وقدنشأ هذا العلم للتأكد منصحة الأحاديث ونسبتها إلىالرسول صلى الله عليه وسلم

خامساً النقد الأدبى وهو بلا شك أوسع هذه الأنواع مدى . والنقد الأدبى فى الواقع قديم النشأة فقد بدأ ظهوره عند اليونان ثم مارسه الرومان ومن بعدهم العرب وعن هؤلاء وأولئك أخذ المحدثون . وهذا الدرس وإن امتد إلى عصور قديمة إلا أنه قد تغير فى طرقه وفى أغراضه على مر الزمن .

والأصل فىهذا العلم هو تلك الملاحظة العاجلة التى كانت تتوارد على خواطر الفلاسفة والكتاب من اليونانيين إذ كانوا يتساءلون فىشئ من الغرابة : «لماذا تحتفظ الذاكرة ببعض الآثار الأدبية بينما بعضها الآخر يختفى من الذكرة تماماً ؟ » .

قد بحث القدماء هذا السؤال وعللوه بما يحتويه الأثر الفنى أو الأدبى منجمال وقد هداهم هذا إلى البحث فى الجمال من حيث هو أى خارج تلك الآثار الأدبية والفنية، ثم أنهم رجعوا مرة أخرى إلى البحث فى الجمال عن الآثار الأدبية والفنية وتوسعوا فى هذاالبحث حتى أطلق عليه علم النقد ، وإذن فموضوع هذا العلم هو درس جمال الآثار الأدبية فى ذاتها ، ثم تعليم

طرق هذا الجمال وقواعده التى تسمح للشخص أو تؤهله لتحقيق هذا الجمال فى الأثر الأدبى إن هو أقدم عليه وعلى دراسته

النقد الأدبى عند اليونان : — أن أول من تصدى لهذا البحث عنداليونان هو «أفلاطون» ولكنه قد تناوله بشكل عام فتكلم عن الجمال وعن الفنون وعن الشعر ثم جاء منبعده «أرسطو» فجمع هذه الملاحظات المشتته والأفكار الأدبية العامة وأظهرهافى شكل قواعد ولذا فيمكن أن نعتبر بحق أن أرسطو هو أول من نظم هذا العلم ووضع أسسه وقواعده .

ومن بعد أرسطو جاء «تيوفراست» فكتب فى النقد كتبا عدة إذ أنه وجد الطريق ممهداً أمامه . نشأت مدرسة الإسكندرية وورثت أثينا فى علومها ومعارفها وتناولت فيما تناولته من أبحاث النقد الادبى ولعل أهم أثر لمدرسة الإسكندرية فى هذا الميدان هو أنها حولت النقد من الناحية الفلسفية إلى الناحية العلمية واللغوية . وأكبر علماء النقد فى الإسكندرية هم « أريستارك » وكان يعرف بأمير نقاد الإسكندرية ، «دينيس داليكارناس» الذى تناول بالتفصيل الكلام على الأسلوب والقواعد والأسس فى الخطابة ، «بلوتارك» الذى امتاز بنقده الأخلاقى وباتجاهه إلى العامة من الشعب إذ بسط لهم الأدب وجعله فى متناول الكثير .

النقد عند الرومان : قد بدأ النقد أبحاثه عند اللاتينيين بالنظر فى القواعد النحوية ولعل أقدم أثر لهذا الدرس عندهم هو تعليق «أيليوس ستيلو» على الشاعر المسرحى المعروف باسم «بلوت» .

ثم جاء من بعده «ڤارون» فكتب كتاباً أسماه «De Lingua Latina» وأخيراً «يوليوس قيصر» فكتب كتابه المشهور « de l'analogie » . غير أن تلك الكتب كانت تعنى باللغة اللاتينية فى حد ذاتها منصرفة تماماً عن الآثار الأدبية وعن النقد بمعناه الصريح . أما النقد الحقيقى عندهم فقد جاء بعد هذه الملاحظات العامة وأول ما تناوله عندهم هو فن الخطابة وليس من شك فى أن أول ناقد عندهم بهذا المعنى وأكبر ناقد فى الوقت نفسه هو «سيسيرون» الخطيب العظيم ؛ قد وجه سيسيرون كل همه فى أبحاثه النقدية صوب الخطابة فكتب رسالة قيمة فى البيان وكتب مجلدات عدة عن الخطابة والخطيب وشرح الأسس والقواعد لكل منها . ثم جاء « كانتليانوس - Quintilianus فكتب أيضاً عن القواعد الخطابية ومن بعده جاء « تاسيت - Tacite » فكتب رسالته المشهورة «حوار الخطباء» . وفيه ٣ نقط أساسية : مقارنة قيمة الخطابة بقيمة الشعر ، هل الخطابة فى تدهور ؟ ، أسباب هذا التدهور ؟ . ثم جاء « هوارس » فأراد أن يخرج بالنقد من هذه الدائرة الضيقة ويرجع به إلى محاكات اليونان وتقليدهم فى تشعب الأبحاث النقدية فكتب « الفن الشعرى Ars Poetica » جاءت العصور الوسطى فات النقد عند الغربيين أو كاد يموت ولكن حين بدأت الدراسات القديمة بدأ معها درس النقد الأدبى فظهر أول ماظهر «دفاع وشهرة اللغة الفرنيسة» La défence et l'illustration de la langue française.

كتاباه — Rhétorique و Poetique أى كتاب البيان ، وكتاب الشعر ؛ غير أن الأخير لسوء الحظ لم يصل إلينا كاملا ؛ وهو فى جملته عبارة عن مجموعة من الملاحظات الدراسية البسيطة ؛ ولكنها مع ذلك تحتوى على بعض النظرات العميقة . ثم ألف بعد ذلك سيسرون بحثين فى البيان ؛ هما : -De Oratore - و Orator أى « عن الخطيب » و « الخطيب » . ومما يسمو بقيمة هذين البحثين هو أن المؤلف لهما كان خطيباً مفوهاً . ومنذ عصر النهضة فى فرنسا يزداد عدد المحاولات التى كتبت فى النقد ؛ من ذلك الكتب الآتية : Défence et illustration de la langue française لمؤلفه يواخيم - دوبيلى -(١) Joachim du Bellay ؛ وكتاب - Commentaire - لمؤلفه - ماليرب - Malherbe (٢)؛ وهو عبارة عن شرح وتعليق على الشاعر - Philippe

---

= لمؤلفه « يواخيم دوبيلى » ومن بعده تطور النقد وتعددت نواحيه فاتجه لدراسته عدد غير قليل من العلماء الغربيين . ولننظر الآن بعد هذه الجولة الخاطفة إلى النقد الأدبى عند العرب .

النقد الأدبى عند العرب : بدأ النقد عند العرب بملاحظات عامة تارة تلقى على عواهنها وتارة يحللونها ويمعنون النظر فيها لتكون بمثابة قواعد فى هذا الدرس . وأهم ما نلاحظه هو أن النقد عند العرب كان جل اهتمامه بالشعر . ويدل هذا على أن الشعر بلغ شأوه وكماله عند العرب قبل نضج الآثار الأدبية الأخرى ، وهذا يشبه تماماً ما رأيناه عند اللاتينيين إذ تناول النقد أولا فن الخطابة حين كانت الخطابة أرقى الفنون الأدبية الأخرى .

وأول كتاب فى النقد هو «طبقات الشعراء» لابن سلام . ثم جاء من بعده ابن قتيبة فكتب مقدمة «الشعر والشعراء» ، ثم الآمدى فكتب «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» ، ثم الجرجانى فكتب «الوساطة بين المتنبى وخصومه» ، ثم ابن رشيق فكتب «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» ثم جاء الدور الذى تناول النقد فيه الآثار الأدبية بشكل أوسع فكتب فى هذا «الصناعتين لأبى هلال العسكرى» والموشح للمرزبانى ، ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، دلائل الأعجاز لعبد القاهر الجرجانى . المترجم

١ - يواخيم دو بيلى JOACHIME DU BELLAY ، شاعر فرنسى مشهور ، ولقد ساهم كتابه الذى ذكره مؤلفنا مساهمة عظيمة فى إنشاء مدرسة أدبية جديدة فى فرنسا . وله عدا ذلك الكتاب أكثر من ديوان فى الشعر . ولد سنة ١٥٢٢م ومات سنة ١٥٦٠م المترجم

٢ - ماليرب MALHERBE ، شاعر غنائى فرنسى ، استحق عن جدارة أن يقال عنه —

Desportes (١) وكتاب - Le Pratique du Théâtre - لمؤلفه القس دو بيناك(٢) l'Abbé d'Aubignac - وكتاب - Les Sentiments de l'Academie ثم كتاب Sur le Cid - وهما للمؤلف - Les Dialogues des héros de Roman - بوالو(٣)-؛ وكتاب- Lettre sur les occupations de l'Academie française لصاحبه - فينيلون - ؛ وكتاب - Commentaire sur Corneille - لمؤلفه فولتير ولفولتير أيضاً Essai sur le poéme épique ؛ وعدد من المقالات الأدبية نشرت في- Dictionnaire Philosophique . ولقد أصبح النقد الأدبي على يد لاهارب(٤) - La Harpe مهنة ، بل مادة للدراسة ؛ إذ أنه أخذ يدرسه في المدرسة الحرة التي كانت تعرف باسم الليسيه .

تطور النقد في القرن التاسع عشر

لقد أحدث القرن التاسع عشر في ميدان النقد تغييراً يشبه التغيير الذى حدث في التاريخ وفي الرواية . وقبل هذا القرن كانت أحكامنا بالنسبة للأثر الأدبي تنصب على الظاهر ؛ مثل الحكم على فن التأليف ، والحكم على الأسلوب ، وذلك وفقاً لطراز واحد من التأليف . فكان طراز الملحمة عند بوالو هو صنيع فيرجيل ، كما كان طراز الدرامة عند فولتير « ولاهارب ، ومن جاء بعده من أمثال-جيوفروا

-انه يعد كبار الادباء الكلاسيكين وكان تأثيره عظيما على اللغة والشعر الفرنسيين. وقد اشار مؤلفنا الى الكتاب الذى الفه وهو يحتوى على نظرات فاحصة وادراك قوى. ولد سنه ١٥٥٥ م ومات سنة ١٦٢٨م. المترجم

١ - فيليب دى بورت PHILIPPE DESPORTES ،شاعر فرنسى , كان يحظى برعاية الملك شارل التاسع والملك هنرى الثالث وله اكثر من ديوان فى الشعر ولد سنة ١٥٤٦ ومات سنة ١٦٠٦ م المترجم

٢ - Abbé d'Aubignac ; ناقد فرنسى مبرز فى هذا الميدان ؛ وهو صاحب النظرية المشهورة فى النقد ؛ وهى الوحدة فى الزمن ، والوحده فى البيئه ؛ والوحده فى العمل وقد شرح هذه النظرية شرحا وافيا فى كتابه الذى أشار إليه مؤلفنا . وفوق ذلك فهو أول ناقد فرنسى يلقى ظلا من الشك على وجود الشاعر الاغريقى - هوميروس - ولد سنة ١٦٠٤م ومات سنة ١٦٧٦ م. المترجم

٣ - بوالو تقدم الكلام عليه فى صفحة ١٠٩ من هذا المجلد

٤ - لاهارب LA HARPE , تقدم الكلام عليه فى ص ٩٧ من هذا المجلد

- Geoffroy -(١) وأمثال - دوسّو(٢) Dussault - ، نقول كان طراز الدرامة عند هؤلاء هو صنيع راسين. وبفضل تأثير - مادام دى ستايل(٣) - Madame de Staël لهذا العصر بواسطة كتابها - Da la Litterature - وتأثير شاتو بريان بواسطة كتابه — Génie du Christianisme، وعلى الخصوص بفضل تطور العلوم التاريخية استطاع النقد أن يسمو بوجهة نظره ، ثم يوسع ميدان عمله . وبعد ذلك أصبح دائرة ضمن دوائر التاريخ العام ، وذلك بفضل جهود — Villemain - و- Sainte-Beuve و- Taine و J.Lemaître (٤) وde Vogüé (٥) وFaguet (٦) و- Brunetiéré

ومما لا شك فيه أن الذوق يظل الصفة الرئيسية بالنسبة لمن يتكلم فى الأدب أو لمن يكتب فيه . فواجب المرء قبل كل شيء أن يكون ذا إحساس بالنسبة لجمال التأليف والأسلوب وأن يعمل على أبراز ذلك الجمال . وهذا يعتبر شرطاً أساسياً لا شرطاً مكملا . واجبه أيضاً أن يكون من ذوى البحث والعلم ، ومن الملمين بالناحية الأخلاقية والنفسية ، ويرى — سانت بوف — أيضا أن يكون فوق هذا ملما بالناحية الفسيولوجية بحيث يستطيع أن يتعمق فى بحثه إلى مزاج الكاتب وزوايا نفسه الداخلة ، وأصالة ملكاته ومواهبه .ومن أجل ذلك لم نعد نرى فى الانتاج الشعرى والنثرى آثاراً أدبية منفصلة تنبت يوماً ما فى أرض الوطن وتحت تأثير واحد ، هو تأثير الملكة والعبقرية . بل إن الأدب أصبح من ذلك الوقت فصاعدا ، كأنه

---

١ – چيوفرا GEOFFROY ، ناقد فرنسى . لم يعرف شيء من أثاره. ولد سنة ١٧٤٣ م. ومات سنة ١٨١٤ م المترجم

٢ - دوسو DUSSAULT ، ناقدفرنسى اخـر ؛ كان من أهم من ساهم فى الجريدة النقدية التى كانت تظهر فى ايامه. ولد سنة ١٧٦٩م ومات سنة ١٨٢٤م المترجم.

٣ - مادام دى ستايل MADAME DESTAEL ، كاتبة فرنسية مشهوره ، لها فوق الكتاب الذى ذكرهو لفنا DELPHINE و de L'Allemagne – وكانت من الد اعداء نابليون بونابارت ؛ ولذا فقد كان يتجنبها ويحاول الفض من أمرها. ولدت سنه ١٧٦٦م وماتت سنة ١٨١٧م . المترجم

(٤) جول لوميتر Jules Lemaitre ، ناقد ادبى من اشهر الكتاب المسـحيين فى فرنسا له اكثر من مسرحية وله كذلك Impressions du theâtre و Contemporains ولد سنة ١٨٥٣ ومات سنة ١٩١٤ المترجم

(٥) دى فوئجى De Vogüé ، أديب فرنسى لم يترك اثارا هامة ولد سنة ١٨٤٨ ومات سنة ١٩١٠م المترجم

(٦) فاجيه Faguet أستاذ وناقد فرنسى عرف بعمق التفكير ودقة الملاحظة ولد سنه ١٨٤٧ ومات سنة ١٩١٦م المترجم

تعبير المجتمع فارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحضارة التى يتحدث الأدب بوحى منها ، ثم يؤثر بدوره فيها (١) . لقد عجز الناس عن شرح المواهب أو العبقرية لأن ذلك لا يشرح ولكنهم بحثوا عن الظروف التى تعمل على خلق العبقرية ، فى الوسط وفى الجنس وفى التربية ، وفى المعتقدات ، وفى المزاج . وبهذه الطريقة أدركنا أن راسين لو وجد قبل عصره بمئتى سنة لما كان فى استطاعته أن يؤلف مسرحياته الرائعة . ولو أنه وجد فى عصر بعد عصره بمئتى سنة لألف مسرحيـــات أخرى وفى أوضاع وبأوصاف أخرى . ليس من شك فى أن الصيغة الأدبية التى تشرح الافكار والمعانى لا بد وأن تتجاوب مع الحضارات المختلفة فتتغير بتغيرها . ونتيجة ذلك أنه من العبث أن نزعم بأننا نستطيع أن نردها جميعا الى طراز واحد . ولهذا استطاع سانت بوف . أن يعرف النقد بأنه « التاريخ الطبيعى » للعقول والأفكار فالمؤلف الطبيعى يهتم بكل مظاهر الحياة لا فرق بين نبات الزوفاء وشجر الأرز ، كما أنه لا فرق أيضا بين الخنفساء والليث ؛ وهو لا يكتفى بدراسة المظهر الخارجى

---

(١) لاحظنا فى كتابنا - نظرية التأليف الأدبى - ص٢ ، كيف يكون الادب تعبير المجتمع , ومنذ زمن قليل تحدث الاستاذ الفريد كروازيه بالتفصيل عن هذه المسألة الهامة فقال : (إن أعظم الكتاب فى الأمه هم أولئك الذين يصورون عبقرية الشعب تصويرا مجسما وضاء فى مختلف الآثار التى تنبىء عن تطوره . . أن أكثر الفنانين أصـــالة هو ذلك الذى تربطه بأمته كل شعرة من شعرات جسمه . فاريض تلك الامه هى التى غذت اللغه التى يتحدث بها ، والتعبيرات الأدبية التى يشرح بها أفكاره بل أن نفس أفكاره ونفس احساساته انما هى مدينة فى وجودها الى تلك البيئة التى تعيش فيها تلك الامة . وحتى الكاتب الثائر ضد عصره تراه يعتمد على هذا العصر نفسه لكى يثور علية :.. ولو أننا حاولنا أن ننتزع إنسانا من هذا الاطار الجماعى الواسع « الذى يعيش فيه » فاننا لن نستطيع تصوره ولا فهمه . ولكن لكى نفهمه يجب أن نعود به دون انقطاع الى تلك البيئة التى نشأ فيها ؛ ثم نواجهه دون انقطاع ؛ أيضاً بنفس البيئة).

Manuel d'Histoire de la Littérature grecque, 1901, préface, pp. 1 et 11.

فقط ؛ بل يدرس أيضا الجهاز النباتى والحيوانى ، ثم يختبر أخيرا ما ذا يصير عليه أمر هذه الكائنات تحت الاجواء المختلفة ؛ إذ أن بعضها يتطور وينمو والبعض الآخر يضعف فيموت . وبمثل هذا يهتم الناقد ؛ فهو لايهمل أى صنف من الأنواع الأدبية ؛ يصف تأليفها فى مراحلها الأولى ثم يحلل الأسباب التى هيأت نشأتها أو الأسباب التى عملت على اختفائها .

الفصل الخامس

الرسائل أو المكاتبات [1]

ربما يدهش القارىء لو أننا التزمنا الصمت فلم نتحدث بشيء عن هذا الموضوع الأدبي الآخر ، الرسائل . لقد كونت الرسائل فى فرنسا ثروة أدبية كبيرة . سنتحدث إذن بعض الشيء عن الرسائل ؛ ولكن لنلاحظ أولا أننا لا نستطيع أن نعتبر هذه الرسائل نوعا أدبيا مستقلا بالمعنى الصحيح ؛ وذلك للأسباب الآتية :

أولا : إن حقيقة الخطاب أو الرسالة ليست شيئا آخر سوى حديث مكتوب أو مسجل ؛ وبهذا الوضع لا نجد له مكانا بين الانواع الأدبية ؛ كما أننا لا نجد بينها مكانا أيضا للحوار أو المحادثة .

ثانيا : من المسلم به أن الأنواع الأدبية تتجه للجمهور ؛ اما الخطاب فإنه يتجه الى فرد خاص بعينه . فهو بطبيعته مستودع سر ، فليس من شأنه إذن أن يعرف أو يذاع .

«١» — سيرى القارئ فى هذا الفصل أن المؤلف يحاول التقليل من أهمية هذا النوع الأدبي كما سيرى أنه يستكثر أعتباره نوعاً أدبياً مستقلا . وللمؤلف عذره فى هذا ؛ إذ أنه لم يطلع على غير الآداب الغربية قديمها وحديثها ؛ ولو أنه كان ملما بالأدب العربي مثلا وبتطوره وببعض آثاره لوجد نفسه مضطراً إلى تغيير وجهة نظره . ولعل من أهم المسائل الجوهرية التى تميز الأدب العربي عن الآداب الأخرى هى مسألة المراسلات . فالآداب الغربية ، التى درسها المؤلف ألم بموضوعاتها وأنواعها قد نشأت ونمت ونضجت قبل أن يوجد فيها ما يصح أن نسميه بالمراسلات الأدبية . ولم تكن الرسائل الأدبية فى هذه الآداب إلا مظهراً أخيراً من مظاهر الأسلوب الأدبي ، كما حدث فى رسائل سيسيرون بالنسبة للأدب اللاتينى ، فى رسائل مدام دى سيفينييه ورسائل ڤولتير بالنسبة للأدب الفرنسى .

أما الأدب العربي فأمره غير ذلك تماماً ، إذ أن من أوائل ما نعرفه فيه بعد الشعر إنما هو نوع الرسائل . ولو أننا جمعنا ما جاء فى كتب السير والأخبار من رسائل متبادلة بين الخلفاء والولاء أو بين الأفراد وهؤلاء وأولئك لوجدنا مجموعة ضخمة من الرسائل الأدبية لا

تكاد توجد فى أى أدب من الآداب الأخرى ، ولأدركنا فى نفس الوقت مبلغ الحاجة الماسة إلى توجيه العناية ودرس هذه الثروة الأدبية درساً يتلاءم مع مكانتها بالنسبة للكم وبالنسبة للكيف فى وقت واحد .

نشأ هذا النوع الأدبى فى صدر الإسلام وكان أبطاله عديدين ؛ غير أنه لم يكن من بين هؤلاء الأبطال من تخصص فى فن الرسائل وكتابتها كما كان الشأن فى الآداب الأخرى . وسار هذا النوع فى طريق التقدم بخطوات سريعة ؛ إذ أن الحاجة اليه كانت تزداد كلما أتسعت الفتوح الإسلامية وتعددت الدواوين والإدارات فيها . ومن أجل ذلك رأينا لدى الخلفاء وظيفة خاصة للقيام بمهمة كتابة الرسائل ؛ وكان صاحبها يسمى كاتب السر وهو يد الخليفة ومستودع سره ؛ ومن أجل ذلك أيضاً رأينا بعض هؤلاء الكتاب يتخصصون فى هذا النوع الأدبى ويعرفون به ويكثرون من الإنتاج فيه . وما نظن أحداً منا يجهل أن الدولة الأموية قد نبغت فيها طائفة كبيرة من كتاب الرسائل وأن آخر هذه الطائفة وأبلغ واحد فيها كان عبد الحميد الكاتب

ومن هنا يظهر بوضوح الفرق بين الأدب العربى وغيره من الآداب الغربية التى درسها مؤلفنا فى هذا الفصل ، ثم بنى نظرياته فى الرسائل على هذه الدراسة .

هذا وهناك جانب آخر من جوانب هذا النوع الأدبى جدير بالنظر والدرس ؛ ذلك هو أسلوب الرسائل فى الأدب العربى . فقد تنوع هذا الأسلوب بشكل ملحوظ ؛ فهناك الأسلوب المرسل البسيط ، وهناك الأسلوب المنمق الجميل ، وهناك الأسلوب الدقيق المركز وهناك الأسلوب الجزل المطول ؛ كما أن هناك الأسلوب المسجع .

هذه الثروة فى الأسلوب تحتاج إلى دراسة عميقة واعية ، كما أن الثروة فى عدد الرسائل أيضاً تحتاج إلى دراسة جديدة شاملة .

وقبل أن نختم ملاحظتنا على هذا النوع الأدبى وعلى موقف مؤلفنا منه يجب أن نذكر جانباً من نص رسالة أدبية كتبها أبراهيم بن سيابه إلى يحيى بن خالد بن برمك ليرى القارئ من خلالها مبلغ العناية والأهتمام بالأسلوب والتشديد فى مراعاة التسجيع ؛ وبعد ذلك نترك له مهمة تقدير المعنى الأدبى الذى كان موضع اهتمام صاحبها . وقد وردت هذه الرسالة فى الجزء الثانى من البيان والتبيين للجاحظ ص ١١٤ :-

«للأصيد الجواد الوارى الزناد الماجد الأجداد الوزير الفاضل الأشم الباذل اللباب الحلاحل من المستكين المستجير اليائس الضرير فإنى أحمد الله ذا العزة القدير إليك وإلى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة أما بعد فاغنم واسلم واعلم إن كنت تعلم أن من يرحم يرحم ومن يحرم يحرم ومن يحسن يغنم ومن يصنع المعروف لا يعدم وقد سبق إلى تغضبك على وأطراحك لى وغفلتك عنى بما لا أقوم له ولا أقعد ولا أنتبه ولا أرقد فلست بحى صحيح ولا بميت مستريح فررت بعد الله منك إليك وتحملت بك عليك ... الخ» .

«المترجم»

ثالثا : يجب ألا يكون من أهداف كتابة الخطاب الالتجاء الى الناحية الفنية بل هو تسجيل لما تمليه الحوادث ، وتعبير عن الحاجة الوقتيـة . ولو لم يكن ذلك شأنه لما أمكن أن يكون خطابا بالمعنى الصحيح لما يكون فيه من انحراف وتزييف ؛ إذ أنه فى هذا الوضع لا يصبح حديثا بين عقلين متصافيين أو مناجاة بين قلبين متآلفين ، بل يصبح تمرينا على الاسلوب الأدبى وصفحة من الصفحات الاكاديمية ومن أجل ذلك لم يوجد كاتب متخصص فى كتابة الخطابات أو أديب مهمته إنتاج هذه الرسائل أو الخطابات كما يوجد الشاعر المسرحى أو المؤرخ مثلا .

ومع ذلك فقد حدث عن طريق الصدفه أن الخطاب فى حالتين اثنتين ظهرت فيه آثار الفن فأمكنه أن يصبح فى تقدير الناس نوعا أدبيا .

أما الحالة الاولى فتبدو عند بعض الأدباء المفكرين ، أمثال مادام دىسيفينييه

وفولتير ، الذين يملكون زمام القلم وطواعية التعبير ؛ كما أنهم يملكون الموهبة التى تتيح لهم أن يجدوا فى نفس اللحظة الكلمة الدقيقة الحاسمة ، والعبارة الكاشفة ؛ والجمله السلسة البراقه ، حتى ليخيل الينا أن الفكرة عندهم قد أخذت من نفسها كل ألوان الزينة ومظاهر الجمال التى تصدر عن تلك المواهب الطبعية ؛ ثم يضاف اليها بعد ذلك جمال آخر هو السلاسة والبعد عن التعقيد وعدم التكلف ـ وكل خطاب يكتب بهذه الطريقة يتحقق فيـــه ما قاله رينييه ـ (١) Regnier إن أجمل ما يتجلى به الخطاب هو ما يبدوعليه من سهولة وسلاسة وبعد عن التزمت والتكلف . وحينئذ يصبح الخطاب شبيها بالدرة فى عقد الأنواع الادبية فنستمتع بقراءته ونشعر بلذة لا تقل عن لذتنا بجمال الطبيعة الخالصة كما ذكرت ذلك ـ مادام دى سفينيه عند حديثها عن أسلوب الرسالة أو الخطاب .

---

(١) رينيه Regnier شاعر وروائى فرنسى وهويعتبر احد رؤساء المدرسه الادبية الرمزية وله عدد كبير من المؤلفات ومن اجـل ذلك عين فى الاكاديميه الفرنسيه . ولد سنه ١٨٦٤ م ومات سنه ١٩٣٦ م المترجم

إن كتاب الرسائل ، الذين وهبوا هذه الصفات ، يستطيعون ان يخلقوا من هذا الميدان فنا دون قصد الى هذا الفن ولا معرفة به أو على الأقل دون أن تبدو عليهم سيما القصد اليه أو التعرف به . ولنا أن نتساءل أليس من بين هؤلاء الكتاب من فكر ولو قليلا فى شأن الجمهور حين يكتب خطاباته ؟ وهل كانوا جميعا يجهلون ما لديهم من مواهب فى كتابة الرسائل ؟ أم أنهم جميعا قد تجردوا عن الرغبة فى أن يطلع الجمهور على ما سجلوه من خطابات ؟ إننا لا نشك فى أن بعض الخطابات يشتم منها أن من كتبوها قد فكروا فى ذلك ؛ وعلى رأسهم - مادام دى سيفينيه التى أبانت ذلك على وجه الخصوص فى خطابيها الآتيين : أحدهما خطابها بعنوان du Cheval والآخر بعنوان La prairie ؛ وقد طاف هذان الخطابان أثناء حياة الكاتبة جميع الصالونات الادبيه . ولعل هذه السيدة قد أحست بما حدث لهذين الخطابين من ذيوع وانتشار ثم توقعت نفس النتيجة لغيرهما من الخطابات فاضطربت الى ادخال شيء من الصنعة والزينة على ما أخذت تكتبه من خطابات أخرى .

ومهما يكن من شيء فإنه لو صح أن كلا من فولتير و - مادام دى سيفينيه قد ترك « لقلمه الحبل على الغارب يهرول كما يريد » فقد استطاع كل منهما أيضا أن يكسر شوكة ذلك القلم بطول الممارسة ؛ وحتى بعد المران كان كل منهما يلحظ ذلك القلم أثناء سيره بزاوية من عينه لكى يمنعه من الانحراف . ولما كان الخطاب بمثابة حديث يجد صاحبه من الوقت ما يسمح له بالتفكير فى هدوء وبتصحيح أفكاره على مهل فإن ذلك كان سببا قويا لأن يهدف هؤلاء المتحدثون اللبقون إلى أن يسعدوا بنشر زهور أفكارهم وجمال أحاديثهم فى المجتمعات والندوات . ولقد لاحظ السيد - جاستون بواسيه (١) Gaston Boissier عندما تحدث عن مادام

(١) جاستون بواسيه Gaston Boissier ، ادب فرنسى تولى سكرتيرية الاكاديميه الفرنسية بصفة مستمره وكانت تربطه بالاداب القديمة وخصوصا اللاتينية صلات قوية ومن اجل ذلك فقد ترك دراسات متنوعه عن الادب اللاتينى والاخلاق والعادات الرومانيه ولد سنه ١٨٢٣ ومات سنة ١٩٠٨ .
المترجم

دى سيفينيه - أنها « فى خطاباتها الخاصة جدا ، حيث يكاد ينعدم تفكيرها فى الجمهور تهيء لنا أن نستنتج من بعض فقرات من هذه الخطابات أنها تشعر بالسعادة حينما تعاود الفكرة من جديد فتهذبها وتجملها وتضيف اليها بعض التفاصيل الدقيقة الممعنة فى الذكاء » إنه من المسلم به أن جمال الأسلوب فى الكتابة ، أو بمعنى آخر إن شرح الفكرة شرحا واضحا فى عبارة أصيلة محددة المعالم يعتبر متعة فى حد ذاته يجد الكاتب المثقف فيها لذة دون أن يقيم فى اعتباره أى حساب للآخرين .

وأما بالنسبة للحالة الثانية فمن الواجب مبدئيا أن نتغاضى عن أولئك الكتاب الذين اتخذوا تأليف الخطابات كمهنة من المهن ؛ فكانوا ينشئون ما يطلب اليهم من خطابات رغبة فى استحسان المعجبين بهم . هذه الخطابات المكتوبة بهذه الطريقة والتى يمكننا أن نسميها « فقرات خطابية » ليست فى حقيقة الأمر سوى تقليد ردىء . ولنعد الآن الى طريقة أخرى من التقليد للخطاب الحقيقى ؛ ولكنها طريقة قد بلغت من الدقة والمهارة درجة جعلتنا نعتبرها بصراحة نوعا من الأنواع الأدبية .

هناك بعض الشعراء وبعض الكتاب من يستعمل فى تأليفه صورة خطاب كأنه استعارة من صديق ؛ وهدفه من ذلك هو أن يعرض أفكاره ويتجه بها الى الجمهور تحت اسم صديق مستعار أو تحت اسم شخصية من الشخصيات الكبيرة . وكانت هذه طريقة — هوارس — وبوالو فى رسائلهما المنظومة Epîtres كما كانت طريقة — باسكال — فى خطاباته التى جمعت تحت عنوان Provinciales وكذلك كان شأن — روسو — فى كتابه —Nouvelle Héloïse؛ إذ أنه افترض وجود رسائل متبادلة بين بطلى هذه الرواية حيث يفضى كل منهما بأسرار قلبه للآخر ؛ وفى ذلك وسيلة لفتح قلبهما معا الى القارىء . وبهذه الطريقة لا تبدو آثار الفن والصنعه تحت مظهر الصراحه وعدم الكلفة فى الأسلوب لكى يجعلنا نحس بأفكارهم أو بعواطفهم التى أبانوا عنها بصورة طبيعية وبدون قصد . اننا حين نقرأ

رسالة لهوراس أو لباسكال من الرسائل التى تقدمت الاشارة إليها يخيل الينا بصورة واضحة أن أمام أعيننا خطابا قد كتب حقيقه وأن كتابته كانت طبيعية دون اعداد أو تكلف .

تطور النوع الادبى الخاص بالمراسلات

تتوقف كمية الرسائل وكيفيتها على مقدار تطور العقل فى المجتمع . ففى العصور التى يرتبط الناس فيها بروابط الصداقه والفكر يوجد الاحساس بالحاجة الى تبادل الأفكار والى الافضاء بما فى القلب من عواطف واحساسات ؛ وهنا يزداد عدد الرسائل كما تكتسب الرسائل نفسها فوائد متعددة ، إذ أنها تحل محل المحادثة الحقة بين الأشخاص الذين فرقت بينهم المسافات ، ثم إنه بسبب صعوبة المواصلات فى عصر ازدهار الحضارة الرومانية وبصفة خاصة أيام سيسيرون قد أصبحت الرسائل عديدة متنوعة لما منيت به تلك الحضارة من قلاقل واضطراب ، ولما وصلت اليه من نمو واتساع ، ولما وجد فيها من رغبة فى التعرف على كثير من الأمور المتصلة بالفكر ؛ فكان للقناصل الذين أبعدهم عن وطنهم العمل فى المقاطعات الجديدة ، والمواطنون الذين شردتهم الحرب الأهلية بالنفى أو ألزمهم السفر الى اثينا بالابتعاد عن رومه يكتبون الرسائل الى أقربائهم وأصدقائهم الذين خلفوهم وراءهم فى العاصمة ، كما كان هؤلاء الاقارب والاصدقاء يردون على تلك الرسائل بمثلها فيحدثونهم عما يجرى فى العاصمة حديثا يصور لهم الواقع تصويرا ماديا صادقا . ومن أجل ذلك ظهرت هذه المجموعة الضخمة من رسائل سيسيرون . وخلال القرن السابع عشر والثامن عشر فى فرنسا وصلت الحياة الاجتماعية الى الذروة من الشهرة والمجد ، وأصبح المثقفون إذذاك ، وهم الذين نسميهم الآن الطبقة الممتازة ، يقضون أجمل أوقاتهم فى الصالونات الأدبية ، وذلك كما كان يحدث فى صالون - رامبوييه - Hôtel de Rambouillet (١) و - Mademoiselle de Scudery - و -

(١) Hôtel de Rambouillet - اسم القصر فى باريس بنى وأسس بأمر من المركيزة

Madame de Sablé (٢) وكما حدث Mademoiselle de Momtpensier (١) و

ذلك في القرن التالى لدى Madame de Lembert (٣) و Madame Geoffrin (٤)

و Madame du Deffand (٥) و Mademoiselle du Lespinasse (٦)

هناك كانوا يتحدثون ويروون ويتناقشون في الاحداث المعاصرة وفي الموضوعات الكثيرة التنوع . وهناك كانت الافكار تزداد رقة وتثقيفا ، والقلوب تزداد ألفة

= دى رامبويه التى عاشت من سنة ١٥٨٨ م الى سنة ١٦٦٥م ، وقد كان يجتمع فى هذا القصر من حين الى حين نخبة من رجال الادب اتخذت منه صالونا ادبيا وقد كان لهذا الصالون ولمن يجتمعون فيه تأثير كبير على اللغه والأدب الفرنسيين وخصوصا فيما بين سنه ١٦٢٠ وسنه ١٦٦٥م المترجم

(١) مادمازيل دى بانسيه Mademoiselle de Montpensier ، كانت تعرف باسم الانسه العظيمه ولدت في باريس وساهمت مساهمة فعالة فى الحروب التى حرت فى فرنسا اثناء حياتها ، ووصلت بها الجرأة ان تطلق بنفسها المدافع من مبنى الباستى ضد الفرق الملكية ، وذلك لتحمى انسحاب القائد كونديه وفى الثانية والاربعين من عمرها تزوجت خفية ، وكان زوجها – لوزا – Lauzun ، ولدت سنة ١٦٢٧م وماتت سنه ١٦٩٣ . المترجم

(٢) مادام دى سابليه Madame de Sablé واحدة من السيدات المثقفات المتحذلقات فى فرنسا ، وكان لها صالون ادبى لا يقل فى شئ عن صالون رامبوييه؛ ومن صالون مادام دى سابليه ظهر فى الوجود كتاب لاروشفوكو المعروف باسم Maximes ولدت سنة ١٥٩٩ وماتت سنه ١٦٧٨ المترجم

(٣) مادام دى لامبير Madame de Lambert هى احدى المركيزات فى فرنسا ، شغلت بالادب والفت كتابا فى التربية ، وكان لها صالون أدبى لايقل فى شهرته عن الصالونات الادبية الاخرى. ولدت سنه ١٦٤٧م وماتت سنه ١٧٣٣م، ألمترجم

(٤) مادام جيوفرا Madame GeoFFrin ، سيدة اديبة مشهوره . كان لها صالون ادبى يجتمع فيه الفلاسفة واهتم ما تمتاز به الحيوية الفكرية ولدت سنة ١٦٩٩ وماتت سنه ١٧٧٧م المترجم

(٥) مادام دى ديفان Madame du Deffand احدى المركيزات فى فرنسا ، و هى من اذكى السيدات فى القرن الثامن عشر ومجموعه الرسائل التى عرفت لها تبرهن على جودة اسلوبها وصفاء تفكيرها ، ولدت سنه ١٦٩٧م وماتت سنة ١٧٨٠ م المترجم

(٦) مادمازيل دى ليسبيناس Mademoiselle de Lespinasse ، سيدة مشهوره بجودة تفكيرها وعظم رسائلها . كان لها صالون أدبى كسائر الصالونات الاخرى فى باريس وكان يقصد هذا الصالون الفلاسفة ولكن بصفة خاصه الفلاسفة الذين كانوا يعملون فى دائرة المعارف . ولدت سنة ١٧٣٢ وماتت سنة ١٧٧٦م . المترجم

وتعاطفا . لم يكن الخطاب فى أغلب الاحيان سوى حديث توقف الوصف لاحداث مختلفة أثيرت وعرفت فى أحد هذه الاجتماعات . وستكون مهمة هذا الخطاب أن يحمل آخر الانباء الى صديق عزيز قد بعدت به الشقة . وليس من شك فى أن مثل هذه الاخبار كانت تنتظر بفروغ صبر . وكانت الصحف اذ ذاك تجىء متأخرة وتحمل أخبارا جافة موجزة وغالبا ماتكون هذه الاخبار قد مضى عليها بعض الوقت . لم تكن هناك صحف تنشر منذ الصباح الباكر فى كثير من التفصيل أحداث الامس فتنقلها الى الاركان الاربعة من فرنسا . ومن أجل ذلك كان الكثير من الطرف والقصص الجميلة تذهب فى فترات منتظمة الى Madame de Grignan المنزوية فى ركنها من البروفانس لكى تسترعى اهتمامها وتسرى عنها . كان كثير من السيدات ذوات الفطنة والذكاء إذن يقمن بواجب مراسلى الصحف فى العصر الحديث . ولقد رأينا منذ قليل عند الكلام عن الصالونات الأدبية أسماء بعض السيدات اللاتى يأخذن الصدارة فى هذه المنتديات ثم يتملكن زمام الحديث وقد كن فى هذه الندوات يفصحن عما انطوين عليه من صفات خاصة . وذلك كالحيوية والسرعة فى الانطباعات ، وكالرقة فى الاحساسات وكالدهاء اللاذع فى ثوب الابتسامة الماكرة ، وكالخفة فى الحركة جريا وراء الأفكار بحيث يلمسنها لمسا لطيفا ثم لا يأخذن منها إلا ما كان فى متناول الجميع ، وكالموهبة الفنية الخاصة بتقدير التفصيلات الدقيقة مهما تناهت فى الدقة ؛ ولقد كن فوق ذلك يعرفن ، كما هو الشأن فى حياتهن العادية ، كيف يصنعن من الزهرة الواحدة أو من أبسط الأشياء زينة وزخرفا . وكانت هذه الصفات كلها توجد فى أحاديثهن أو خطاباتهن المكتوبة . ولقد أجاد — لا برويير — حين لاحظ ذلك بالنسبة لهن ثم أبان إلى أى حد قد برزن فى هذا الميدان . وإليك نص قوله : « لقد قطع هذا الجنس فى هذا النوع من الكتابة شوطا أكثر مما قطعه جنسنا معشر الرجال . فلقد كن يجدن طوع أقلامهن من التراكيب والتعابير ما يستعصى علينا أو مالا نستطيع

ايجاده الا بعد الكد الطويل والبحث المضنى ؛ ولديهن توفيق عجيب فى اختيار الكلمات وفى وضعها الموضع الحسن ، وبالرغم من أن هذه الكلمات يعرفها الجميع إلا أن الجديد فيها هو جمال الموضع حتى ليخيل الينا أنها لم تخلق إلا لاستعمالها فيما وضعت فيه . ولا يستطيع أحد غيرهن أن يشرح فى كلمة واحدة إحساسا كاملا ولا أن يعبر عن الفكرة اللطيفة بالتعبير اللطيف ؛ ثم إنهن يمتزن بتسلسل الأفكار فى أحاديثهن تسلسلا طبيعيا لا يجارين فيه ، وليس هناك من روابط بين أجزائه إلا المعنى (١) ، ومن الحق أن تقرر أنه حينما نفكر فى سيسيرون وفى فولتير وفى J. de Maistre (٢) نستطيع أن نضيف هذه العبارة . إننى بالنسبة لهذا الموضوع أعلم أن عددا كبيرا من السيدات يمكن عدهن فى صف الرجال .

الخطابات فى العصر الحاضر

تشيع اليوم هذه الفكرة القائلة بأن النوع الأدبى الخاص بالرسائل قد أخذ فى التدهور منذ أكثر من نصف قرن .

لقد أصبحت الحياة الاجتماعية أقل قسوة وأقل نشاطا من ذى قبل (٣) . فقد حلت حياة الأعمال والاضطراب محل حياة الهدوء والاشراق التى كان يحياها أسلافنا، وولى السرور الخالص الذى كنا نعهده قديما فى فرنسا . وأصبح الناس يعيشون أكبر

---

(١) Les Caractéres, ch. 1er : des ouvrages de l'esprit.

(٢) جوزيف دى مستر J.de Maistre ، فيلسوف فرنسي يفكر فى الدنيا وفى الدين على حد سواء اى انه كان رجل دين ورجل دنيا فى وقت واحد . الف كثيرا من الكتب اهمها : Du pape – و Soirées De Saint Petersbourg وكان من مبادئه البارزة المعروفة انه كان يدافع دفاعا قويا عن سلطة الدين وسلطه الدولة أو بمعنى آخر عن السلطة الدينية والسلطة الدنيوية فى آن واحد . ولد سنة ١٧٥٣ ومات سنة ١٨٢١م . المترجم

(٣) يلاحظ ان المؤلف يتحدث عن الحياه الاجتماعية فى عصره ؛ وقد الف هذا الكتاب فى سنة ١٩٠٨ م (المترجم)

ما يعيشون فى عزلة ومن أجل أنفسهم . أما الصالونات الأدبية أو المنتديات فقد حلت فيها الموسيقى ، (وهى ليست من علامات التقدم) ، والرقص (وهو تراجع الى الوراء) ، والثرثرة التى لا ضابط لها ولا موضوع ، (وهى إحدى المصائب) نقول لقد حل ذلك كله محل الحديث الرزين وبمعنى آخر محل فن معالجة الموضوعات الرزينة بيسر وسهولة .

ومن المتفق عليه أن عدد موضوعات الحديث ، وتبعا لذلك ، عدد الخطابات قد قل بدرجة متناهية . وأصبح فى ميسور كل انسان أن يعرف بسرعة ما يجرى من أحداث بواسطة الصحف . وهنا يصدق هذا القول : إن مضى القليل من الايام على وفاة المرء كان كفيلا بأن يسبغ على هذه الوفاة صفة القدم .

ومنذ نشأت السكك الحديدية أصبحت الخطابات والرسائل تسافر مرات عديدة فى اليوم الى الجهات المختلفة فى فرنسا ؛ كما أصبح الناس يكتفون بالرسائل المبسطة الموجزة مع ما فى ذلك من تحمل عناء الكتابة من جديد فى الغد أو بعد الغد لم تعد هناك حاجة لإعداد رزمة الأخبار بعناية وقبل موعد سفر البريد بكثير، وذلك كما كان فى الماضى حينما كان يفصل بين سفر البريدين أسبوع كامل (١)

ولقد ساهم أخيرا اكتشاف التلغراف مساهمة كبرى فى هذا التدهور الذى نتحدث عنه الآن ؛ ثم يجىء انتشار استعمال التليفون فيزيد فى سرعة هذا التدهور زيادة كبرى . فكثير من الناس ، لكى يتجنبوا عناء طى الخطاب ، وهو أمر محبوب يكتفون بارسال التلغراف فى لغة هى غاية فى التركيز وفى الجفاف .

ومع ذلك فإننا حين نأسف لتدهور هذا النوع الأدبى فى عصرنا هذا يجب ألا نبالغ فى ذلك الأمر ؛ فمن غير المشكوك فيه أن سهولة المواصلات سببت كثرة الخطابات ؛ ونتيجة ذلك أن أصبحت هذه الخطابات قصيرة ولا أهمية لها . غير أننا

---

(٢) تحت حكم لويس التاسع عشر كان البريد ينقل من باريس الى غيرها من المدن الكبرى فى المملكه مرة فى اول الاسبوع ومره فى اخره (المؤلف)

نتساءل ألا يمكن ان نعثر فى هذا العدد الضخم من الخطابات ما يستحق العناية ، ويكون جديرا حقا بمكانة أدبية مرموقة ؟ ربما نكون على حق حينما نقول إننا نكتب الآن خطابات أكثر مما كان يكتب فى الماضى ، بل وربما كانت كتابتنا لا تقل فى بعض الأحيان جودة عن كتابة القدماء - يستثنى من ذلك دى سيفينيه وفولتير — ولكننا لا نكتب فى نفس الموضوعات التى كان يكتب فيها القدماء وهنا أيضا نجد تطورا فى مادة الكتابة بالنسبة للخطاب ؛ فلقد أصبحت الصحف فى عصرنا هذا تنشر فى الغد وبتفصيل دقيق كل ما يتصل بظروف وفاة شخصية من الشخصيات ؛ وإذن فليس هناك من داع لان يكون هذا موضوع خطاب طويل؛ وذلك كما حدث مع - مادام دى سيفينيه -حينما أعلنت خبر وفاة de Turenne (١) ثم قصت ظروف هذه الوفاة الى Madame de Grignan - لم تعد الآن الأحداث السياسية والعسكرية ، كما لم يعد كثير من الأحداث الأخرى موضوعا لقصة تسجل فى خطاب . ولكن موضوع الخطاب انحصر فى الاحداث المتصلة بالحياة الخاصة لرجالات السياسة أو الحرب أو العلماء أو الكتاب أو القديسين حيث يفضون بذلك الى أصدقائهم عن طريق البريد ، كما يفضون بما يتصل بتاريخ أفكارهم وعواطفهم وبأحكامهم على الناس وعلى الاحداث المعاصرة ؛ وتلك هى موضوعات الخطابات العديدة التى يتبادلها الناس الآن . وحينما يتاح لهذه الخطابات أن تنشر فسيكون لها من المكانة والتقدير فى أنفسنا ما كان لقصة موت de Vatel (٢)

(١) دى تورين De Turenne ، رجل من رجالات الحرب فى فرنسا ترقى فى المناصب العسكريه حتى وصل الى رتبة المارشال وقد شارك فى كثير من الحروب كما احرز كثيرا من الانتصارات ويهمنا أن نعلم أنه كان كاتبا الى جانب كونه محاربا وقد ترك وراءه كتابا تحت عنوان Mémoires ولد سنة ١٦١١م ومات سنة ١٦٧٥م المترجم

(٢) دوفيتيل DeVâtel ؛ وهو ليس الا رئيسا للخدم لدى - Grand Condé - ، وفى أحد الايام دعا كونديه لويس الناسع عشر ليتناول الطعام فى قصره ؛ وكان من اصناف المأكولات نوع من السمك ؛ فكلف رئيس الخدم باحضار هذا السمك ولما جاء الموعد وتأخر السمك عن الحضور أحس رئيس الخدم بانه إهمل فى واجبه فطعن نفسه بالرمح وبينما هو يعانى الموت فى اللحظة الاخيرة وصل السمك الى القصر ومن أجل ذلك فقد استحق أن يكون موضوع الرسالة من رسائل مادام دى سيفينيه وقد حدث ذلك فى سنة ١٦٧١م المترجم

أو لقصة الحريق عند Guitaut هذا هو نوع الجاذبية التى تحس بها فى هذه الخطابات ؛ أما المتعة الادبية التى نجدها فيها فلسنا فى حل من إطالة الحديث عنها غير أننا نشير فقط الى أهم رسائل - J. de Maistre - ورسائل - L, Veuillot - ورسائل - Flaubert - ورسائل - Taine وفى الاراضى الفرنسية لم تمت الصداقة كما لم يمت التفكير ، وليس واحد منها كذلك يشرف على الموت أو الزوال .

الخاتمة

ترينا هذه اللمحة التى قد مناها عن الانواع الادبية مبلغ ما فى العبقرية الانسانية من خصوبة لا تنتهى فى عالم الخير والحقيقة والجمال. وآية ذلك تطور هذه الانواع بواسطة صيغ وتعبيرات مختلفة ، ثم تجددها دون انقطاع . يتألق باستمرار نور هذه العبقرية على كوكب جديد فى سماوات الفكر ؛ ومن هذه الكواكب ، التى أخذ الكثير منها يتلألأ شعاعه عندما استيقظ الذكاء الانسانى لأول مره نجد أن بعضها لن يخبو إلا فى اليوم الذى يخبو فيه آخر إنسان ولا يعود هناك عقل يضىء بالمعرفة ولا قلب ينبض بالحرارة .

---

(١) لويس فيو - Louis Veuillot ؛ أحد رجال الصحافه الفرنسية ؛ دافع عن المسيحية كثيرا فيما كان يحرره من مقالات .كان مدير التحرير فى صحيفة - L'Univers - ؛ ألف عدة كتب منها Les Odeurs de Paris = و Le Parfum de Rome ولد سنة ١٨١٣م . ومات سنة ١٨٨٣م . المترجم

خاتمـــة المترجم

— ١ —

بعد هذه الجولة الطويلة فى رياض فن القول المتعددة الخمائل والمتشعبة المسالك نعتقد أن القارىء يوافقنا فى أن نظرة المؤلف بالنسبة للأنواع الأدبية المختلفة قد جمعت بين الدقة والوضوح ، كما جمعت فى نفس الوقت أيضا بين العمق والشمول ؛ وهذه موهبة قلما تتوفر لناقد أو فنان ؛ إذ أن الجمع بين الناحيتين يعتبر من المسائل الصعبة لما يبدو بينهما من تعارض . ومع ذلك فقد استطاع المؤلف أن يواجه هذا الأمر وهو مسلح بالكفاءة المستنيرة ، والجرأة الملهمه ، والمعرفة الواسعة ، والأسلوب الرصين . ومن أجل ذلك كان واضحا قويا حينما بدأ ، كما كان واضحا قويا حينما انتهى ؛ ولعل مصدر ذلك هو أدراكه العميق لكل مسألة من المسائل التى تعرض لها فى ثنايا بحثه ، واحساسه بالمسئولية الكبيرة أمام الشبيبة التى أخذ على نفسه أن يهذبها ، ويثقفها ، ويقدم لها سجلا حافلا بالمعارف الأدبية من حيث النشأة ، والتطور وعوامل التقدم أو التدهور . ومن أجل ذلك أيضا حمدنا للمؤلف تلك النظرة الشاملة وذلك التحليل الدقيق ، كما حمدنا له أيضا طريقته فى العرض واسلوبه فى الكتابة .

— ٢ —

بدأنا نترجم له ونحن راضون عن هذا العمل ، وانتهينا من ترجمته ونحن مؤمنون بالفائدة التى عملنا من أجلها ، وبالنتيجة التى وصلنا إليها .

ولعل القارىء لا يزال يذكر ما أشرنا اليه فى مقدمة المجلد الأول من أن الدراسة الادبية فى الشرق وفى الادب العربى بصفة خاصة فى أشد الحاجة الى مثل هذه المعارف التى تأخذ بيد التلميذ الى فهم الادب فهما صحيحا والتعرف على فنون

القول المختلفة ، كما تفتح أما الدارسين أو الباحثين أبوابا متعددة تمكنهم من السير المنظم والالمام بالآفاق المختلفة فى سماء الادب الصافية .

— ٣ —

إن الأدب العربى — وليس ذلك عيب هذا الادب — لايزال يدرس ويفهم عندنا بالجملة ; ونقصد من وراء ذلك أننا نتناوله بالدرس على أنه كتل متجمعة أو « خامات » مكدسة ؛ نكتفى بإلقاء النظر على أشكالها الهندسية الظاهرية ونرضى بالحكم العام على ما يفجأ أعيننا من ألوانها الزاهية المبرهجة ناسين أو متناسين أن هذه « الخامات » وتلك الكتل مكونه من أشكال هندسية أصغر وأدق وأن هذه الالوان الغالبة ما هى فى الحقيقة إلا ألوان أخرى من أنواع متغيرة قد انتجت بتجمعها هذا اللون الغالب الذى قد لا يمت بأدنى صلة إلى أى لون من هذه الالوان إذا ما قورن به على انفراد .

— ٤ —

كانت دراستنا فى الغالب للأدب العربى منصبة على الشكل الظاهرى غير ملتفتين الى ما يحتوى عليه ذلك الشكل من أنواع لا تكاد تحد ، ومن تقسيمات لا تكاد تنتهى : كنا ندرس الشعر على أنه اللفظ الموزون المقفى ؛ أما حقيقته ، وموضوعه ونوعه ، وأقسامه فلم يكن لنا بجميع ذلك كبير اهتمام .

وكنا ندرس النثر على أنه ماخالف الشعر ؛ أما طبيعته ، وميادينه المختلفة ، وأنواعه المتعددة فلم يكن لها فى حسابنا كبير تقدير .

لم يكن معروفا إلا لفئه خاصة أن الشعر ينقسم الى شعر قصصى ، وشعر غنائى ، وشعر مسرحى ، وشعر تعليمى ؛ وكانت الفكره السائدة أيضا هى أن الشعر العربى شعر غنائى ، وما دام أمره كذلك فنحن فى حل من اهمال دراسة أنواعه الاخرى ؛ وكان هذا التقدير خاطئا من وجهين :

أحدهما أن الشعر العربي ليس كما كنا نصوره من أنه شعر غنائى فقط ؛ ذلك لانه شمل الشعر التعليمى أيضا ؛ فقدعرف أن كتاب كليلة ودمنةقدنظم شعرا ، كما نظم أمثال ما فيه من حكايات أيضا عند الاغريق واللاتينيين والفرنسيين ؛ فعند الإغريق نجد مجموعة الحكايات التى نظمها إيزوب ، وعند اللاتينيين نجد مجموعة فيدر ، وعند الفرنسيين نجد مجموعة لا فونتين : وقد رأينا كذلك أن القواعد النحوية فى اللغة العربية قد نظمت شعرا ، كما أن بعض المسائل الفقهية والمنطقية والتجويدية قد صيغت أيضا فى قالب شعرى . وجدت هذه النزعة مبكرة عند بعض علماء المسلمين ؛ ونعنى بذلك نزعة نظم العلوم فى صيغة شعرية حتى يسهل حفظها والالمام بمحتوياتها . ويدخل ذلك ، دون شك ، فى نطاق الشعر التعليمى .

الوجه الثانى أنه لا يمكن فهم شعر أمة ما فهما له تقديره وله وزنه إلا على ضوء فهمنا لشعر بعض الامم الاخرى ؛ ومن أجل ذلك نشأت دراسة الادب المقارن ونمت بسرعة فى جامعات الغرب ، وأصبح لهاخطرها فى التهذيب والتثقيف والتكوين . وإذن فدراسة الشعر العربي حتى على افتراض خلوه من الانواع الشعرية الاخرى لا تكمل بدون دراسة جميع الانواع الشعرية . وفوق ذلك فان معرفة هذه الانواع الشعرية فى الآداب الاجنبية تعيننا كثيرا على فهم خلو الشعر العربي من بعضها .

ومع ذلك فإنه إذا ساغ لدارسى الشعر العربي من الاجيال الماضية أن يلتمسوا لانفسهم أو أن نلتمس لهم العذر بالنسبة لعدم إلمامهم بنظريات الشعر كفن من فنون القول ، وعدم دراستهم لأنواعه المختلفة ؛ نقول اذا ساغ للدارسين فيما مضى أن يلتمسوا لانفسهم العذر فى ذلك فليس بمستساغ للجيل الحديث أن يتغاضى عن هذه الدراسه ويهمل ميادينها المتعددة متعللا بما كانت تصنعه الأجيال السابقة ويسير عليه السلف من العلماء والباحثين .

وقد زادت حاجة المعاصرين الى التفقه فى دراسة الشعر العربى على ضوء الدراسات فى الشعر عند الامم الاخرى ، وعلى ضوء الدراسات المقارنة عند الغربيين ، ذلك أن الشعر العربى الحديث قدوجد فيه نوع من الشعر لم يكن فيه من قبل ؛ ألا وهو الشعر المسرحى ؛ فقد ألف شعرا عدد من المسرحيات لا يستهان به كما ترجم عدد آخر من المسرحيات الاجنبية الى اللغة العربية .

كل هذا يبين لنا بشكل واضح مبلغ حاجتنا الى التعرف على النظريات الشعرية وفهم أنواع الشعر المختلفة ، ودراستنا للشعر العربى من جديد متجهين الى جوهره وحقيقته أكثر من اتجاهنا الى أشكاله الظاهرية وأوزانه الموسيقية ؛ هذه الاوزان وتلك الأشكال التى كانت وربما لا تزال فى كثير من البيئات تستنفد جانبا كبيرا من الجهد والكد والعناء .

— ٥ —

وشبيه بذلك ما يمكن أن يقال عن النثر وعن دراسته فى الأدب العربى ؛ وربما كان تقصيرنا بالنسبة لدراسة النثر العربى اكثر من ذلك التقصير الذى لا حظناه وأشرنا اليه منذ قليل بالنسبة للشعر ؛ فالشعر العربى قبل العصر الحديث كان يخلو حقيقة من نوع الشعر المسرحى ، ومن نوع الشعر القصصى بالمعنى المتعارف عليه فى الآداب الأجنبية قديمها وحديثها . وقد استطاع العصر الحديث أن يضيف اليه نوع الشعر المسرحى بكل مزاياه التى عرف بها ، والتى من أجلها سمى بهذه التسميه . أما النثر فقد وجد فى الادب العربى بكل أنواعه دون استثناء . ومع ذلك فعناية دراستنا الأدبية به قليلة متعثرة . والدليل على ذلك أن الاكثرية الساحقة من شباب الجيل المثقف لا تستطيع أن تدرك الفروق الأساسيه بين أنواع النثر العديدة فى الأدب العربى ، الذى يعتبر من أغنى الآداب العالمية فى هذه الناحية ؛ وحسبك أن تتجول مرة فى معاهدنا العلمية وفى بيئات الدراسات الأدبية وتوجه أسئلة من هذا النوع : ما هو الفرق بين نثر ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنه ونثر

ابن سلام فى كتاب الشعر والشعراء ؟ أو ما هو الفرق بين نثر الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ونثره هو أيضا فى كتاب الحيوان ؟ أوما هو الفرق بين نثر الجاحظ فى هذين الكتابين ونثر المعرى فى كتابه « رسالة الغفران » ؟ أو ما هو الفرق بين نثر المبرد فى كتاب الكامل ونثر الفخر الرازى فى تفسيره أو نثر الطبرى فى تاريخه وفى تفسيره ؟ أو ما هو الفرق بين نثر الطبرى فى تاريخه أو ابن هشام فى سيرته ونثر ابن سينا فى كتاب الشفاء ؟ او ما هو الفرق بين هذه الأنواع المتقدمة من النثر ونثر كل من بديع الزمان الهمزانى والحريرى فى مقاماته ؟ أو ما هو الفرق بين الخطب الدينية التى كانت تقال فى ايام الجمع وفى المواسم والأعياد والخطب السياسيه التى كان يقولها الخلفاء عند توليهم أمور المسلمين والولاة عند توليهم زمام الأمور فى بلد من البلدان ؟ او ما هو الفرق بين نثر هذه الخطب الدينية والسياسية ونثر الخطب القضائية التى تلقى فى رحاب المحاكم وفى ساحة القضاء ؟

ولو انك صنعت ذلك ثم أصغيت الى إجابة التلاميذ أو الطلاب لاعترتك الدهشة ولخجلت كما خجلنا نحن من قبل حينما وجهنا أسئلة مشابهة الى بعض التلاميذ فى الامتحانات العامة للشهادة الثانوية ، والى بعض الطلاب فى كلية الآداب ، والى بعض الدارسين فى معد الدراسات العليا ؛ وكل ما عساك أن تحصل عليه من هذه الاجابات يدور حول نقطتين اثنتين هما :

النثر ما خالف الشعر فى صيغته ، وهو اما نثر مرسل وإما نثر مسجع ؛ وبعد ذلك يقف حمار المسئول عن التقدم خطوة واحدة ؛ ولو تابعته بالسؤال تلو السؤال لما صنع أكثر من أن يدور حول نفسه أو حول هاتين النقطتين لايتزحزح عن مدارهما قيد أنملة .

وكان أعجب موقف فى ذلك هو موقف أحد الدارسين فى معهد الدراسات العليا حينما دار بيننا وبينه هذا الحوار بعد أن فرغنا من الكلام عن الشعر :

ـــ وبم تميز النثر عن الشعر ؟

ـــ الشعر كما قلنا عبارة عن كلام موزون مقفى. أما النثر فهو ما سوى ذلك.

ـــ وماذ تعرفه من أنواع النثر ؟

ـــ هناك نوعان لا ثالث لهما ، نثر مرسل ونثر مسجع .

ـــ وما هو الفرق فى نظرك بين هذين النوعين من النثر ؟

ـــ النثر المرسل هو مايشبه الكلام العادى ولانحس فيه بأى لون من ألوان الموسيقى، أما النثر المسجع فهو عبارة عن الكلام المقفى أو الكلام الذى تتوالى جمله على روى واحد.

ـــ ألا تحس بفارق بين هذين النصين ؟ وقرأت له خطبة أبى بكر الصديق حينما سمع أهل المدينة بموت النبى صلى الله عليه وسلم فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة فقام فيهم أبو بكر خطيبا وقال : « أيها الناس إن يكن محمد قد مات فان الله حى لم يمت . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . ؟ وقد علمتم أنى أكثركم قتبا فى بر ، وجارية فى بحر فأقروا أميركم وأنا ضامن إن لم يتم الأمر أن أردها عليكم » ؛ ثم قرأت له جانبا من مقدمة أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى : « اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه ابان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان ، ونبه فيه على عظم الامتنان ، فقال عز من قائل (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ، ولا صح من العاقل ان يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى موجودها وفانيها ، نعم ولوقع الحى الحساس فى مرتبة الجماد ، ولكان الادراك كالذى ينافيه من الاضداد ، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعانى مسجونة فى مواضعها ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ، والأذهان عن سلطانها معزولة ، ولما عرف كفر من إيمان ، وإساءة من إحسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، وذم وتهجين . الخ » وتردد قليلا ثم قال :

— لا أحس بفرق بين النصين فكلاهما من واد واحد ؛ إذ ان عنصر الموسيقى يبدو في تراكيبهما بدرجة واحدة . وهنا أدركنا من إجابته قصور الدراسة الأدبية بالنسبة للنثر العربي ، كما أدركنا أن احكام الطلبة والدارسين تتجه أولا وبالذات الى الشكل الظاهري فقط فى النثر مثل ما لا حظناه بالنسبة للشعر . أما حقيقة الجمل وتركيبها وموضوعها وما تحتوى عليه من طول وقصر ، ومن تركيز وانبساط فى المعنى ، ومن لفتات سريعة وإشارات خاطفة او من تمهل وسير بخطوات رتيبة وئيده ، نقول . أما ذلك كله فلا نعيره اهتماماً ولا ندخل له فى دراستنا الادبية أى تقدير .

وانتقلنا بعد ذلك الى سؤال آخر فقلنا :

— وما رأيك فى آيات القرآن الكريم ؟ أهى من الشعر أم من النثر ؟ وإذا كانت نثرا فمن أى أنواع النثر ؟

وهنا توقف بعض الوقت ثم قال :

— هذا سؤال لا أستطيع الاجابة عليه .

— ولم ؟

— لأن هذه الآيات من كلام الله ، وكلام الله لا يوصف بشعر ولا بنثر .

— وإذن فمن رأيك أن هناك نوعا ثالثا من الكلام لا يدخل تحت الشعر ولا تحت النثر ؟

— لست أقصد من وراء ذلك أن الكلام ينقسم الى شعر وإلى نثر وإلى نوع ثالث لا هو بالشعر ولا هو بالنثر ؛ وإنما أقول أن الكلام نوعان : شعر ونثر ؛ واعنى بذلك كلام البشر ؛ أما كلام الله فهو شيء آخر لا ينبغى أن يشبه بكلام الناس .

— وماذا تقصد بوجه الشبه هنا بين كلام الله وكلام الناس ؟ هل تريد بذلك أنه لا ينبغى أن يشبه كلام الله بكلام الناس من ناحية اللفظ ام من ناحية المعنى ؟

— أنا اعلم ان علماء الكلام قد اختلفوا فى تحديد كلام الله ؛ فالبعض يرى أن القرآن

قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه ؛ ويرى البعض الآخر أنه نزل بمعناه لا بلفظه ؛ واعتقد ان الفريق الأول على حق ومن أجل ذلك يجب ألا نعرض آيات القرآن لأحكام الناس .

وكنت أتمنى أن اتعرض معه أيضا لنص أحاديث الرسول عليه السلام لأرى كيف يحكم عليها من ناحية أسلوبها وتراكيبها ؛ ولكننى خشيت الاسترسال الذى ربما يخرجنا من دائرة الادب الى دائرة الدين فانتقلنا الى موضوع آخر من الاسئلة يتصل بالقواعد اللغوية لا بالاساليب الادبية .

وبقدر ما سرنا من هذا الدارس ما كان عليه من خلق وإيمان ساءنا ما ظهر فيه من ضيق فى افق التفكير واستسلام تام لكل ما يقرأ فى الكتب او يسمع فى الدرس .

٦

وخلوت بعد ذلك الى نفسى أسائلها : هل مصدر هذا النقص فى دراستنا الادبية مبعثه قصور فى الطلاب أم قصور فى الأدب العربى أم قصور فى المناهج الدراسية الادبية ؟ ولم أجد كبير عناء فى أن اهتدى إلى الجواب الذى تطمئن اليه النفس ويرتاح له الضمير ؛ ذلك ان مظهر القصور يتمثل تمثلا كاملا فى مناهج الدراسة الأدبية ؛ فنحن لا نزال فى اكثر المعاهد العلمية عندنا ندرس الادب العربى بنفس المناهج التى كان يدرس بها منذ اكثر من نصف قرن كالا يزال أكثر المشرفين على دراسة هذه المناهج يتصورون أن الأدب العربى خلو من انواع الشعر الاخرى ما عدا الغنائى ، وأن حظ النثر فيه ضئيل جدا لا يستحق العناية ولا هو جدير بالاهتمام ؛ وهذا تصور ساذج وفيه كثير من الخطأ ؛ وقد حان الوقت الذى ينبغى أن نغير فيه فكرنا عن الادب العربى ومكانته بالنسبة للآداب الاخرى وعن مبلغ ما فيه من تنوع وما أورثنا من ثروه لا تكاد توجد فى أى أدب من الآداب التى سبقته أو عاصرته ؛ كما حان الوقت الذى ينبغى أن نطبق عليه مناهج الدراسة العلمية

الحديثة التى يسير عليها الدارسون فى جامعات الغرب ، ونفهمه على ضوء هذه المناهج فهما لا يغمطه حقه ويضعه فى المكانة التى هو جدير بأن يوضع فيها .

٧

لقد أوضحنا منذ قليل ضخامة الثروة الشعرية فى الادب العربى ؛ وبينا كذلك أن هذه الثروة متنوعة ، ففيها الشعر الغنائى ؛ وفيها الشعر التعليمى وأصبح فيها بفضل الأدباء المحدثين الشعر المسرحى ، ونضيف إلى ماتقدم أن كمية الشعر التعليمى فى الادب العربى تزيد بكثير عما وجدناه من شعر تعليمى فى الاداب الغربية . من هذه الكمية ما يتناول الأدب كنظم كليلة ودمنة مرات فى الادب العربى ومنها ما يتناول الطب كالألفية فى الطب والمنظومة فى الطب وهما لابن سينا ، ومنها مايتناول العلوم الصوتية كالتحفة والجزرية فى التجويد وكالشاطبية فى القراءات المختلفة للقرآن ؛ ومنها مايتناول علم الكلام أو التوحيد ككتاب الخريدة ؛ ومنها مايتناول قواعد النحو كالفية ابن مالك وألفية ابن معطى ؛ ومنها مايتناول العلوم الحديثة كالمنظومة فى الجغرافيا ؛ ومنها ما يتناول العلوم التشريعية كبعض مانظم من كتب الفقه

٨

أما النثر وما وجد منه فى الادب العربى من ناحية الكم ومن ناحية الكيف أو التنوع فأمره أعجب من أمر الشعر ، إذ أن ماخلفه الأدب العربى من تراث فى النثر لا يمكن أن يقارن بما خلفه غيره من الآداب الأخرى . هناك الخطب بأنواعها المختلفة وفى مجموعات كبيرة كخطب الخلفاء الراشدين وعلى رأسهم على بن أبى طالب وخطب الولاة والحكام على الامصار العديدة ، وخطب الفاتحين والقواد الحربيين الذين عرفوا ببلاغة القول وقوة التأثير وهذه الخطب تجد منها ما يتصل بالدين ؛ ومنها مايتصل بالسياسة ؛ ومنها مايتصل بالحروب . وليس من السهل تعداد الخطباء العرب فى صدر الاسلام وفى عصر الدولة الاموية كما أنه ليس من السهل تعداد الخطب التى قيلت فى هذه الموضوعات جميعا . ولعل أوضح دليل على ذلك هو تلك المجموعة الكبيرة من الخطب التى تنسب إلى الامام على بن أبى طالب والتى

جمعها الشريف المرتضى فى كتاب «نهج البلاغة»؛ وسواء صحت نسبتها كلها الى الامام على أم لم تصح فأن نصوص هذه الخطب تصور تصويرا صادقا النثر الخطابى بكل خصائصه الاسلوبية ومزاياه المعنوية؛ ثم إنه لحسن الحظ بالنسبة للادب العربى قد تكفلت مجموعة كبيرة من كتب القدماء بتسجيل الكثير من هذه الخطب لتكون مادة للدرس والمحاكاة والتحليل؛ من هذه الكتب البيان والتبيين للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربه؛ والشهرستانى، والكامل للمبرد؛ يضاف إلى ذلك كتب المغازى والفتوح والتاريخ.

— ٩ —

وهناك نثر الرسائل بأنواعه المختلفة، وكميته الكبيرة؛ ذلك النوع الادبى الذى لم يعرف عند القدماء الغربيين إلا قليلا والذى لا نجد منه فيما درسنا من الادب اليونانى واللاتينى سوى هذه المجموعة من الرسائل التى كتبها سيسيرون لابنته أو لأفراد اسرته أو لأصدقائه. ولندرة هذا النوع من النثر فى الآداب الغربية حاول المؤلف التقليل من أهميته؛ ويكاد يستكثر عليه أن يكون نوعا مستقلا بذاته.

ولقد ذكرنا هذه الملاحظة بالتفصيل عند تعليقنا على الفصل الخاص بالرسائل والمكاتبات من هذا المجلد، كما أوضحنا أيضا مبلغ الثروة الموجودة فى الادب العربى من هذا النوع النثرى. ولسنا فى حاجة الآن لإعادة ما ذكرناه؛ غير اننا نحرص هنا أيضا أن نشير إلى أن هذا النوع من الادب النثرى قد أهمله الدارسون وكأنهم لم يفترضوا له وجودا؛ فاهملوا بذلك جانبا كبيرا من التراث الأدبى؛ ولم يحاولوا درسه وتحليل خواصه ومزاياه. ومن هنا يوجد مظهر آخر من مظاهر التقصير فى دراساتنا الادبيه وفى فهمنا للادب العربى، وتقديرنا لما يحتوى عليه من ثراء بالنسبه لمادته وبالنسبة لروحه ومن هنا أيضا كان الحافز والباعث على أن نشغل أنفسنا هذه المدة الطويلة بترجمة هذا الكتاب الذى هو بين أيدينا واعتباره منهجا نتبعه فى دراسة الادب العربى من جديد على ضوء هذه النظريات

الحديثة التى تتبع فى دراسة الآداب الغربية .

وهناك فى الادب فوق ما تقدم نثر الرواية والقصة بكل خصائصه وجميع مزاياه . وتكاد هندسة القصة أو الرواية فى الأدب العربى تشبه هندسة المسرحية فى الادب المسرحى من حيث ما تشتمل عليه من مقدمة للموضوع ثم عرض لهـــذا الموضوع ثم سلسلة من الأحداث أو المفاجآت ، ثم عقدة يتركز عندها اهتمام القارىء ثم خاتمـــة .

ومن أجل ذلك نعتقد أن القصة أو الرواية قد وجدت فى الادب العربى لذاتها وبهندسة خاصة لتكوينها ؛ وليس كما يظن البعض من أنها غير أصيلة فى الأدب العربى ووجدت عن طريق الصدفة وباسلوب كيفما اتفق .

١٠

ويخيل إلينا أن هذا النوع من النثر الادبى كان موضع عناية القدماء واهتمامهم ؛ وليس أدل على ذلك من اعتماد سياسة بعض الدول الاسلامية عليه ؛ فكان الحكام وولاة الأمر يشجعون الكتاب على تنميته والانتاج فيه لكى يصرفوا الناس عن الاختلافات السياسية والتفكير فى نقد أعمال الحكومة إن حقا وإن باطلا . وللسياسة فى الشعوب مواقف مشهورة مع الطبقة المثقفة فيها ؛ وتتجلى هذه المواقف بصفة خاصه أثناء الأزمات ؛ وأشد ما يخشاه الحكام فى هذه الازمات إنما هم رجال الفكر والقلم ؛ فإذا ما استطاعوا أن يسيطروا على هذه الطبقة أمكنهم أن يسيروا فى تنفيذ خططهم دون خشية من وقوع ثورات داخلية تهدم بناء الدولة وتفسد على الحكام مشروعاتهم . وفى أغلب هذه المواقف يكون المظهر السائد هو تأليف قلوب الطبقة المثقفة ، واستمالتها بكل الوسائل ، وتشجيعها بالمال والجاه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى عهد الامبراطور اغسطس حينما بذل جهده وماله ورعايته لاستمالة الطبقة المستنيرة فى الشعب لكى يستريح من الثورات الداخلية

والاختلافات السياسية ؛ ولكى يتغلب على خصومه السياسيين وقد نجح ؛ ومن ذلك ايضا ما رأينا من عمل معاوية بن ابى سفيان مع الطبقة المستنيرة فى دمشق ، وفى بيئة الحجاز ، وفى العراق رقد نجح هو ومن جاء بعده إلى حد كبير ؛ ومن ذلك ما صنعه المنصور مع نفس الطبقة المثقفة فى أول عصر الدولة العباسية ؛ ومن ذلك ايضا ما صنعه خلفاء الدولة الفاطمية فى مصر حينما اشتدت خشيتهم من المنازعات والخلافات المذهبية والدينية والسياسية ؛ والذى حدث فى مصر وفى عهد الدولة الفاطمية هو الذى يهمنا هنا فى الدرجة الأولى ؛إذ ان عددا كبيرا من الروايات والقصص يعتبر مدينا فى وجوده وفى تطوره الى هذا العصر ؛ وقد نجح الخلفاء الفاطميون فيما هدفوا اليه إلى حد كبير . ولقد دلت التجارب على فشل استعمال طريقة أخرى مع رجال الفكر والقلم ؛ ونقصد بتلك الطريقة طريقة الشدة والعنف والقسوة ؛ فهى وإن ظهر عليها سيما النجاح فى أول الأمر إلا انه نجاح مؤقت يشبه الهدوء الذى يسبق العاصفة .

١١

إننا لو إستعرضنا موضوعات النثر فى الأدب العربى لوجدنا أن هذه الظروف السياسية قد دفعته لأن يثرى بنثر القصة والرواية ؛ وهذا ميدان آخر يمتاز به الأدب العربى عن غيره من الآداب القديمة الاخرى ؛ إذ أن الآداب الغربية القديمة — الاغريقية واللاتينية — لم تعرف هذا النوع إلا نادرا ؛ وكل ما نعرفه من الروايات والقصص فى هذين الادبين الكبيرين لا يتجاوز عدده عدد أصابع اليد الواحدة . والثروة الكبيرة من القصص والروايات فى الآداب الغربية الحديثة مدينة فى وجودها وفى تنوعها وفى رقيها إلى العصور الحديثه ، التى ليس من الانصاف أن نقارن بها الادب العربى .

١٢

عرف الأدب العربى هذا النوع النثرى معرفة تكاد تكون تامه ناضجة منذ

القرن الثالث الهجرى ؛ ثم وجدت ظروف سياسية واجتماعية فساعدت على النهوض به والإكثار منه . وقد وصل الينا عدد غير يسير من هذه القصص تصلح مادة للدرس والتحليل؛ وذلك عدا مجموعة كبيرة من تلك القصص والروايات لم نعرف عنها سوى أسمائها . وقد تكفل ابن النديم فى كتابه الفهرست بذكر أصحابها كما وصل إلى علمه ، وبذكر بعض محتوياتها بصورة مركزة مختصرة .

ولسنا ندرى فى الواقع لماذا لم نعر هذه الآثار الأدبية جانبا من عنايتنا فنجمعها وندرسها ، ونفهمها ، ونحللها ثم نكتب عنها ؟

يخيل إلينا أن من أهم الاسباب التى جعلتنا نتغاضى عن هذه الآثار ، ولا ندخل لها فى حساب دراستنا أى اعتبار إنما هو عدم التأكد من معرفة أصحابها ومؤلفيها ، ثم ما يبدو على أسلوبها من بساطة تشبه أحاديث العامه ومن تكرار ملح فى ألفاظها وتراكيبها وجملها ، عكس ما ألفناه فى النثر الأدبى الآخر من ألفاظ جزله ، وعبارات مختارة ، وتراكيب منمقة ، وجمل قد حسنت صياغتها وظهرت موسيقاها ؛ على أن هذا وذاك لا يبدو فيهما أبدا ما يبرر هذا الاهمال ؛ إذ أن الذى يعنينا فى الواقع هو نص الرواية أو القصة لا اسم صاحبها ومؤلفها ، كما أن الذى يعنينا أيضا إنما هو نوع الأسلوب فيها لا قيمته من الناحية الأدبية . فكم من كتب ندرسها ولا ندرى من أمر مؤلفيها شيئا ! وكم من كتب قد درست على أنها لمؤلفين مشهورين وقد أظهر البحث غير ذلك !

١٣

وها نحن أولاء لانزال نذكر حتى الآن فى شىء من المرارة ذلك اليوم الذى دخلنا فيه لأول مرة معهد الكولليج دى فرانس بباريس لنحضر درسا من سلسلة الدروس فى الادب العربى فوجدنا موضوع تلك الدروس « المرأة فى كتاب ألف ليلة وليلة » كان ذلك فى سنة ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين، وكان المحاضر هو الاستاذ المستشرق ماسيه . هناك رأينا كيف يقرأ النص باللغه العربيه ، ثم يترجم فى عبارة

صحيحة إلى اللغة الفرنسية ؛ وبعد ذلك توجه العناية إلى تفهم كل ما يتصل بالمرأة فى هذا النص من الناحية الاجتماعية ، ومن الناحيه العقلية ، ومن الناحية النفسية ،ومن الناحيـة الاخلاقيـة . رأينـا كيف تفتح هذه الدراسة أمام الطلاب آفاقا واسعة واتجاهات جديدة للبحث والتفكير . انتهى الدرس وعادت بنا الذاكرة إلى الوراء وتمثلت لنا الصورة التى كانت لدينا عن كتاب « ألف ليله وليله » وكيف كان يقرأ بين العوام فى قرى مصر ، كما كانت تقرأ تماما قصة « أبو زيد الهلالى والزناتى خليفه » أو قصة « الاميرة ذات الهمة » أو قصة « بنى هلال ورحيلهم الى الغرب » أو قصة عنتر بن شداد » ، وكيف كان يتخذ منه ، كما كان يتخذ من غيره ، موضوعا للسمر فى المجالس ، وميداناً للتفكه والنقاش فى المنتديات القروية البسيطة والمجتمعات المدنية الساذجة ؛ تصورنا ذلك كله، وتصورنا أيضا كيف كانت بيئاتنا العلمية تترفع عن كتاب « ألف ليله وليله » كما كانت تترفع عن أمثاله من القصص والروايات ، فكأن ما فيه ليس جديرا بالدرس ، أو كأنه لم يكتب للمتعلمين وإنما كتب للسوقة والعوام . عادت بنا الذاكرة إلى الوراء وتذكرنا كل ذلك ، ورأينا كيف أصبح هذا الكتاب ، الذى لا يحظى بأدنى اهتمام فى معاهدنا المصرية ، موضع تقدير المعهد الفرنسي العالى ، وميدان درس وتحليل بالنسبة لطلابه وأساتذته ، فأحسسنا بشىء من المرارة كما قلنا منذ قليل ، وأدركنا مبلغ تقصيرنا فى دراسة الأدب العربى، وفى فهمه فهما شاملا واعيا عميقا .

وتمضى الايام ، فينتهى العام الدراسى ، وننتسب إلى السوربون لدراسة الادب الفرنسى وتاريخه فى سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩ م . قرأنا منهج الدراسة لتلك السنة فوجدنا من بين ماسيدرس من الآثار الادبية الفرنسية رواية عنوانها « أوكاسان ونيكولت » ؛ وشغلت دراسة هذه الرواية جانبا غير قليل من العام الدراسى ، كما قام بتدريسها أستاذ له مكانته فى السوربون هو الاستاذ كوهين المتخصص فى العصور الاولى من الادب الفرنسى .

كانت هذه الرواية غير معروفة النسبة فمؤلفها مجهول تماما ؛ وموضوعها هو الحب بين ابن - الكونت بولير - وفتاة من فتيات العرب فى اسبانيا أو فى المناطق الجنوبية من فرنسا ؛ وكان تأليفها فى خلال القرن الثالث عشر الميلادى . لغتها ركيكة وتكاد لا تمت إلى اللغة الفرنسية الحالية بأية صلة لا فى ألفاظها ، ولا فى هجائها ولا فى تراكيبها ؛ وأسلوبها عامى خالص يمثل طفولة اللغة الفرنسية الصحيحة أو إن شئت فقل يمثل فترة انتقال اللغة الفرنسية من اللغة اللاتينية ؛ وأفكارها بسيطة ساذجة من ناحية التحليل العاطفى والنفسى والاجتماعى ؛ وفوق ذلك فإن لغتها تشتمل على الشعر مرة وعلى النثر مرة أخرى ؛ كما نجد ذلك فى قصص — أبو زيد الهلالى ، والزناتى خليفه ، ورحلة بنى هلال إلى بلاد الغرب الخ - ؛ وحوادثها بدائية لا يكاد يكون للخيال فيها أى عمل ، ولا للمؤلف أى مجهود فيما عدا سرد الحوادث أو نظمها .

ولو أن هذه الرواية قورنت بأبسط قصة من القصص العربية لتخلفت عنها كثيرا فى لغتها وفى أسلوبها وفى خيالها وفى أفكارها وفى أحداثها وفى مؤلفها وفى التاريخ الذى يفصلها عن العصر الحديث .

ومع ذلك لم يكن شىء من هذا كله حائلا دون العناية بها وبدراستها وبتحليل ما فيها من الألفاظ والمعانى . وعادت بنا الذاكرة مرة أخرى إلى الوراء ، وتصورنا مكانة أمثال هذه الرواية فى الأدب العربى فاحسسنا بالمرارة مرة ثانية وأدركنا مبلغ تقصيرنا فى دراسة الآثار الادبية عندنا .

ولكى تتوفر لدى القارىء صورة واضحة عن سبق الأدب العربى فى هذا الميدان من ناحية تبكيره بممارسة نثر الرواية أو القصة ، ومن ناحية احتوائه على عدد غير يسير من هذه القصص أى الروايات نذكر هذه الحقائق باختصار :

أولا : استمر الأدب الاغريقى خاليا من الرواية مدة ثمانية قرون ، أى من القرن العاشر قبل الميلاد ، حيث نظمت الإلياذه والأوديسا حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث وجد الشاعر الأغريقى - أبو للونيوس الروديسى - ، الذى نظم بدوره

ملحمة عرفت باسم ـ ارجونوتيك ـ ؛ وفى ثنايا هذه الملحمة يقص الشاعر قصة حب وقع بين ـ ميدية ـ و ـ جازون ـ ؛ ولما كانت هذه القصة تحتــوى فى نظر الباحثين ، على العناصر الأساسية فى الروايه فقد اعتبروها أول محاولة لنشــأة الروايه فى الادب الاغريقى ، ولم يعرف فى هذا الادب أثر آخر، فيما نعتقــد ، يمكن ان يطلق عليه الأدباء قصة او روايه حتى ولو على طريق التجوز كما حدث مع الشاعر ابو للوينوس إلا فى القرن الرابع بعد الميلاد، حيث نجد الروائى اليونانى المشهور ـ لونجوس ـ » الذى يؤلف رواية بالمعنى الصحيح يصف فيها حياة الرعاة وما يجرى بينهم من حب وما يتبـادلونه من شعــور وعواطف وإحسـاسات . وقد كتبت هذه الروايه تحت عنوان : « دافنيس وكلويه » ؛ ولعلها كانت فيما بعد مصدرا من مصادر إلهام الكاتب الفرنسى ـــ بيرناردانْ دى سان بيير ـ فى تأليفه لرواية « بول وفيرجينى » . وهكذا يبقى الادب الاغريقى نحو خمسة عشر قرنا من الزمن وليس فيـه من النثر الروائى سوى محاولة بسيطة فى ملحمة ـ أرجونوتيك ـ ، وروايه كاملة هى ـ دافنيس وكلوية ـ .

ثانيـــا : ـــ

كان الأمر فى الادب اللاتينى شبيها بما حدث فى الادب الإغريقى ؛ فقد ظل هذا الأدب اللاتينى نحوا من خمسة قرون لم يعرف فى خلالها نثرالقصة أو الروايه أى من القرن الرابع قبل الميلاد حتى منتصف القرن الأول بعد الميلاد. حيث يجيء الكاتب اللاتينى المعروف ـ بيترون ـ فيؤلف رواية بالمعنى الصحيح يسمنها ـــ ساتيريكون ـ ؛ وبعد ذلك تتجدد المحاولات فى الأدب اللاتينى ؛ ولكن هذه المحاولات لم تنتج أثرا آخر نستطيع أن نجد فيه العناصر الكاملة للرواية أو القصة وهكذا يدخل كل من الأدب الأغريقى والادب اللاتينى فى ظلام العصور الوسطى وليس فيهما سوى هذه الآثار الضئيلة وتلك المحاولات المحدودة بالنسبة للنثر القصصى أو الروائى .

ثالثا :

كان أمر الادب العربي غير أمر هذين الادبين القديمين ؛ فمنذ بدأ التدوين عند العرب وجد الميل الى تسجيل القصه والشغف بقرائتها . ولعل ما صنعه ابن المقفع فى ترجمة « كليلة ودمنه » يعتبر استجابة لذلك الميل، وتلبية لما تتطلبه حالة المجتمع إذذاك ومعروف أن ابن المقفع توفى سنة مائة وثلاث وأربعين من الهجرة . ولسنا نريد بذلك أن نقول إن كتاب « كليلة ودمنه » عبارة عن رواية أو قصة بالمعنى العلمى ، ولكننا نريد أن نقول فقط إن ما يحتويه هذا الكتاب يمكن أن يعتبر محاولة طيبة بالنسبة للنثر القصصى أو الروائى ، بل إنها أوضح فى بابها من محاولة الشاعر — ابو للوينوس — الذى ألف ملحمة - أرجونوتيك - ثم لم يمض بعد ابن المقفع سوى نحو قرن من الزمن لكى نجد القصة الكاملة بعناصرها الاساسية فى الادب العربى . وفى خلال القرن الثالث والرابع الهجريين تتكون لدينا مجموعة من هذه القصص ما بين حماسية وتاريخية وغرامية .

من ذلك قصة الجهرة ، التى تنسب الى أبى زيد عمر بن شبه المتوفى سنة مائتين واثنتين وستين من الهجرة ، وموضوع هذه القصة أخبار العرب وأيامهم وأخبار حروبهم مع الفرس والروم واليمن .

ومن ذلك قصة عنتر ، وهى أكبر القصص الحماسية العربية ويبدو فيها ايضا عنصر الغرام بشكل واضح ؛ ويقال انها وضعت فى القرن الرابع الهجرى ؛ كما يقال إن واضعها هو يوسف ابن اسماعيل فى زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمى. ومن ذلك قصه بكر وتغلب ، وهى قصة حماسية تاريخية أيضا ؛ وهى تصور الوقائع الحربية بين بكر وتغلب ابنى وائل ، وتنسب هذه القصة الى محمد بن اسحاق.

ومن ذلك قصة شيبان مع كسرى أنوشروان ؛ وهى قريبة الشبه جدا بالروايات الحديثة ؛ إذ ان عنصر الخيال وبراعة التصوير يبدو ان فيها بشكل واضح . وموضوع هذه القصة الحرب بين شيبان وكسرى ، وقد أراد المؤلف ان يجعل

سبب هذه الحروب حادثة يتمثل فيها عنصر الغرام وماتلعبه المرأة من دور فى المجتمع ، كما يتمثل فيها عنصر الاباء العربى .

كانت هذه الحادثة هى أن كسرى انو شروان طلب من النعمان ابنته الحرقة بنت المتجردة فقامت الحرب بسبب ذلك . وتنسب هذه القصة إلى ابن نافع التميمى ؛ وقد رواها عنه بشر بن مروان الاسدى .

وبجانب هذه القصص المتقدمة التى تصور الحماسة والإباء والشجاعة والكرم ، نجد مجموعة كبيرة أخرى من القصص التى تصور الغرام أو الحب فى صوره المختلفة.

فهناك من هذه القصص ما يصور الحب العذرى مستلهما فى ذلك ما عرف عن كثير لبنى ، وعن جميل بثينه ؛ وذلك مثل كتاب عمر بن أبى ربيعة ، وكتاب مليكة ونعم وابن الوزير ، وقصة احمد وداحه ، وقصة أبى العتاهية وعتب ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوحه ؛ وهناك ما يصور الغرام فى صورته العامة بين اغلب الناس ؛ وذلك كقصة على بن اديم ومنهلة ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ؛ وهناك مايصور الحب العنيف المتطرف لدى النساء ؛ وذلك كقصة ريحانه وقرنقل ، وقصة رقية وخديجة ، وقصه سكينة والرباب ، وقصة هند وابنة النعمان ، وقصة سلمى وسعاده؛ وهناك ما يصور الخيال فى أبعد حدوده ؛ وذلك كالقصص التى تدور بين عالم لا وجود له وتتخذ أبطالها من الجن أو من الانس والجن معا . وقد ذكر ابن النديم عشرات القصص ؛ غير أن أغلبها قد ضاع ؛ وما بقى منها قد أدخلته العصور المتأخرة فى قصص « ألف ليله وليله » .

١٥

وقد يبدو غريبا لبعض الناس ان تنشأ الرواية او القصة مبكرة فى الأدب العربى ؛ ثم تنمو بسرعة ويكثر الانتاج فيها ، بينما لا نجد الجو مهيأ لها فى الادبين الغربيين القديمين : الأدب الاغريقى والادب اللاتينى ؛ وتعليل ذلك ، فيما نعتقد سهل ميسور . فالمجتمع العربى كغيره من المجتمعات الانسانية ؛ كان فى حاجة الى

ان ينفس عن خياله وتصوراته واوهامه التى تتردد فى نفسه، والتى تملأ جانبا من حياته وتفكيره؛ والذى عرف فى حياة الشعوب الاخرى هوانها وجدت متنفساً لهذه الاوهام ولتلك الخيالات فى ادب الملاحم، حيث تملؤها الصور الخيالية؛ وتفيض بتصوير عالم يشبه الى حد كبير عالم الاساطير وهذا هو نفس ما نجده فى ملحمة «جلجميس» فى ادب البابليين والاشوريين وفى ملحمة «الاليـــاذة» و «الاوديسا» فى ادب الاغريق ثم فى ملحمة «الاينياده» فى الادب اللاتينى.

اما العرب الذين لم يكن لديهم نظام الملاحم ولم يمارسو هذا النوع الادبى؛ فقد اتجهوا مبكرين الى أدب القصة أو الرواية ليجدوا فيها متنفسا لخيالاتهم وأوهامهم.

ولعل من أعجب الظواهر الأدبيـة هو أن تتطور القصة أو الرواية فى الأدب العربى لتأخـذ طريق الملاحم كما يشاهـد ذلك فى قصـة الأميرة ذات الهمة، وفى قصص ـ أبو زيد الهلالى، والزناتى خليفة، ورحيل بنى هلال إلى بلاد الغرب ـ، وأن تتطور الملحمة فى الأدب الاغريقى لتأخذ طريق القصة أو الرواية كما يشاهد ذلك فى ملحمة ـ أرجونوتيك ـ للشاعر ابو للونيوس الروديسى؛ إذ أن ما فى هذه الملحمة من اتجاه روائى يعتبر أول رواية فى الأدب اليونانى.

— ١٦ —

هذا عرض موجز لحالة الأدب العربى وطبيعته من حيث ميادينه المختلفة، ثم لمكانة هذا الأدب بالنسبة لغيره من الآداب الأخرى ولقد حاولنا فى أثناء هذا العرض أن نبين نصيب هذا الأدب من الدراسة فى معاهدنا العلمية. ومن هذا وذاك يتبين للقراء مبلغ الحاجة إلى تطبيق المناهج الحديثة فى الدراسة الأدبية عندنا كما يتبين لهم أيضا مبلغ الحاجة الملحة إلى أن يدرس الأدب العربى من جديد على ضوء هذه المناهج الحديثة لكى يفهم هذا الأدب فهما واعيا، ولكى تدرك ميادينه واتجاهاته إدراكا عميقا. ومن أجل ذلك أردنا أن نقدم لدراسى الأدب العربى

والباحثين فيه هذه الترجمة ، التى آمنا ولا نزال نؤمن بفائدتها . تلك الترجمة التى تحاول ما أمكن بيان الانواع الأدبية كلها منذ النشأة حتى التضج ، ثم رسم الطريق لدراسة هذه الانواع ، وتحليلها ، والسير على منوالها اذا ماتهيأت ظروف الإنتاج للكتاب والباحثين .

— ١٧ —

لسنا نجهل أن هذا الكتاب ، الذى نترجمه ، يعتبر من أوائل الكتب التى ألفت فى الانواع الادبية ؛ كما لا نجهل أيضا أن هذا الموضوع قد تناوله عدد غير يسير من الكتاب والمؤلفين . غير أننا لا نزال نعتقد أن هذا الكتاب بالرغم من قدم عهده يعتبر أوسع محصولا ، وأيسر تحصيلا ، وأعم فائدة ، وأكثر نفعـــا بالنسبة للبيئات الدراسية عندنا : تلك البيئات التى لاتزال ، دون وعى منها ، تخضع لنوع الدراسة الأدبية المعروفة فى معاهدنا العلمية منذ أوائل القرن العشرين الميلادى وتسيطر عليها اتجاهات تلك الدراسة ومناهجها إن صح لنا أن نسميها مناهج . هذه المزايا التى أشر إليها بالنسبة لهذا الكتاب تعود فى جملتها الى منهج المؤلف وطريقته فى عرض الموضوع ولولم يكن إلا هى لما ترددنا أيضا فى ترجمة هذا المؤلَّف؛ ولكن هناك مزايا أخرى تتصل بالموضوع وبالاسلوب قدجعلتنا نحرص على ترجمته وقد ألمعنا إلى بعض هذه المزايا فى مقدمة المجلد الاول حينما كنا نتحدث عن الصعوبات التى تصادفنا فى نقل هذا الأثر من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية . وقد آن الأوان لتوضيح هذه المزايا :

أولا —

لم يلتزم المؤلف طريقة تجريدية فى عرض نظرياته بمعنى أنه لم يكتف بسرد النظرية وشرحها بل إنه كان يشفع هذا العرض بالكثير من الامثله مستشهدا بها طورا وناقضا لها طورا آخر؛ ثم إنه فى ذكر الشواهد وفى الإكثار منها لا يتقيد ببيئة من البيئات الادبية ولا بعصر من العصور الأدبية؛ فتراه مرة يعرج على الادب

لاغريقى القديم ليقتبس منه ما يتلاءم مع موضوعه شعرا كان أم نثرا؛وتراه مرة أخرى يطوف بالادب اللاتينى ليأخذ منه مقتطفات توضح نظريته أو تؤيد وجهة نظرة؛وتراه مرة ثالثة يلجأ إلى الادب الفرنسى فى عصوره المختلفة ليستمد من آثاره ما هو فى حاجة إليه : ومرة رابعة يذهب إلى الادب الانجليزى أو الامريكى أو الإسبانى ليجد فيه شواهده المختارة وأمثلته المطلوبة.وهكذا يستطيع القارىء أن يتنقل معه فى رياض الآدب المختلفة يستظل بأغصانها ، ويشم عبيرها ، ويجنى من أزاهيرها وثمارها . والكتاب من وجهة النظر هذه يشبه أن يكون دائرة معارف أدبية ، ويصور فى نفس الوقت مبلغ ما لدى مؤلفه من دراية ومعارف واطلاع ؛ كما أنه بهذا أيضا يقدم مثالا واضحا أو طرازا لما ينبغى أن يكون عليه الأديب أو العالم بالأدب . ومن أجل ذلك قد وجدنا أنفسنا مضطرين لأن تتجاوب الترجمة العربية مع النص الفرنسى ؛ بمعنى أننا أخذنا على أنفسنا أن نشرح ما فى بعض الشواهد من غموض ، وأن نعلق على ما يستحق منها التعليق ، وأن نترجم للأسماء التى تعتبر غريبة على من لم يدرس الآداب الغربية قديمها وحديثها حتى لا يجد القارىء لهذه الترجمة نفسه غريبا أمام هذه الشواهد ، التى تمتلىء بها صفحات الكتاب ، ولا مستوحشا من تلك الأسماء الأجنبية التى يفيض بها النص الفرنسى .

ثانيا :

- لم يكن مؤلفنا كغيره من الباحثين فى الادب والعالمين بنظرياته الذين لا يهمهم أسلوب الكتابة بقدر ما يهمهم عرض النظريه الادبية وشرحها فى أى تعبير كان وبأية لغة وقعت ؛ وإنما كان فوق ذلك أديبا فى طبعه وفى حسه وفى ذوقه ؛ فأنت حين تقرؤه لايخامرك أدنى شك فى انك تقرأ لأديب يحرص أشد الحرص على سلامة لغته وحسن تعبيراته وجمال أسلوبه ، كما يحرص على تنوع هذا الاسلوب وفقا لما تستلزمه الظروف ؛ فهو اغريقى بكل مايوجد فى أسلوب الاغريقى من مزايا حينما يتحدث عن الأدب الإغريقى ويستعرض بعض الأمثلة منه ؛ وهو

اللاتيني بكل ما في أسلوب اللاتينيين من مزايا حينما يتحدث عن الأدب اللاتيني ويعرض بعض شواهده ؛ وهـو أخيرا فرنسي بكل ما في أسلوب الفرنسيين من مزايا حينما يتحدث عن الادب الفرنسي ويذكر منه بعض الامثلة والشواهد . ومن هنا كانت أشد الصعوبات التي تعترض طريقنا في الترجمة ترجمة أمينة صادقة ؛ كما اشرنا إلى ذلك في مقدمة المجلد الأول . وبهذا الشكل قد جمع النص الفرنسي بين الحسنيين أو المتعتين : متعة العقل ، ومتعة الروح ، ذلك العقل ، الذي لا يمل من البحث عن الفائدة ، وتلك الروح ، التي لا تنقطع عن البحث عن الجمال .

ثالثا :

لم يكن مؤلفنا كذلك كغيره من الكتاب أو النقاد الذين تعرضوا لكتابة في موضوع خاص من موضوعات الادب ، أو في ميدان واحد من ميادينه ، كموضوع الخطابة مثلا أو كموضوع الرواية ، وكميدان الشعر مثلا أو ميدان النثر ، بل إنه استعرض في نفس الوقت وبصورة مفصلة إلى حد كبير كل ميادين الادب ، وكل الموضوعات الأدبية ، لافرق في ذلك بين ما كان متداولا منها عند القدماء وكاد ينعدم تداوله عند المحدثين كأدب الملاحم ، وبين مالم يكن معروفا لدى القدماء وعرف وانتشر عنـد المحدثين كأدب الرواية والقصة . ومن أجل ذلك يستطيع القارىء في قليل من الوقت ، وفي غير صعوبة أن يلم بنظرية الأدب العامة كفن من الفنون الجميلة مصدره الفكرة الانسانية ، كما يلم بتلك الصـور المتعددة التي تتشكل بها هذه الفكرة ، وبتلك الأزياء المختلفة التي تتزيى بها من حين لآخر متتبعا لها في أطوار حياتها المختلفة ، ودارسا للعوامـل العديده التي تعمل على نموها وازدهارها ، أو التي تعمل على ضعفها وتدهورها .

رابعا :

لم يكن مؤلفنا كذلك ـ ولعل هذه أبرز صفة عنده ـ من أولئك المؤلفين الذين

لا يقيمون وزنا كبيرا للمسلك الخلقي والمبادىء الروحية فيما يكتبون ؛ وإنما كان من تلك القلة من الكتاب الذين يهدفون فيما يكتبون إلى التربية الخلقية والسمو بالروح ، كما يهدفون إلى تثقيف العقل وتهذيب الفكر سواء بسواء . ولا غرابة فى تلك فالمؤلف من رجال الدين الذين هصرتهم قيود التربية الدينية القاسية ، وعركتهم مناهج التعليم الكنسى العنيفة ، وهذبتهم المبادىء الروحية قبل أن تهذبهم المبادىء العلمية ؛ فهو حين يتحدث يتجه إلى الروح كما يتجه إلى العقل ، وحين يكتب يستهدف تربية النفس ، كما يستهدف تربية الفكر .

والشباب دائما فى حاجة إلى هذا النوع من الكتابة حتى يستطيع أن يجد فى نفسه ، من حين إلى آخر ، القوة الزاجرة والسلطان الرادع بجانب ما يجده فيها من نزوات طائشة وعواطف فياضة مندفعة . وللمؤلف فيما كتب مواقف عديدة تبرهن على هذا الاتجـاه ، وتشهد له بما يتصف به من صرامة فى الخلق ، وحرص على تهذيب الروح فى النشىء ، ورغبة فى تقويم المعوج من الاخلاق ، واقتناع بأنه لاتنا فى بين المعرفة والفضيلة .

وربما يطول الحديث لو رحنا نفتش فى كل باب أو فى كل فصل أو فى كل صفحة من صفحات الكتاب عن هذه المعانى وعن تلك الاتجاهات؛ ولكن لانجد غضاضة فى أن نعيد هنا بعض ما ذكره حينما تحدث عن مغزى الرواية أو عن التربية الخلقية فيها ؛ إذ من الجائز أن يكون القارىء لهذا الفصل من الكتاب قد مر عليه دون أن يشتغل كثيرا بما فيه من لفتات أخلاقيه ومعانى روحية ؛ غير أنه حين يقرؤه وسط هذه الملاحظات واثناء هذا التحليل يستطيع فى غير عناء ان يدرك ما يرمى إليه المؤلف من تربية وتهذيب .

ولقد انتقد بشدة كل من بوسويه وفينيلون وبوالو التأثير الذى كانت تحدثه قراءة الروايات فى القرن السابع عشر ؛ فأنت ترى بوسويه يثنى على هنريت ،

أميرة انجلترى ، من أجل أنها « تتعلق بقراءة التاريخ » ؟ « وفى قراءتها للتاريخ تفقد ، دون شعور منها ، ذوق قراءة الروايات ومعرفتها فيهـــا من أبطال جهلة حتى؛ ولاهتمامها بمعرفة ما هو حق كانت تحتقر هذه الأوهام التافهة الخطيرة » .... ولم يكن بوالو أقل من بوسويه قسوة فى النقد بالنسبة لهذه الناحية فى تلك الروايات فيصفها « بأنها فاسدة ، وبأن قراءتها تعتبر من أخطر الأشياء بالنسبة للشباب » . ثم يمضى المؤلف بعد ذلك فيقول :

« ولو نظرنا إلى الروايه من حيث هى فإننا لا نستطيع أن نحكم عليها بالخير أو بالشر ؛ ولكن المسألة هى مسألة الانطباع الذى تتركه قراءة الرواية فى أنفسنا ؛ فهو يوصف بالخير أو بالشر وفقا لما تحتوى عليه الرواية ، ولما يتوفر فى القارىء من استعدادات . وبالرغم من ذلك فإن كل الروايات ، التى جاءت بعد رواية — أستريه — وكانت متأثرة بها ، تنطوى على شر مضاعف وتستحق تماما نقد بوسويه وبوالو . فبينما نرى أن الجانب المثالى الشعرى فى الرواية ، وهو حقيقة ثابته دائما ، يهذبنا ويثقفنا ويقوى من عزائمنا ، كما يصنعه فينا الشراب المقوى حتى ولو كان فى بعض الأحيان مرا ؛ نقول ، بينما نرى هذا الجانب من الرواية يحدث ذلك الأثر ، إذا بنا نرى الجانب الخيالى فيها ، حينما لا يكون فى مواجهته إحساس طيب وإدراك قوى ليعارضا ذلك الأثر ، يملأ مخيلتنا بالأوهام ويقدم للحياة أكثر المبادىء خطأ وأشدها خدعة وغرورا . وذلك بالنسبه للقارىء بمثابة النشوة التى يحدثها تدخين الحشيش ؛ فهى بعد أن تذهب عنه تتركه غنيمة للضيق والملل وتانيب الضمير . إننا حينما نعتاد السفر فى بلد الأحلام الجميلة الازوردية سيكون من الصعب علينا أيضا أن نستسلم للواجبات القاسية ، ولما فى الوجود من حركات رتيبة مملة . » .

ها نحن أولاء نلمح من هذا التحليل الدقيق مقدار الاهتمام الذى يعيره المؤلف إلى ما فينا من استعداد نتيجة البيئة التى نشأنا فيها ، والتربية التى مررنا بها ، وإلى ما ينبغى أن نكون عليه من حصانه لكى نأمن شر جموح العواطف وطيش النزوات .

ويتناول المؤلف بنفس اللهجة والاسلوب جانبا آخر من جوانب التأليف الروائى فيقول :

« ثم يأتى بعد ذلك الجانب المخصص سحب ، وخصوصا ما كان منه سلبيا ؛ وهذا الجانب لا يقل خطرا عن الجانب الخيالى . وهؤلاء المتطرفون من أبطال الحب رجالا ونساء ، الذين لا يشغلون إلا به ، ولا يهدفون إلا إليه ، والذين يستهلمون من الحب كل أعمالهم ، والذين يقضون وقتهم فى التنهدات وفى الجرى وراء المغامرات ، هؤلاء فى الواقع ليسوا سوى أمثلة تعيسة مسكينة من أمثله الإنسانية. إن المرء لم يخلق ، ولم يوجد فى هذه الدنيا للحب ، ولكنه خلق ليعمل ، وليؤدى مهمة شاقة يفرضها عليه الوجود فى كل يوم . هناك شىء أعظم بكثير من الحب وأنبل منه بكثير ؛ ذلك هو الواجب . وغالبا ما يكون الواجب عدوا للحب . إن هذه الصور المريضة ، والاوصاف السقيمة للعواطف ، التى نجدها فى الرواية ، ليست شيئا آخر سوى مصدر من مصادر الانحلال ، إذ أنها تزعج الروح ، وتحطم الإرادة فى حين أن كلا من الإرادة والروح فى حاجة إلى القوة والتصميم . إننا فى بحث مستمر عن قصة أنفسنا الخاصة وعن رواية حياتنا الخاصة ، ولقد لاحظنا تماما أننا ننتهى من هذا البحث إلى أن نعثر على ذلك فى قصص الآخرين ورواياتهم

ثم يحاول المؤلف بعد ذلك أن يقارن بين الرواية فى القرن السابع عشر والرواية فى العصور الحديثة فيقول :

« لقد أصبحت الرواية فى العصور الحديثة أكثر اتزانا وأكثر واقعية ، وأقل تصديدا وانعزالا بما كانت عليه فى القرن السابع عشر. ومع ذلك فإنها لم تنجح فى أن تتخلص تخلصا تاما من الجانب الخيالى ، الذى لانزال نجد الكثير من أثاره لدى ـ جورج ساند ـ و ـ بالزاك و ـ أوكتاف فوييه ـ . إنها استطاعت أن توسع دائرتها فتشمل كل الاحساسات الانسانية كالبخل ، والطمع ، والنفاق من ناحية وكالشجاعة ، والبذل ، ونبل الاخلاق أو سمو الروح من ناحية أخرى ؛ غير

أن الحب في كل صوره لا يزال أيضا هو الموضوع المحبب إلى المؤلفين وإلى الجمهور. والفرق الوحيد بين الحب كما كان يصوره السابقون ، وكما تصوره الرواية في هذا العصر هو أن الحب في هذه الأيام لم يكن مصدرا للتأوه ولا للتنهد إلا في النادر القليل ، لقد أصبح قاتلا . والآن لا نتحدث هنا عن الروايات « التجريبية » التي ألفها زولا - ولا عن الروايات التي ألفها الأخوان - جونكور - ، فهذه وتلك ليست إلا عرضا للفضائح التي ما كان ينبغي لها أن تعد ضمن الآثار الأدبية لأننا نعيذ منها شرف الإنسانية وشرف المؤلفين الروائيين » .

ولننظر إليه أخيرا وهو يحلل الصلة بين الشباب وقراءة الروايات ثم ما تحدثه هذه الروايات من تأثير على الشباب :

« ولكي نوجز ذلك نقول إن الروايات لا تخلو من خطر بالنسبة للشباب ذلك الشباب الذي يندفع بحكم إحساسه الملتهب وخياله المتجول في المهامه إلى إزعاج التعقل والتدبير وتخطئة القيادة الحكيمة في الحياة وكل ذلك إنما هو على حساب العقل الناشئ الوليد . ومن الممكن أن تكون الرواية نوعا من التسلية لا غذاء لمن تقدم بهم السن أو للأدباء الذين لا يبحثون فيها عن إشباع رغبة صبيانية ، او مريضة ، بل عن صورة فنية ، وعن استزادة في معرفة القلب الإنساني . وهذان الأمران وحدهما كفيلان بالتخفيف من حدة سموم القراءة في الروايات » .

مؤلفنا إذن حريص على تقويم الاخلاق بقدر حرصه على ايصال المعرفة بل ربما كان حرصه في الأولى اشد من حرصه في الثانية . ومن أجل ذلك فقد كنا بدورنا حريصين على ترجمة كتابه اشد من حرصنا على ترجمة اى كتاب آخر في نفس الموضوع .

١٨

بعد هذه الملاحظات السريعة التي لاحظناها بالنسبة للأدب العربي وما يحتوى عليه من موضوعات للدرس ، ثم بالنسبة لحظه من الدراسة التي تتناوله في معاهدنا العلمية ، وبعد هذه المزايا الأصيلة التي عرضناها بالنسبة لهذا الكتاب هل لنا ان نطمع في ان يشاركنا القارئ في هذا الإحساس بالطمأنينة والرضا عن هذا الصنيع؟

وهل لنا أن نطمع ايضا في ان نكون بدورنا محل رضا من اساتذتنا الذين كانوا يستحثوننا بل يدفعوننا دفعا إلى نقل الآثار العقلية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية حتى تكمل الحلقة المفقودة كما كانوا يقولون ، وحتى نستطيع أن ندرس الأدب العربي دراسة صحيحة وفق مناهج جديدة ؟

هذا هو كل ما نطمع فيه ، ويوم يتحقق هذا الرجاء نكون قد ادينا جانبا من الرسالة نحو الأدب العربي ونحو الشبيبة العربية .

فهرس

فهرست الموضوعات التى شرحناها أو ترجمنا لها فى المجلد الأول من نظرية الأنواع الأدبية . وهذه الموضوعات مرتبة ترتيبا أبجديا ومكتوبة حسب النطق بالحروف العربية ، ولن يجد القارىء أدنى صعوبة لكى يقرأها بلغتها الأصلية حينما يعثر على الصفحة

فهرست الأسماء التى ترجمنا لها أوشرحناها فى المجلد الأول من نظرية الأنواع الأدبيه . وهذه الاسماء بدورها مرتبة ترتيبا أبجديا باعتبار الحرف الاول فقط منها .ومكتوبة على نمط كتابة الموضوعات المتقدمة

فهارس المجلد الثانى من نظرية الأنواع الادبية

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

فهرس الموضوعات

التى ترجمنا لها أو شرحناها فى المجلد الثانى

فهرس الأسماء

التى ترجمنا لها فى المجلد الثانى

وقد سرنا فيها بنفس النظام الذى اتبعناه فى فهرس المجلد الأول ؛ بمعنى أننا كتبنا الأسماء الأجنبية بالحروف العربية ثم رتبناها ترتيبا أبجديا .

— انتهى —



مطبعة نصر مصر